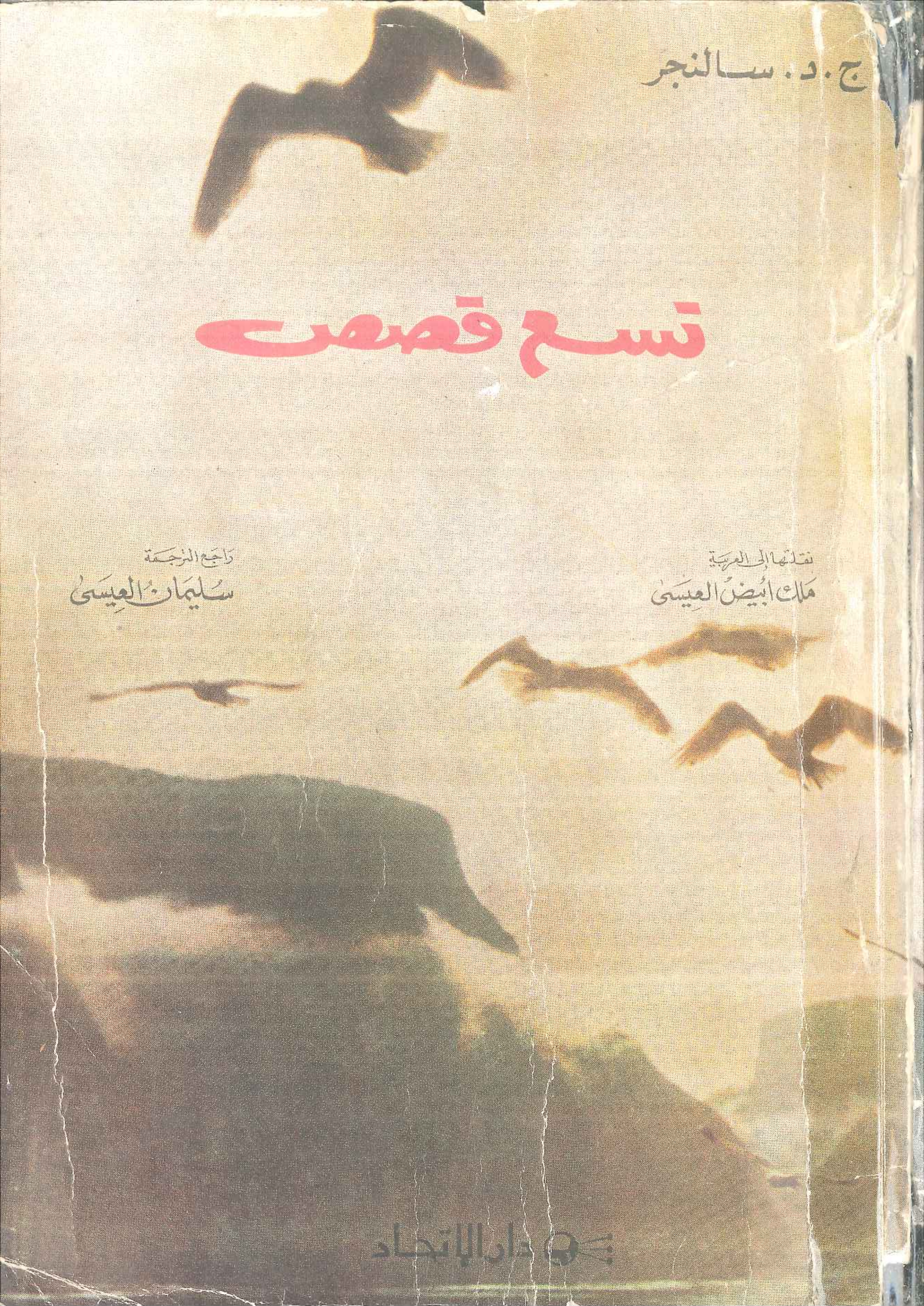

ج. د. سالنجر

تسع قصص

نقلتها إلى العربية
ملك أبيض العيسى

راجع الترجمة
سليمان العيسى

دار الاتحاد

تسع قصص

ج. د. سالنجر

تسع قصص

نقلتها الى العربية
ملك ابيض العيسى

راجع الترجمة
سليمان العيسى

منشورات
دار الاتحاد
ص ب ٢٢٥٩
بيروت

الإهداء

الى
دوروتي أولدنغ
و
غوس اوبرانو

مقدمة

بقلم : جان لويس كورتيس

« آثرنا أن نثبت هذه المقدمة كما جاءت في الترجمة الفرنسية . . صورة من صور الدراسة الواعية ، والنقد العميق . »

م . أ .

كان ذلك منذ بضع سنوات ، عندما وصلتُ المعهدَ الأمريكي ، لأكون مدرساً فيه . لقد أشار علي أحد زملائي حينئذ بقراءة « حارس الشيْلـَم » [1] :

« إني على يقين من أن الكتاب سيعجبك كثيراً . »

ابتعت المؤلـّف طائعاً في المساء ذاته ، وبدأت قراءته بعد العشاء ، ولم أتركه حتى أنهيته حوالي الساعة الرابعة صباحاً . واذكر أني انفجرت ضاحكاً اثنـــاء القراءة أكثر من مرة . وهزني بعمق . وأعجبت به إعجاباً بلغ حد الدهشة . . تماماً كما أعلنت الكلمة المثبتة على الغلاف للدعاية :

(١) يصدر قريباً عن « دار الاتحاد »

« هذا الكتاب الخارق قد يصدمكم ؛ إنه سيضحككم ؛ وربما حطم قلوبكم .. ولكنكم لن تنسوه ابداً . »

ويبدو أني كنت بمثابة الجمهور الممتاز للكتاب . فقد تحققت معي نقاط هذا البرنامج الذي وضع للدعاية بحذافيرها .

وفي اليوم التالي رحت أبحث ، وأتقصى المعلومات ، عن هذا الكاتب المدهش سالنجر : من عساه يكون ؟ وأين تراه يعيش ؟ وما هي مؤلفاته الأخرى ؟

لم يكن باستطاعة أحد أن يقدم لي ما يشفي غليلي ؛ فلم يكن أحد يعلم الكثير عن سالنجر هذا .لم يكن هذا الاسم من الأسماء التي تثير أية ضوضاء حولها .

ومن اللمحة المقتَضَبة المثبتة على غلاف الكتاب عن حياة المؤلف ، من هذه اللمحة وحـــدها استطعت أن أعرف أنه ولد في نيويورك عام ١٩١٩ ، وانه انتسب الى كلية حربية ؛ ثم أصبح طالباً في معاهد ثلاثة على التوالي .. وأنه خدم في الجيش . ما بين ١٩٤٢ – ١٩٤٦ . لقد نشر بعض القصص في النيويوركر ، وفي هاربرز ماچازين .

أما روايته الأولى « حارس الشيْلَم » فقد ظهرت عام ١٩٤٨ ؛ واختيرت على الفور كأحسن كتاب جديد من قِبَل نادي « كتاب الشهر » ؛ وأصبحت ، كما أنبأني زميلي ، ضرباً من المؤلفات المدرسية لا تقل شهرة وذيوعاً عن «هكلبوري فـــين » .

لم يدهشني ذلك. لقد ترك في هذا الكتاب بكثافة مادته النفسية، وأصالتها ، بالثقة العجيبة التي تحملها فصوله ، أقول : ترك في انطباعاً بأنه شيء خـــارق ، دائم ، يستعصي على الفناء ...

والآن ، لا بد لي أن أشير بايجاز الى الموضوع الذي يدور هذا الكتاب حوله :

صبيٌّ من الطبقة البورجوازية في نيويورك ، يطرد من المدرسة قبل عطلة عيد

الميلاد بثلاثة أيام ، ولا يجرؤ على العودة الى منزله ، ومواجهة أهله ؛ فيقرر أن يمضي هذه الأيام الثلاثة في نيويورك .

وهنا يقص علينا الحوادث التي تمر به ساعةً فساعة .. في فترة البطالة هذه ، فترة الضيّاع والقلق ، بين المدرسة والمنزل ، بين الطفولة والشباب ، بين التمرد ، وقبول الأمر الواقع ...

لقاءات عن طريق المصادفة ..

بداية مغامرة قذرة ..

موعدان مخفقان مع زميل قديم ، ورفيقة قديمة ..

التطواف من مشرب الى مشرب بحثاً عن نفسه وعن الآخرين ..

ولكنّ هؤلاء الآخرين لا يَعْدُون أن يكونوا خصوماً يناصبونه العِداء ، او أناساً بعيدي المنال ، يكادون أن يكونوا جميعهم أنذالاً ، غلاظاً ، غشاشين ...

وبين الأنذال ، والغلاظ ، والغشاشين هؤلاء ، الذين يؤلفون العجينة غير الشهية لهذا العالم ، يصعب على المرء ان يكتشف قلباً صادقاً ، رقيقاً ، يمكنه أن يحبه ...

نعم .. هناك الشقيقة الصغرى « فوبه ».. ولكنها ليست سوى طفلة صغيرة .

هناك الراهبة الشابة ذات النظارتين المؤطرتين بالحديد ، التي يعطيها بطلنا عشرة دولارات توزعها على فقرائها .. ولكنه لا يستطيع اللحاق بها حتى ديرها .

ثم هناك الشقيق الأصغر إيللي .. ولكنه يموت لسوء الحظ .

إن الأناس الطيبين يبدون أشبه بالأحلام ؛ فإمّا ألاّ نلتقي بهم أبداً ، أو أنهم في عداد الاموات ، أو أنهم لا يوجدون الا في الكتب .. وإمّا أنهم — لسبب او لآخر — بعيدو المنال . ولذلك لا يقع الانسان دائماً إلاّ على الأنذال ، الغلاظ ، المحتالين ، الذين يحاكمهم الكاتب ، ويسخر منهم ، ويحكم عليهم حكماً عنيفاً قاطعاً بتلك الروح التي تميز المراهقين ...

هذه الأيام الثلاثة يقضيها صبيٌ طائع في نيويورك ، ما اظنكم إلاّ قد عرفتم ماذا تمني ؟

إنها ليست سوى بحث عن الحقيقة ، او عن الفرح ، او عن مبرّرات للحياة ، من قِبَلِ شابٍ ما يزال «نصف غاطس» في الطفولة.. شاب يخيفه العالم. إنها – اذا شئتم – قصة التعلُّم ...

أتقولون : « واحدة أخرى ؟ » ...

نعم ! ولكني اطمئنكم بأن هذه لا تشبه أيّاً من الروايات التي قرأتموها في مثل هذا الموضوع .

وفي العام التالي ، في « تاورمينا » عثرت عن طريق المصادفة ، في صالة فندقي ، على كتاب صغير من منشورات « سينيه » .. وكان كتاب تسع اقاصيص بالذات .

مجموعَة تسع قصص قصيرة كان سالنجر قد نشرها في المجلات .

والقيت بنفسي على هذا المؤلّف بنَهم ..

والتهمته في بضع ساعات ..

وعاودني نفس انطباع السرور الذي أحسسته لدى قراءتي « لحارس الشيلم ».. ولكنه لم يعد نفس الاحساس بالاكتشاف ، ما دمت قد عرفت من هو سالنجر ، وما هو قادر عليه ..

كان قادراً على أن يقود قارئه دون اية مقاومة ، في اي اتجاه اراد ..

هناك ضحك ، او ابتسام – ان شئتم – في هذه القصص التي ستقرؤونها ، والتي ترجمها جان باتيست روسّي المؤلّف الشاب لكتاب « انطلاقة خاطئة » .

هناك أيضاً شفقة ، وتمزق ، وشيء غير قليل من البشاعة ، اذا كنتم تطيقون البشاعة .

لن اذكر لكم شيئاً عن محتوى هذه الأقاصيص ، لئلا أفقدها شيئاً من بهائها

من جهة ، (ففي كل منها يلعب التوتر النفسي دوره) ولأنها غير قابلة للتلخيص من جهة أخرى .

إنها تثير الاهتمام ، ليس بما ترويه فقط ، بل بما تصمت عنه ؛ بما تصمت عنه على الأخص ..

إن أهميتها تبدو – إن شئتم التعبير المرهف الدقيق – بين ما يُقرأ ، وما يستشفه القارىء وراء الكلمات ، تحت السطور المطبوعة .

وسآخذ مثالاً على ذلك الأقصوصة الثالثة « قبيل الحرب مع الأسكيمو . »

شخصيات أربع : جيني ، وسيلينا ، وفرانكلين ، وايريك .. مراهقون من نيويورك ، يدور بينهم حديث عادي ، مفكك الى أبعد حد . إنها القصة التي تدركها لأول وهلة ، ولا يبدو عليها أنها تقود الى أي اتجاه ..

ولكن ، اذا كنت تملك شيئاً من رهافة الأذن ، فانك لن تتأخر في أن تدرك قصة أخرى تختبىء وراءها ، تدور دون معرفة أبطال القصة ، لأن أياً من الأبطال الأربعة لا يدري ماذا يحدث على وجه الدقة ؛ ما عدا جيني ، التي تبدو أنها وحدها تحس الموضوع إحساساً غامضاً . ولكن شيئاً ما يجري ... يخصهم جميعاً تحت عناوين مختلفة ...

ولأقل ذلك بشكل آخر ..

شيء ما يخصهم جميعاً دون أن يتدخل المؤلف مرةً واحدة في ذلك ..

دون أن يشرح .

دون أن يعلِّق أي تعليق .

فعن طريق الحوار المتقطع وحده يتوصل القارىء الى التقاط شبكة من العلاقات النفسية المتداخلة التي يبقى الابطال غير شاعرين بها ، او أنهم لم يشعروا بها بعد .

إن سالنجر شيطان بارع بتلك الأشياء الضمنية ، الموحية ؛ التي تكمن وراء السطور ...

سيمر بذهنكم حالاً بالطبع كتاب « الانتحاءات » لناتالي ساروت ؛ ولن تكونوا بعيدين عن الصواب . ولكن الطريقة التي يتبعها كل من المؤلفين تختلف اختلافاً كلياً الواحدة عن الأخرى .. بل قل : انهما متعاكستان ..

واذا كان لا بد من ايجاد صلة تقارب ، فاننا واجدون هذه القرابة بين سالنجر وهنري غر ؟

وعلينا ، مع ذلك ، ان نقوم بعدد لا نهاية له من التصحيحات، وتتبع التلونات لهذا التوازي بين المؤلفين .

قد يتلاقى سالنجر مع بعض معاصريه ؛ ولكنه لا يدين بشيء لأحد .

إن وزن الأشياء التي يصمت عنها الكاتب ، الاشياء التي لم تُقَل ، لم تتجسد في كلمات ، هو الذي يعطي للأقصوصة الاولى « اليوم الموعود لسمكة الموز » جوها الطاغي ، المضطرب ، وكثافتها المقلقة ...

من هو سيمور هذا ؟ الذي تتحدث عنه الأم وابنتها في الهاتف ؟
أهو مريض نفسي ؟
أهو مهموس خَطير ؟
أهو ساديّ ؟

إن شكنا يستمر حتى النهاية .. حتى السطر الأخير ، حيث يتشكل الكل فجأةً من جديد ، تحت ضوء جديد .. ضوء باهر ، يخطف الأبصار .

وليس معنى ذلك أن الكاتب لم يدع أي شيء في الظل؛ ولكن سر سيمور ، اذا كان هنالك من سر ، (والشك وارد في هذا المجال) ليس ما يظنه القارىء في البداية ...

قد يتفق ان تجد اكثر من تفسير ممكن للأقصوصة، كما في «جميل فمي وخضراوان عيناي» .. إن الالتباس هنا يأتي من ذلك الجانب المظلم الذي يستعصي ابداً على المعرفة، والذي لا يقع ابداً تحت الإدراك.. هذا الجانب الذي يوجد في كل حياة، حول كل كائن، في كل كلمة، وفي كل تصرف من تصرفات البشر ...

وفي الوقت ذاته تظل اللغة هي الشرط، والأداة، والانعكاس لهذا الالتباس ..

اللغة التي تستخدم نظرياً لتؤمن اتصال الناس بعضهم ببعض، للتفاهم .

إن أشخاص سالنجر يتكلمون كثيراً، ولكنهم لا يتكلمون مطلقاً كما يدور الحديث على المسرح، ولا كما في روايات التحليل على الطريقة الفرنسية، حيث يبدو الناس جميعاً وكأنهم يملكون موهبة عجيبة للكلمة الدقيقة، للتعبير الصحيح، للصيغة المناسبة ...

ان أشخاص كاقبنا على النقيض من ذلك .

إنهم دائماً يخطئون الهدف . فلا يستطيعون التعبير بدقة عما يشعرون به ..

إنهم ابداً بعيدون عما يعتقدون انهم يقولونه ؛ او يودون نقله الى سواهم ..

إنهم يبحثون عن كلماتهم ..

يتلعثمون ..

يرددون الكلمات ذاتها ..

ومن هذا الانزلاق المستمر في الزمان والمكان،

من هذا التأرجح الأبدي بين اليقين والشك، ينشأ الالتباس والغموض ..

وتنشأ عنه ايضاً كل الأوضاع الغريبة المؤثرة .

ان طريقة التصرف باللغة المحكية، بلغة الحديث الشعبية هو الانتصار المطلق الذي يسجله سالنجر .

عند بعض الكتاب تجد هذا المعنى او ذاك متضخماً ...

عند « كوليت » مثلا اللمس ، والشم ، والذوق .

وعند عدد من الروائيين الفرنسيين المعاصرين النظر ؛ حتى ليخيل اليـك ان بعضهم يملك القدرة على الرؤية المتعددة الجوانب كتلك التي يتميز بها النحل .

وهذا العالـم ، عالـم الأشياء الخام الذي يقدمونه لنا لنتأمــله .. أليس هو بشكل ما العالم الذي تعكسه كرات عينية ضخمة لحشرة ؟! ..

إن الحس الذي يشغل المرتبة الأولى عند كاتبنا هو السمع .

إن سالنجر يلتقط بصورة مدهشة التدفق ، الإيقاع ، لهجة الحديث الدائر ..

ويلتقط ايضاً خصائصه الفردية ..

عطـفـات الجـُمل ..

الرّعـشـات ..

التكرار ..

العـثـرات ..

لا تقولوا : إن المسجلة تستطيع ان تقوم بالمهمة بنفس النجاح .

إن المسجلة المتوارية تحت منضدة العائلة لن تسجل الا وثيقة بتراء .

انها تستطيع ان تكون عوناً في الدراسات الاجتماعية ؛ في الاحصاءات ..

اما المحاكاة الشفهية التي يجيدها بعض الروائيين فهي على نقيض النقل الآلي ..

انها انتقاء ذكي ..

إنها خلق جديد ..

انها إخراج متناغم للمادة التي تقدمها اللغة الدارجة .

وحين نتحسس الحياة في كتاب ما ، فان ذلك لا يتم مطلقاً بالمحاكاة المباشرة ، ولا بالتسجيل الصوتي ، ولا بالتصوير الضوئي ..

وانما بالحدس والفن ..

إن سالنجر لا يشغــل نفسه البتة بوصف الأشياء ، بصنع إطار يضم الموضوع ... الخ

إن الناس عنده يبرزون فجأة ..
يتكلمون ..

والكلام هو الذي يكسبهم حضوراً مادياً ؛ وجهاً،صلات اجتماعية .. واخيراً نوعاً من الكثافة التي يغذيها الذكاء والانفعال .

كل ذلك متضمن تقريباً في الحوار ، فما تحس اثراً لإشارات الإخراج الا ما لا يمكن الاستغناء عنه .

وحتى عندما تكون الأقصوصة مكتوبة في الزمن الماضي ، فهي تجري في الزمن الحاضر .

انه اسلوب يسرد الحالي ..
يكون فيه الراوي المجهول معاصراً تماماً لما يروي ،
يتلاقى ثانية فثانية مع الحركة ..

إن ثلاثاً من القصص التسع تروي بصيغة المتكلم المفرد ، وتتحدث عن تجربة حية قد عاشها صاحبها ، وتمثلها ..

ولكن تلاقي السرد مع الحركة التي يدور حولها قد روعي بحرص وعناية .

إنها اذاً جمالية رومانسية حديثة جداً ، تواكب عن كثب السلوكية الثابتة للرواية الامريكية منذ همنغواي .. حيث يميل الكاتب للاختفاء وراء ما يصف ، وراء ما يقدم لنا للنظر ، او للسمع ...

وبدهي ان هذه الموضوعية سطحية ، او اذا شئت فقل : صُورية .
إنها مجرد طريقة .
موقف فني يتنباه سالنجر بعفوية ، لأنه يلائم مواهبه ، وما يهدف اليه .

ولكن الكاتب الذي يمتلك الشخصية القوية يفرضها دوماً حتى من خلال الأساليب الموضوعية التي يُتوقع منها ان تخفي تلك الشخصية .

إن أذن سالنجر أشبه بعين بعض الطيور الحادة .

إنها اداة للدقة ، شديدة الحساسية ؛ من ورائها دماغ فذ ..

رجل متميز ..

مجموعة انفعالات ...

مجموعة وساوس ..

اسلوب خاص للتصرف في مواجهة العالمَ ، سواء كان ذلك لحب هذا العالمَ او للتألم منه .

ولا يمكن لهذه الأشياء جميعاً إلا ان تترك اثرها فيما يكتبه الكتاب مهما كانوا موضوعيين ، او مهما ارادوا ان يكون كذلك .

في آثار سالنجر موضوع ماثل يلاحقه ابداً هو : الطفولة ، المراهقة ...

ليس ذلك لأن الأطفال ، والصبية الصغار ، والفتيان هم أشخاصه المفضلون ، (وما اقلّ الروائيين الذين يستطيعون مثله أن يجعلوهم يتكلمون بصدق) ؛ ولكن لأن الطفولة ـ والمراهقة على الأخص ـ تمثلان عنده اكثر من مرحلة بيولوجية .

إنهما تمثلان مرحلة النعمة .

بالمعنى الديني تقريباً للكلمة .

كل شيء يجري بالنسبة لكل الكائنات ، بين نهاية المراهقة ، وبـــداية سن الرشد .. كل شيء يجري كما لو ان هناك شيئاً يُفقَد الى الأبد ..

هذا الشيء الذي يفقد الى الأبد هو :

الحس الاخلاقي .

لأن الطفوله ليست مرحلة اللطف ، والسهولة ، والبسمات فحسب ؛ ولكنهـا اكثر من ذلك ..

إنها مرحلة الصرامة ، وعدم التساهل ، والوقوف بجدة في وجه كل ما يجرح الكرامة ، ويسيء الى السمعة .

إن الطفولة ليست بالضرورة ، وحتى عنـد سالنجر ، ليست ابداً « جنة خضراء » ؛ ليست موضوعاً باعثاً للزفرات الحلوة ، والتحسر والحنين ...

إنها ميدان روحي طُرِد المرء منه ..
لغة نسيتَها ..
او فَقَد مفتاحَها ..
وهذه الخيبة تتجسد فينا شعوراً بالألم ..
إنها ينبوع حنين واخز لا ينضب .

إن الشباب يتوصلون احياناً للابقاء على صلة دائمة مع الطفولة ؟ وهـو المقياس الصادق لقيمة الانسان .

إن اشخاص سالنجر اللطفاء هم هؤلاء القادرون على ان يرتاحوا الى الأطفال .. ان يقفوا على قدم المساواة معهم ..

هولدن كوفيلد .. في « حارس الشَّيْلَم » .. يقيم مع شقيقته الصغيرة فوبه علاقات حساسة مرهفة ، محتشمة الى ابعـد الحدود ، لم تتجسد قط في قالب لفظي .. إنها تبدو نوعاً من الحلف تقريباً .

وهكذا الحال مع سيمور ، والطفلة الصغيرة على شاطيء البحر ..
هكذا يبدو قائد الكشافة مع اشباله الصغار ، في اقصوصة « الرجل الضاحك » .
وهكذا تبدو ايضاً « بوبوتانبوم » وابنها ، في قصة : « تحت ، في الزورق » .
وعندما ينقطع هذا الحلف مع الطفولة ، او عندما يصبح مستحيلا ، فمعنى ذلك ان النعمة قد زالت ..

عندئذ ، يجد المرء نفسه في عالَمٍ من القيم الكاذبة يعج بالأشرار ، والانذال .

عالم تصادف فيه لدى كل خطوة .

الغِش ..
والنذالة ..
والخسة ..
والقرف ..

إن بطلة « العم المرضوض في كونكتيكوت » تنحدر بملء إرادتها ، وتنحط مغرقة نفسها بالخمر والابتذال ؛ لا لشيء .. إلا لأنها باتت تعتقد بأنها لم تعد « الطفلة الطيبة » التي كانتها في المدرسة قبل سبع او ثماني سنوات .

وربما كان ذا دلالةٍ كبيرة انتكون اشد قصص المجموعة بشاعة : جميل فمي ، وخضراوان عيناي » .. ان تكون هـذه القصة بالذات هي التي لا يظهر فيها اي طفل .

إن فرنكلين ، بطل « قُبَيلَ الحرب ، مع الاسكيمو » ، هو اخ لهولدن كوفيلد ، ولدوميه سميث الخلاب الذي يقع طوعاً ـ كما في « حارس الشَيْلَم » في حب راهبةٍ شابة ، لأنه ليس هناك من فرقٍ كبير بين الراهبة ، والطفل .

واعتقد ان هؤلاء الابطال الثلاثة ينسجمون تماماً مع القائد في قصة « الرجل الضاحك » .

إن هذا الأخير يمثل في قائمة شباب سالنجر المتوحشين تنوعاً لذيذاً. إنه شاب راشد ، يقع فريسة حب راشد ، يخترع لمستمعيه ؛ لابسي البناطيل القصيرة ، حكايات كحكايات الجرائد المصوّرة ، ينقل خلالها الحلَقات المختلفة لمأساته العاطفية ...

وتفسير ذلك ان انفعالات الرجل البالغ ما تزال تدوّي في اعماقه بنفس الطريقة الحادة ، الحالمة الى حد بعيد ، كما عند ابن الثانية عشرة .

ولكن هاهوذا موضوع الرجل ـ الطفل يتجسد بحذافيره في « تيدي » الغامض ، في القصة الأخيرة . إنه صبيٌّ يخيفك بعلمه المبكر ، وحكمته المدهشة ؛

تستجوبه وتفحصه اعلى الهيئات العلمية في اوروبا وامريكا .

هذا الطفل ، وسط الدكاترة ، الا يبدو انعكاساً للقلق .. القلق الذي ينبعث من الشعور بالحياة على حدود حالتين بيولوجيتين ، على حدود بنيتين عقليتين ؟

الا يبدو بين الراشدين ، المحدودي الذكاء ، ظاهرةً فريـــدةً للطفولة ، والعبقرية ؟ ..

ربما ادّى قلق كهذا الى الجنون ..

او الى الموت ..

إني على يقين بأن هذه الإمور ليست إلا اموراً عرضية اضْطـُرَّ اليها الكاتب لتنسيق كتابه .

ولكن ، لماذا لا يُسمح للقارىء بأن يرى رمزاً عميقاً في كون القصة الأولى والاخيرة في المجموعة تنتهيان بالموت العاصف للكائن الذي يحمل في الوقت ذاته الطفولة ، والرشد معاً ! ..

قد يكون في هذه الانفعالية الفريدة ما يوحي بمرض عصبي .. إني لا افكر في انكار ذلك . ان قصص سالنجر تزود الأطباء النفسانيين الباحثين بمادة مثيرة . ولكن اليس هذا شأن كل مؤلـّف يسترسل كاتبه دون تحفـُّظ ــ اذا لم نقل دون حياء ــ ؛ شأن كل مؤلـّف تشيع فيه حاجة نفسية ملحة ؟

اضف الى ذلك هذا :

إن اي كاتب ممتاز لا يمكن ردُّه الى وساوسه فقط .

انه يستخدمها ،

ولكنه لا يلبث ان يتجاوزها ..

وكما يخرج الأتقياء بنتيجة حسنة من الأمراض ؛ كذلك يخرج الفنانون بنتيجة حسنة من وساوس النفس .

ولا يصل الكاتب في اغلب الأحيان الى الحقيقة ، الى ضروب من الجمال تظل خافية على الأصحاء الا عن طريق هذه الوساوس ، وترجمتها الى عمل فني .

ان العالم الذي يصفه سالنجر .. هذا العالم الذي يبدو طوراً مبكياً ، وطوراً مضحكاً ، طوراً متجهماً ، وآخر رحيماً .. هو عالمنا نحن ...

إنه يحكي لنا عن الحب ، وعن الوحدة ، عن الخوف من الحياة ، عن الوطن المشترك بين القلوب النقية ، بين الرجال والنساء الذين عرفوا كيف يبقون اقرب ما يكون الى الأطفال .

إنه بالنسبة للقارىء المتسرع عالـَم منظور من الخارج ،يمكن إرجاعه في النهاية الى مجموعة مظاهره الخارجية .

ولكن بالنسبة للقارىء اليقـِظ ، المتئدِ ، تبدو سلوكية سالنجر – وليس هذا هو التناقض الوحيد في فنه – شيئاً آخر . إنها تخفي ميداناً واسعاً ظل مستعصياً على التعبير تحت السطح البريء للأفعال ، والكلمات .

هناك ، وراء ما يظهر بجلاء ، مستويات خلفية ، غير محددة ، تظهر في نصف ظلمة تتحرك وتخفق .

هذا هو سر توتر الحياة القوي الذي ينبض به هؤلاء الأشخاص المختارون في أغلب الأحيان من سواد الناس ، الذين يصادفون في الحياة اليومية .. ومعنى ذلك أن هذه المزية ، مزية الحضور هي موهبة قبل كل شيء .. وهي من دون شك أندر ما تكون بالنسبة للروائي ، ولكنها أيضاً نتيجة إخراج متقن ، محسوب حساباً دقيقاً بحيث لم يترك شيء فيه للمصادفة .

ها هو إذاً كاتب ينحصر اهتمامه في القلب الانساني .. ولكنكم لن تجـــدوا عنده سطرين من التحليل النفسي المقصود لذاته . إنه يمقته أشد المقت . إنه عاطفي بصورة جلية ، يحس من كل قلبه أشخاصه الطيبين ، ولكن ليس هناك مع ذلك من يفوقه سخرية ، من يعرف مثله كيف يكشف القناع بقسوة فاضحة عن التصنع ،

والادعاء ، والكذب .

هوذا أخيراً روائي ذكي ، لا يخشى أن يكون رحيماً ...
إنه يتوصل كأكبر الروائيين الى جعل الطيبة حقيقة ..
إنه قادر على أن يصنع من المشاعر الطيبة أدباً رائعاً ..

وكواحد من قمم الروائيين نراه قد نجح أيضاً بمعجزة كان يُظَنّ أنها مستحيلة في هذا العصر الذى ندر فيه الإيمان الرومانسي ..

لقد خلق شخصية « هولدن كوفيلد » في « حارس الشيلم » ، فاذا ملايين من الشباب يتعرفون على أنفسهم فيه ، واذا هذه الشخصية تحتل مكانها الى جانب « الوجوه الخالدة » في أدب بلاده ، الى جانب « هوكلبري فين » و « أوجين غانت » ، و « جاي غاتسبي » ...

وبالرغم من ذيوع شهرة سالنجر في أمريكا ، فقد كان المتوقع من زملائه الكتاب أن ينصفوه .. أن يقدِّروه حق قدره ...

وعكس ذلك سيكون هو الأمر المستغرَب .

وها إني أقدم ، إرواءً لحب الاطلاع ، أحكاماً صادرة عن كاتبين أمريكيين من جيل سالنجر نفسه .

ها هي ذي ماري ماكارثي تصرح في مقابلة صحفية بأن كاتب « حارس الشيلم» « ليس الا بهلواناً ، مزهواً بنفسه .. ضرباً من عازف الكمان المبتور الذراع ...»

أما نورمان مايلر ، كاتب رواية « العُراة والأموات » ، فهو ينظر اليه كمراهق دائم قائلاً :

« إن سالنجر اكبر فكر بقي في مستوى المدرسة الثانوية .»

إن ما يحسنه يقوم به ببراعة فائقة ، ويحيله الى قطعة منه . ولكن ذلك لا يلبث أن يبدو مملا اذا ما استمر ، أجل ، سيكون مملاً أن يعيش الإنسان أبداً في

ميدان المدرسة الثانوية ، حيث يُهزم الضعفاء والحساسون أمام المتوحشين ذوي العضلات ... وما أظن سالنجر بقادر على أن يشق طريقه في ميدان رواية راشدة .. »

مثل هذه الأحكام الجازمة ، الجائرة ، يجب ألا تؤثر فينا ..

أيريد نورمان مايلر أن يقول بأن سالنجر لا يعالج « مواضيع كبيرة » ؟ ... ولكن لم يعد أحد يقتنع بأن موضوعاً كبيراً – وليكن الحرب العالمية مثلاً – يستطيع أن يرفع مستوى كتاب ...

أمّا عن اتهـامه بالزهو ، بالنارسيسية .. والبهلوانيـة ، فان كل الكتاب نارسيسيون الى حد ما .. والبهلوانية محمودة من دون شك اكثر من الغلَظ والثقل ...

لقد سئمنا من سماع من يتكرمون علينا تكرماً بالكلام ... كما هو الحال غالباً في هذه الأيام ..

تعبنا ممن يلاحقوننا أبداً بهذه الصفات الفنية .

الحِذْق ..

الدقة ..

التضلّع ..

التمكن من الموضوع ..

التي تتوجها جميعاً كلمة واحدة :

البراعة ..

ولست مقتنعاً بأن هذه الصفات منتشرة جداً . كما أني لم أسلّم قط بنقيض النظرية التقليدية التي تلح على الجانب الآخر .. أعني العمق ، والجدية .

إن آثار سالنجر قليلة من ناحية الكم ..

رواية واحدة ..

ومجموعة قصص .. [1]

ومع ذلك ، فان هذا الانتاج الذي هو في بدايته يفرض نفسه علينا بسلطان غير عادي .

اقرأوا هذه القصص التسع ..

ستكتشفون فيها كاتباً حساساً بصورة خارقة ، وحاذقاً بصورة خارقة ..

وبودي أن أقول : روائي كامل ..

كما يقال عن الرياضي ،

لأن الحدس والصنعة عنده متوازنان يسيطر عليهما سيطرةً كاملة ..

او كما يقال عن المشهد ،

لأن سالنجر يستطيع أن يمس في نفس الوقت قلبنا ومخيلتنا ، ويلعب كالعازف البارع الذي لايبارى بكل عواطفنا :

العطف ، والضحك ، ورعشة الخوف ، والرحمة .

جان لويس كورتيس

(١) ظهر له في ايلول (١٩٦١) مؤلف ثالث في اميركا ، هو رواية « فراني وزووي . »

« اننا نعرف صوت يدين تصفقان . . .
ولكن ، ما هو صوت يد واحده تصفق ؟ »

أ . زن . كوان .

يوم مثالي لسمكة الموز

١

كان في الفندق سبع وتسعون رجلا من رجال الاعلان في نيويورك .
كانوا يحتكرون الخطوط الهاتفية الداخلية .

وهكذا اضطرت المرأة الشابة التي تحتل الغرفة رقم (٥٠٧) أن تنتظر من الثانية عشرة ظهراً حتى الثانية والنصف لتحصل على مكالمتها .

ولم تمكث تلك الفترة كلها بدون عمل . فقد أتت على مقالة في مجلة جيب نسائية بعنوان : الجنس ، هو الجنة او الجحيم ؛ ورتبت مشطها وفرشاتها ؛ وازالت بقعة عن تنورة طقمها ذي اللون الأخضر ، وغيرت مكان زر قيصها الذي اشترته من عند ساكس ، وأزالت شعرتين نبتا حديثاً على شامة في وجهها ؛ وعندما ناداها «الموظف» اخيراً . . كانت تجلس على حافة النافذة تنهي طلاء أظافر يدها اليسرى .

لم تكن من اولئك النسوة اللواتي يضعن رؤوسهن لرنة جرس من هاتف . كانت تتصرف كما لو أن الهاتف لم ينقطع قط عن الرنين منذ بلوغها سن المراهقة .

وراحت تنهي صباغ ظفر إصبعها الصغير بفرشاتها الصغيرة ، والهاتف مايزال يرن ، ولم يفتها أن تحدد إطار الهلال الذي يؤلف أسفل الظفر .

ثم أغلقت زجاجة الطلاء ، ونهضت وهي تهز يدها لتجففها . وبيدها اليمنى الطليقة أمسكت بنفضة سجائر ملأى كانت موضوعة على حافة النافذة ، وحملتها الى منضدة الليل ، لتضعها الى جانب الهاتف ؛ ثم استقرت على احد السريرين التوأمين . . وكان الهاتف قد رن خمس اوست مرات حين رفعت السماعة .
ـ آلو . .

قالت ذلك ، وأصابع يدها اليسرى بعيدة شيئاً عن غلالة النوم التي ترتديها ، الغلالة المصنوعة من الحرير الأبيض .. لقد كانت كل ما يستر جسمها بالاضافة الى بابوجها ... أما خواتمها فقد بقيت في الحمام .

وأجاب العامل :

– ها هي ذي مخابرتك لنيويورك يا مدام غلاس .

وردت المرأة الشابة :

– شكراً .

وأفسحت مكاناً للمنفضة على المنضدة الليلية .

وسمع صوت نسائي يقول :

– أهذه انت ، يا موريبل ؟

وأبعدت المرأة الشابة سماعة الهاتف قليلاً عن أذنها ، وأجابت :

– نعم ، يا ماما ، كيف حالك ؟

– لقد كنت مضطربة الى أقصى حد . لماذا لم تخاطبيني قبل الآن ؟ هل كل شيء عندك على ما يرام ؟

– لقد حاولت الاتصال بك مساء الأمس ، وما قبـــل الأمس ، ولكن الهاتف هنا ....

– أكل شيء على ما يرام ، يا موريبل ؟

وزادت المرأة الشابة من ابعاد السماعة عن أذنها .

– لا بأس ؛ الحر شديد . إنه أشد الأيام التي رأيتهـا في فلوريدا حرارة ، منذ أن ....

– لماذا لم تتصلي بي ؟ لقد شغلتِ بالي كثيراً !

وردت المرأة الشابة :

– ماما ، العزيزة . لا تصرخي بهذا الشكل . إني أسمعك تماماً . لقد طلبتك مرتين مساء البارحة . المرة الأولى بالضبط بعد ...

– كنت أقول له ذلك – أعني والدك – بأنك لا بد أن تتصلي بنا ... وكان عليك أن تفعلي ... هل كل شيء على ما يرام ؟ موريبيل ! قولي الحقيقة ...

– إني بخير . كفي عن ترديد هذا السؤال . أرجوك .

– متى وصلتما ؟

– لم أعد أعرف . الأربعاء ، في الصباح الباكر .

– من كان يقود ؟

وردت المرأة الشابة :

– هو .. لا تغضبي . لقد كان يقود السيارة كملاك . وما زلت في دهشة من ذلك .

– هو .. الذي كان يقود إذاً ؟ موريبيل ! لقد وعدتني مع ذلك ...

وقاطعت المرأة الشابة :

– ماما .. قلت لك بأنه كان يقود كالملاك .ولم تتجاوز السرعة الثمانين كيلومتراً طوال الطريق . إني اؤكد لك ذلك .

– وهل عاد الى مسرحية من مسرحياته المعروفة مع الأشجار ؟

– ماما . إني اكرر لك بأنه كان يقود كملاك . إصغي الي . أرجوك . ولقد طلبت اليه أن ينتبه الى الخطوط الصفراء .. والى كل شيء ... وكان يفهم ،وينفذ وكان الى ذلك يبذل كل ما في وسعه لئلا ينظر الى الأشجار . إني اؤكد لك . وبالمناسبة ، هل أصلح أبي السيارة ؟

– لا ، لم يقم بذلك بعد . إنهم يطلبون اربعمائة دولار ! ...

– ماما .. لقد قال سيمور لأبي بأنه سيتحمل النفقات ، ليس معه حق ...

– حسناً ، سنرى . كيف كان أثناء السفر بالضبط : أخبريني كل شيء ...؟

وردت المرأة الشابة :

ـ على أحسن حال ...

ـ ألا يزال يناديك بذلك الاسم الشنيع ؟

ـ لا ، لقد اخترع الآن شيئاً جديداً ...

ـ ما هو ؟

ـ أوه .. وماذا يهمك ذلك يا ماما ؟

ـ موريل ! أريد ان أعرف . إن أباك ...

وردت الفتاة بضحكة عصبية مقتضبة :

ـ حسناً ، حسناً ، إنه يناديني الآنسة المتشردة (أخلاق ١٩٤٨) .

ـ ليس هذا بغريب ؛ يا موريل ... ليس هذا بمستغرب أبداً . إنه مخيف . إنه محزن . هذا ما أسميه .. عندما افكر بأن ...

وقاطعت الفتاة :

ـ ماما .. إصغي الي : أتتذكرين جيداً ذلك الكتاب الذي أرسله الي من ألمانيا ؟ أنت تعرفين . القصائد الألمانية ؟ ماذا فعلت به ؟ إني أحضر في ذاكرتي بحثاً عنه ...

ـ إنه عندك ...

قالت المرأة الشابة :

ـ هل أنت متأكدة ؟

ـ كل التأكد . يعني أنه عندي . إنه في غرفة «فريدي» . لقد تركته أنت هناك لم يكن ثمة مكان في الـ ...

ـ لماذا ؟ هل يطلبه ؟

ـ لا ، ولكنه سألني عنه أثناء السفر . كان يريد أن يعرف ما اذا كنت قد قرأته .

ـ ولكنه باللغة الألمانية ...

– نعم ، مامي ، هذا لا يغير من الأمر شيئاً . قالت المرأة الشابة ذلـك ، وهي تضع رجلا على الأخرى . لقد قال لي بأن تلك القصائد كتبت بقلم الشاعر الكبير الوحيد في هذا العصر ، وأنه كان عليّ أن أفتني ترجمة لها ، او شيئاً من هذا القبيل . او حتى أن اتعلم اللغة . اتتصورين ذلك ؟

– إن هذا مخيف . مخيف . مؤسف .. هذا ما أرى ... كان ابوك يقول لي مساء البارحة ...

قالت المرأة الشابة :

– ماما ، انتظري لحظة . وراحت تبحث عن سجائرها على حافة النافذة ، وأشعلت واحدة ، ثم عادت تجلس على السرير ، وقـالت وهي ترسل نفثة من الدخان :

– ماما ..

– موريل ، أصغي اليّ الآن .

– إني مصغية .

– لقد كلم والدك الدكتور سيفتسكي .

وهمست المرأة الشابة :

– آه !

– لقد ذكر له كل شيء . أو قال على الأقل إنه قـام بذلك . إنك تعرفين والدك : الاشجار . هذه القصة ، قصة النافذة . تلك الحماقات التي كان يرددهـا لجدتك عما يريد أن يفعله في العالم الآخر . ماذا صنع بلوحاته الجميلة عـن جزر برمودا ... كل شيء .. كل شيء ...

وقالت المرأة الشابة :

– وماذا كانت النتيجة ؟

– النتيجة ؟ لقد أعلن بالدرجة الاولى أنها كانت جريمة كبرى ارتكبها الجيش باخراجه من المستشفى . أقسم لك ، لقد قال لوالدك – بصورة قاطعة – بأن

هناك احتمالاً كبيراً ، احتمالاً كبيراً جداً بأن يفقد سيمور عقله نهائياً . إني أقسم الك ...

وقالت الابنة :

— في المستشفى هنا طبيب نفسي .

— من هو ؟ ماذا يدعى ؟

— لا اعرف ، ريزر .. او شيء من هذا القبيل . يبدو أنه طبيب ماهر .

— لم اسمع بمثل هذا الاسم قط .

— انه يبدو ، بالرغم من ذلك . طبيباً بارعاً .

— موربيل ، لا تكوني وقحة ، ارجوك ؛ إنك لا تعرفين كم ينشغل بالنا من أجلك . سأقول الك مع ذلك بأن أباك كان يريد البارحة ، البارحة مساءً أن يبرق لك لتعودي ...

— ماما ، إني لا افكر بالعودة مطلقاً ، فكفي عن إزعاج نفسك .

— موربيل ، اني أقسم لك أن الدكتور سيفتسكي قد قال بأنه يخشى أن يفقد سيمور عقله نهائياً .

— اني لم اكد أصل يا ماما . وهذه عطلتي الاولى التي آخذها منذ سنوات . لست على استعداد الآن لأحزم كل امتعتي وأقفل عائدة وعلى كل حال ، لست في وضع يساعدني على السفر . لقد أصبت بضربة شمس فظيعة ! اني ما أكاد اقوى على الحراك .

— أصبت بضربة شمس ؟ لماذا لم تستعملي «البرونز» الذي وضعته في حقيبتك. لقد وضعته مع ...

— لقد استعملته ، ومع ذلك لم أنجُ من ضربة الشمس .

— هذا مخيف . أين أصبتِ بالحروق ؟

— في جسمي كله ، مامي ، في جسمي كله ...

— هذا مخيف .

— لن أموت بسبب ذلك .

— قولي لي . هل تحدثت مع هذا الطبيب النفسي ؛

قالت المرأة الشابة :

— نعم ... بطريقة ما ، نعم ...

— وماذا قال ؟ أين كان سيمور حين تحدثت اليه ؟

— في « الاوسيان روم » . كان يعزف على البيانو . انه لم ينقطع عن العزف طوال الليلتين اللتين قضيناهما هنا .

— وماذا قال اذاً ؟

— لم يقل شيئاً كثيراً . لقد ابتدأ هو الحديث . كنت جالسة بقربه في «البنجو» مساء البارحة ، وسألني ما اذا كان زوجي هـــو الذي يعزف على البيانو في الصالة المجاورة : فأجبته بأنه هو . فسألني ما اذا كان سيمور مريضاً ، او ما يشبه ذلك . حينئذ ، قلت ...

— لماذا سألك هذا السؤال ؟

وردت الابنة :

— لا أعرف يا ماما ؛ ربما لانه كان شاحباً بصورة ظاهرة ، او شيء من هذا القبيل . باختصار ، بعد « البنجو » . طلب اليّ هو وزوجته أن أتنـــاول كأساً معهما . فقبلت . إن امرأته مخيفة . هل تتذكرين ثوب السهرة القبيح جداً الذي رأيناه في الواجهة عند « بونويت » ؟ الثوب الذي كنت تقولين عنه بأن المرأة التي ترتديه يجب أن يكون لها ... صغيراً جداً ...

— الاخضر ؟

— كانت تلبسه ... بالرغم من أردافها الهائلة ! لم تنقطع عن سؤالي عما اذا كان

سيمور قريباً لهذه السوزان غلاس ، صانعة القبعات في شارع ماديسون ...
— ولكن ، ماذا قال هو ، أعني الطبيب ؟
— اوه ! حسناً ، لم يقل شيئاً كثيراً ، في النهاية ، أريد أن أقول كنا في البار و .... ، وكانت هناك ضجة فظيعة .

— نعم، ولكن هل... هل شرحت له ماذا حاول أن يصنع بكرسي جدتك ؟

قالت المرأة الشابة :

—لا، يا ماما، لم أدخل كثيراً في التفاصيل . سيكون لديّ الفرصة لاتحدث معه من جديد في الموضوع . إنه يمضي كل أيامه في البار .

— هل قال بأنه قد يصبح ... أنت تعرفين... غريباً، اوما يشبه ذلك ؟ أن يؤذيك مثلا ؟

قالت المرأة الشابة :

— لم يقل ذلك تماماً. إن جواباً كهذا يتطلب معلومات اكثر دقة ، كأن يعرف شيئاً عن طفولته ... أخيراً... كل هذه الاشياء ... لقد قلت لك يا ماما ، كانت هناك ضجة فظيعة ، لدرجة ان الانسان لا يكاد يستطيع الكلام .

— حسناً ، و كيف حال معطفك الأزرق ؟
— ممتاز ، لقد خففت قليلاً من حشوة الاكتاف .
— كيف زيُّ الفساتين هذا العام ؟
قالت المرأة الشابة :
— هائلة ولكن لسكان المريخ ... لا ترين أمامك إلا ... كومات من القطع الذهبية ... كومات من الخشاخيش ...

— و كيف غرفتك ؟
قالت المرأة الشابة :

ـ لابأس ، يعني لا بأس ؛ لم نستطع الحصول على الغرفة التي نزلنا فيها قبل الحرب .

إن الناس مخيفون هذا العام . كم أود أن تشاهدي الذين يجلسون الى جانبنا في المطعم، على المنضدة المجاورة... يخيل اليكِ أنهم قادمون في عربة حيوانات ..

ـ أتعرفين ؟ إن الأمر كذلك في كل مكان ..

ـ وكيف فستان السهرة ؟ الذي فصلته حديثاً .

ـ طويل جداً .. لقد قلت لك بأنه سيكون طويلاً جداً ..

ـ موريل ! إني أسألك مرة أخرى ، ولكنها المرة الأخيرة .. هل كل شيء على ما يرام حقاً ؟

قالت المرأة الشابة :

ـ نعم ، نعم ، يا ماما ، أقول ذلك للمرة ...

ـ ولا تريدين العودة ؟ ..

ـ لا يا ماما .

ـ لقد قال لي والدك مساء البارحة بأنه لا يتردد في دفع التكاليف اذا ما أردت السفر وحدك الى مكان ما .. ولا يتأخر عن التفكير في كل ما يمر بك . يمكنك القيام برحلة في البحر . لقد فكر كلانا بأنك قد ...

قالت المرأة الشابة :

ـ لا ، انكما لطيفان جداً .

وأنزلت ساقها عن الساق الأخرى .

ـ يا ماما ، إن هذه المخابرة ستكلفنا مبلغاً ...

ـ عندما اتذكر بأنكِ انتظرت هذا الصبي طوال فترة الحرب .. أريد ان أقول : عندما يفكر الانسان بتلك الزوجات الصغيرات المجنونات اللواتي ...

ـ ماما ، الأفضل ان نتوقف الآن . قد يعود سيمور بين لحظة واخرى .

– أين هو ؟

– على الشاطىء .

– على الشاطىء ؟ وحده ؟ هل يتصرف بصورة لائقة على الشاطىء ؟

وردت المرأة الشابة :

– ماما ، انك تتكلمين عنه كما لو كان مجنوناً خطراً .

– لم أقل شيئاً من هذا ، موربيل !

– هذا ما يشتَمُ من حديثك اذاً . أتعرفين ؟ ان كل ما يفعله هو أن يبقى، متمدداً هناك . انه لا يريد ان يخلع معطف الاستحمام .

– انه لايريد ان يخلع معطف الاستحمام ؟ لماذا ؟

– لا اعرف ، ربما لان بشرته بيضاء اكثر مما ينبغي .

– يا إلهي ! ولكنه بحاجة للشمس . ألا تستطيعين حمله على خلعه ؟

قالت المرأة الشابة وهي تضع من جديد ساقاً على ساق :

– انتِ تعرفين سيمور. يقول: إنه لا يريد ان يرى حوله مجموعةً من البُلَهاء، ينظرون الى وشمه .

– ولكنه ليس موشوماً . أتراه قد وشم نفسه في الجيش ؟

وردت المرأة الشابة وهي تنهض من مكانها :

– لا يا ماما ، لا يا مامي . إصغي الي ؛ قد أكلمك غداً مرة أخرى ...

– موربيل ! إصغي اليّ الآن ...

قالت المرأة الشابة وهي ترتكز بكل ثقلها على ساقها اليمنى .

– نعم ، ماما .

– ناديني فوراً ، إذا ما عمل او قال اي شيء غريب ... انك تدركين ما اعني ... اتسمعينني ؟

ــ ماما ، انا لا أخشى شيئاً من سيمور ...

ــ موريل ؛ اريد ان تعديني بذلك .

قالت المرأة الشابة :

ــ حسناً ، الى اللقاء ماما .. الف قبلة لبابا .

وعلقت السماعة .

* * *

قالت سيبيل كارينتر التي تقطن في الفندق مع امها :

ــ إني ارى مزيداً من الزجاج ؛ هل رأيت انت ايضاً المزيد منه ؟

ــ توقفي عن ترديد ذلك ، يا صغيرتي ، سيجعلني ذلك افقد صوابي تماماً .. اهدئي قليلاً . ارجوك .

كانت السيدة كارينتر تضع الزيت على كتفي سيبيل لحمايتها من لذعات الشمس . كانت تمده بعناية على عظام الكتفين الهزيلتين الشبيهتين بجناحَيْ طائر . كانت سيبيل تجلس أمام المحيط جلسةً غير مستقرة ، على بالون منفوخ من بالونات الشاطىء ، وترتدي لباساً بحرياً أصفر فاقعاً .. لباس بحريٌ من قطعتين .. الاولى منه لالزوم لها إلا بعد عشر سنوات .

ــ لم يكن إلا مجرد منديل حريري في الواقع . يبدو ذلك واضحاً اذا ما نظر اليه عن كثب .

هكذا كانت تثرثر المرأة الممددة على « الكرسي الطويل » ، الى جانب السيدة كارينتر . أود من صميم قلبي ان اعرف كيف ربطته . كان ذلك رائعاً .

واجابت السيدة كارينتر :

ــ يجب ان يكون ذلك رائعاً حقاً . اهدئي ياسيبيل ، يا حبيبتي .

وقالت سيبيل :

ـ هل رأيت من جديد مزيداً من الزجاج ؟

وتنهدت السيدة كاربنتر :

ـ ها انت تعودين الى ذلك من جديد. وسدت زجاجة الزيت. اركضي الآن والعبي ياصغيرتي . ستصعد ماما الى الفندق لتتناول كأساً من المرتيني مع السيدة هوبل . وسأحضر لك الزيتونة .

وما ان تحررت سيبيل حتى انطلقت الى شاطىء البحر المنبسط ، وراحت تمشي نحو كوخ الصياد . ولم تتوقف الا مرة واحدة لتغوص بقدمها في قصر رملي متهدم . ثم اصبحت بعد لحظات خارج حـــدود منطقة الشاطىء المخصصة لزبائن الفندق .

وجرت ايضاً عدة مئات من الامتار . ثم انحرفت فجأة ، وصعدت ، وهي تركض الى جانب الشاطىء ذي الرمال الندية . وتوقفت امـــام الشاب المستلقي على ظهره .

قالت :

ـ الا تأتي الى الماء ، لنرى ايضاً مزيداً من الزجاج ؟

وارتعش الشاب ، وحمل يده اليمنى الى اطراف ثوب الاستحمام المصنوع من قماش المناشف . وانقلب على بطنه وهو يسحب المنشفة الملتفة التي كان يضعها فوق عينيه . والقى على سيبيل نظرة جانبية .

ـ هالو ، سيبيل !

ـ الا تأتي الى الماء ؟

وقال الشاب :

ـ كنت انتظرك . هل من جديد ؟

قالت سيبيل :

ـ ماذا ؟

ـ هل من جديد ؟ ما هي الحوادث الجديدة ؟

قالت سيبيل وهي ترشه بالرمل :

ـ بابا سيصل غداً بالططارة (بالطيارة) .

قال الشاب :

ـ لا ترشيني في وجهي . واحتجز في يده احد رسغي قدم سيبيل . حسناً ، لقد اصبح حضوره ضرورياً ، باباتك ؛ لقد انتظرته ساعات طويلة .. ساعات ..

قالت سيبيل :

ـ اين السيدة ؟

ـ السيدة ؟

وراح الشاب ينفض قليلاً من الرمل عن شعره الناعم :

ـ يصعب علي تحديد ذلك ياسيبيل. قد تكون في هذه اللحظة في الف مكان. عند الحلاق مثلاً ، لتصبغ شعرها بلون « الفيزون » ، او في غرفتها تصنع دمىً للأطفال الفقراء .

ووضع معصميه الأول فوق الثاني ، ثم أسند ذقنه فوقهما في تلك اللحظة، وهو مستلق على بطنه ، وقال :

ـ احكي لي أشياء أخرى يا سيبيل . إن لباس البحر الذي ترتدينه جميل جداً. اذا كان هناك ما أحبه فهو لباس البحر الازرق .

ونظرت اليه سيبيل بدهشة ، ثم خفضت بصرها نحو بطنها الصغير البارز الى الامام . وقالت :

ـ ولكنه أصفر ، إنه أصفر .

ـ لا ، اقتربي قليلاً .

وخطت سيبيل خطوة الى الامام .

ـ انت على حق فعلاً . كم انا مغفل !

قالت سيبيل :

ـ الا تنزل الى الماء ؟

ـ إني أدرس القضية . افكر فيها كثيراً يا سيبيل ، لدرجة لا تصدقينها .

ـ ولمست سيبيل العوامة المصنوعة من المطاط ، العوامة التي كان الشاب قد اتخذها وسادة له ، وقالت :

ـ إنها تحتاج الى هواء .

ـ معك حق . إنهـــا بحاجة الى كمية من الهواء اكثر من تلك التي أرغب في إعطائها لها .

وسحب معصميه ، وترك ذقنه تتكىء على الرمل .

قال :

ـ سيبيل ، أنت مشرقة الوجه . ما أجمـــل أن يراك المرء ! تحدثي اليّ عن نفسك .

وقدم يديه ، واحتجز رسغي قدم سيبيل . وأردف قائلاً :

ـ إنني من الحيوانات ذوات القرون الطويلة .. وأنت ؟

واستطردت سيبيل :

ـ لقد قالت شيرون ليبسكوتز بأنك تركتها تجلس بقربك على كرسي البيانو .

ـ هل قالت شيرون ليبسكوتز ذلك ؟

وهزت سيبيل رأسها بقوة .

وترك الشاب قدميها ، وأعاد يديه ، وأراح خده على ذراعه اليمنى ، ثم قال :

ـ حسناً ، أنت تعرفين كيف تجري هذه الامـــور يا سيبيل . كنت جالساً هناك ، أعزف ، ولم تكوني أنت في تلك الانحاء . وجاءت شيرون ليبسكوتز وجلست بقربي . إنا لا أستطيع ان اطردها . أليس كذلك ؟

ـ كنت تستطيع ذلك .

قال الشاب :

ـ أوه ، لا ، لا ، لم اكن استطيع ان افعل ذلك . و لكني سأقول لك ماذا فعلت ؟

ـ ماذا ؟

ـ لقد تخيلت بأنها أنتِ .

وجلست سيبيل القرفصاء ، وراحت تحفر الرمل ، وقالت :

ـ لنذهبْ الى الماء .

قال الشاب :

ـ حسناً ، اني استطيع ذلك .

قالت سيبيل :

ـ اطردها في المرة القادمة .

ـ اطرد من ؟

ـ شيرون ليبسكوتز .

قال الشاب :

ـ اوه ، شيرون ليبسكوتز ؛ يعود هذا الاسم ليبعث الذكريات والرغائب ! وانتصب فجأة على قدميه ، ونظر الى المحيط قائلاً :

ـ سيبيل ، سأقول لك ماذا سنعمل ! سنرى ما اذا كنا نستطيع ان نلتقط سمكة موز .

ـ ماذا ؟

قال :

ـ سمكة موز . وفك حزام معطفه ، ثم خلع المعطف .

كانت كتفاه بيضاوين ضيقتين ، واوردته زرقاء . ثم طوى المعطف باتجاه الطول مرةً ، وفي الاتجاه الآخر ثلاث مرات . ثم نشر المنشفة التي كانت تغطي عينيه ، ومدها على الرمل ، ووضع المعطف فوقها ، ثم انحنى ، والتقط العوامة ، ووضعها

تحت ذراعه اليمنى . واخيراً امسك بيده اليسرى يد سيبيل ، واتجه الاثنـــان نحو المحيط .

قال الشاب :

ــ اظن انك لم تشاهدي الكثير من اسماك الموز في حياتك ؟

وهزت سيبيل راسها.

ــ لم تشاهدي كثيراً منها ، آه ؟ بالمناسبة ، اين تسكنين ؟

قالت سيبيل :

ــ لا اعرف .

ــ لا بد انك تعرفـين . يجب ان تعرفي . ان شيرون ليبسكوتز تعرف اين تسكن ، وعمرها لا يتجاوز الثالثة والنصف .

وتوقفت سيبيل ، وانتزعت بغتةً يدها من يد الشاب ، والتقطت صَدَفة ، وراحت تتأملها باهتمام مدروس . ثم القت بها ارضاً .

ــ ويرلي وود ، كونكتيكوت . قالت ذلك ، وعاودت سيرها ، وبطنها الى الامام .

ورد الشاب :

ــ ويرلي وود كونكتيكوت اليس ذلك ، في مكان ما قريبمن ويرلي وود ، كونكتيكوت ؟

ونظرت اليه سيبيل ، وقالت بصبر نافد :

ــ ولكني اقطن هناك ! إني اسكن في ويرلي وود كونكتيكوت . وجرت عدة خطوات امامه ، ثم التقطت رِجْلها اليسرى بيدها اليسرى ، وقفزت مرتين او ثلاثاً على رجل واحدة .

قال الشاب :

ــ انك لا تتصورين كم يبدو كل شيء واضحاً الآن .

وتركت سيبيل رجلها تسقط ، وقالت :

ــ هل قرأت سامبو الصغير الاسود :

قال :

ــ حقاً ، عجيبٌ منك أن تسأليني ذلك . لقد انتهيت منه مساء البارحة فقط .

اتعرفين ؟ رأيت مرةً سمكة موز تدخل في ثقب للموز ،وتأكل ما لا يقل عن ثمانٍ وسبعين موزةً ...

ودفع العوامة ، ومن عليها ، قليلا نحو عرض البحر .

– وبالطبع ، تصبح سمينةً بعد ذلك ، لدرجة لا تستطيع معها الخروج من الثقب . إنها لا تستطيع اجتياز الباب من جديد .

قالت سيبيل :

– لا تدفع بي بعيداً . وماذا يحدث لها بعد ذلك ؟

– ماذا يحدث لمن ؟

– لاسماك الموز ..

– أوه ؛ تريدين أن تقولي بعد أن تكون قدالتهمت كل ذلك الموز ، ولم تعد تستطيع مغادرة الثقب ؟

قالت سيبيل :

– نعم .

– يؤلمني أشد الالم أن اقول لك يا سيبيل انها تموت ...

وسألت سيبيل :

– لماذا ؟

– حسناً ؛ لانها تصاب بحمى الموز . انها حمّى خبيثة .

قالت سيبيل بعصبية :

– انتبه ! هناك موجة قادمة .

– لن نصطدم بها ؛ سنمر فوقها ، نحن النمّامين الاثنين ...

وأمسك برسغَيْ قدم سيبيل ؛ وبدفعة واحده أرسلها الى الامام ، فانقلبت العوامة على ظهر الموجة ؛ وبلل الماءُ شعر سيبيل الاشقر ولكن صراخها كان ممزوجاً بالغبطة .

وعندما عادت العوامة الى السكون ، أبعدت سيبيل بيدها خصلةً من شعرها

المبلل عن عينيها وأعلنت صائحة :

ـ لقد رأيت واحدة .

ـ واحدة ماذا؟ يا حبيبتي . .

ـ سمكة موز ؟

وهتف الرجل :

ـ يا الهي . ذلك مستحيل . وهل كان في فمها موز ؟

قالت سيبيل :

ـ نعم ، ستة .

وأمسك الرجل بغتة احدى الرجلين الصغيرتين المبللتين ، اللتين تتدليان من على حافة العوامة وراح يقبلها .

وصاحت صاحبة القدم ، وهي تلتفت :

ـ هيه ؟

ـ هيه أنت ! سنعود الآن . هل اكتفيت ؟

ـ لا .

قال :

ـ آسف ! ودفع العوامة نحو الشط حتى استطاعت سيبيل النزول . وامسك بالعوامة ليتيح لها الخروج من الماء .

قالت سيبيل :

ـ الى اللقاء .

وذهبت وهي تجري ، دونما أسف ، نحو الفندق .

* * *

ارتدى الشاب معطفه ، ولفه ، وأغلقه بعناية حول جسمه ، ودس المنشفة في أحد جيوبه ، والتقط العوامة المبتلة المزعجة ، ووضعها تحت ذراعه ، ثم راح يسير وحيداً نحو الفندق ، في الرمل الندي المحرق .

وفتش عن يد سيبيل ، وأمسك بها في يده ، وسألها :
ــ ما رأيك فيه ؟
ــ هل تذكر حين قفزت النمور حول الشجرة ؟
ــ لقد تخيلت بأنها لن تتوقف أبداً . لم أرى في حياتي هذا العــدد الكبير من النمور .
قالت سيبيل :
ــ لم يكن هناك إلا ستة فقط .
ــ ستة فقط . أنت تسمين ذلك فقط !
وسألت سيبيل :
ــ هل تحب الشمع ؟
ورد الرجل :
ــ أحب ماذا ؟
ــ الشمع ؟
ــ كثيراً . وأنت ؟
وأشارت سيبيل برأسها أن نعم .
واردفت :
ــ هل تحب الزيتون ؟
ــ الزيتون ؟ نعم . الزيتون والشمع . إني لا أذهب أبداً الى مكان دون ان أحمل شيئاً منهما .
وسألت سيبيل :
ــ هل تحب شيرون ليبسكوتز ؟
ورد الشاب :
ــ نعم ، نعم ، إني أحبها . إن ما أحبه فيها بشكل خاص هو انها لا تؤذي ابداً الكلاب الصغيرة في بهو الفندق ؛ لا تؤذي مثلا هذا « البولدوج » الصغير الذي يخص السيدة الكندية ،ربما كنتِ لا تصدقيني ؛ هناك بنات صغيرات يلتهين بوخزه بعود «مصاصاتهن» . ولكن شيرون لاتفعل ذلك.إنها لم تظهرقط أية خسة

او قسوة ؛ ولذلك فانا احبها كثيراً .
وصمتت سيبيل ، ثم قالت أخيراً :
ـ إني أحب ان امضغ الشمع .
قال الشاب ، وهو يغط رجليه في الماء :
ـ ومن منا لا يحب ذلك ؟
بـرْرر . . رر . . الماء باردٌ كالثلج .
وترك العوامة تسقط في الماء .
ـ لا ، انتظري لحظةً يا سيبيل ؛ انتظري حتى نبتعد قليلا.
وراحا يجران أقدامها في الماء حتى غمر قامة سيبيل . وهناك أخذها الشاب بين ذراعيه ومددها على بطنها فوق العوامة ، وسألها :
ـ الا تضعين ابداً قبعة استحمام فوق رأسك ؟ او شيئاً من هذا القبيل . .
قالت سيبيل بلهجة الآمر :
ـ لا تتركني اذهب . امسك بي جيداً .
قال الشاب :
ـ آنسة كارينتر . ارجوك . إني اعرف مهنتي . كل ما عليك ان تفعليه هو ان تفتحي عينيك جيداً لتري اسماك الموز . . .
إنه اليوم المثالي لأسماك الموز . . .
قالت سيبيل :
ـ إني لا ارى شيئاً منها .
ـ ذاك امر طبيعي . إن لها طبائع غريبة . غريبة جداً .
وتابع دفع العوامة . كان الماء يغمره حتى صدره :
قال :
ـ إن خاتمة حياتها مأساة فظيعة . اتعرفين ماذا تفعل ؟
وهزت براسها أنْ لا !
ـ حسناً ، إنها تدخل في ثقب مملوء بالموز . وعندما تدخـــل تكون كسائر الأسماك الاخرى . ولكن ما ان تصبح في الداخـــل حتى تتصرف كالخنازير .

وعند باب الخدم ، الذي تطلب إدارة الفندق من المستحمين استخدامـــه ، دخلت امرأة المصعد مع الشاب ، وكانت تضع مرهماً على أنفها .

قال لها عندما ارتفع بهما المصعد :

ــ إنك تحدقين النظر في قدميّ .

قالت المرأة :

ــ عفواً .

ــ أقول : إني ألاحظ بأنك تنظرين الى قدميّ .

قالت المرأة :

ــ معذرة . كنت أنظر الى الأرض .

وأدارت عينيها نحو باب المصعد .

واستمر الشاب :

ــ اذا كنت تريدين النظر الى رجليّ ، فقولي ذلك . ولكني لا احب الفضول .

قالت المرأة لعاملة المصعد :

ــ قفي بي هنا . أرجوك .

وفتح باب المصعد ، وخرجت المرأة دون أن تلتفت ، قال الشاب :

ــ خ ... إن لي قدمين طبيعيتين . وليس هنـــاك من سبب للتحديق فيهما . الطابق الخامس من فضلك ..

وأخرج مفتاح غرفته من جيب معطفه .

ومضى الى الطابق الخامس ..

واجتاز الممر ..

ثم دخل الغرفة « ٥٠٧ » ..

كانت تفوح من الغرفة رائحة الأمتعة الجديدة المصنوعة من جـــلد العجل ، ومزيل طلاء الأظافر .

وألقى نظرةً على المرأة الشابة التي كانت تنام على أحد السريرين التوأمين .. ثم اتجه نحو حقيبةٍ ، وفتحها ، وأخرج من تحت طبقة من الملابس الداخلية مسدساً اوتوماتيكياً من عيار ٧٫٥ ، ثم أخرج منه بيت الذخيرة ، وفحصه ، ثم أعاده الى مكانه ، بعد أن أعده للاستعمال .

ثم جلس على السرير غير المشغول ..

ونظر الى المرأة الشابة ..

وسدَّد السلاح ..

وأطلق رصاصةً في صدغه الأيمن .

العم المرضوض في كونكتيكوت

٢

كانت الساعة تقارب الثالثة عندما عثرت ماري جين أخيراً على منزل إيلويز . وابتدرت صديقتها التي كانت قد اجتازت الزقاق مقبلةً للقائها قائلةً بأن الأمور قد سارت على ما يرام ، وأنها تذكرت الطريق بدقة الى أن افت حول ممر پارك بريك .

قالت ايلويز : « پارك بريت يا عزيزتي . » وراحت تذكرها بأنها قد سبق لها أن زارت المنزل مرتين . ولكن ماري جين اكتفت بهمهمة غامضة حول شيء ما يتعلق بعلبتها « الكلينكس »[1] ، وعادت مهرولة نحو عربتها المكشوفة .

ورفعت إيلويز ياقة معطفها المصنوع من وَبَرِ الجمل ، وادارت ظهرها للريح ، ووقفت تنتظر .

وما هي الا لحظة .. حتى عادت ماري جين بهيئة شعثاء غبراء ، وهي تمسح يديها بمنديل من الورق . وأعلنت إيلويز بلهجة مرحة أن الغداء اللعين قد احترق بكامله .. حتى قطع الخبز .. كل شيء .

ولكن ماري جين لم تلبث أن صرخت بأنهاء على كل حال ، قد تناولت غداءها في الطريق .

وبينما كانت الصديقتان تسيران معاً نحو المنزل سألت إيلويز كيف حدث أن حصلت ماري جين على هذا اليوم من العطلة ؟

واجابت ماري جين بأنها لم تحصل على اليوم كاملاً ، وانما يتلخص الأمر في ان

---

(١) الكلينكس : مناديل من الورق .

السيد وينبرغ يشكو من فتق ألزمه بيته في « لارشمونت » . فكان لزاماً عليها أن تحمل اليه البريد كل يوم ، بعد الظهر ، وأن يملي عليها رسالة او رسالتين ...

ثم تساءلت :

— ماذا تعني كلمة فتق على وجه التحديد ؟

قالت إيلويز ، وهي تدع سيجارتها تسقط قرب قدميها على الثلج المتسخ :

— إنني لا أعرف ماذا تعني هذه الكلمة على وجه الدقة .. ولكن لا عليك يا عزيزتي .. فانك لن تكوني عرضة لخطر الاصابة بها على كل حال .

قالت ماري جين : « أوه ! » .

ودخلت الشابتان المنزل .

وبعد عشرين دقيقة كانتا تنهيان قدحها الأول في البهو ، وتثرثران بتلك اللهجة الخاصة التي لا توجد أبداً الا بين فتاتين تقاسمتا في الماضي غرفة واحدة في القسم الداخلي ، في المدرسة الثانوية .

كانت هناك رابطة أقوى تشدهما الى بعضهما ، وهي أن كلتيهما لم تظفرا بأية شهادة من دراستهما .

كانت إيلويز قد تركت المدرسة عام ١٩٤٣ وهي في منتصف صف الشهادة الثانوية ، بعد أسبوع من مفاجأتها مع جندي ، في مصعد مغلق ، في الطابق الثالث من منزله . وتركت ماري جين الصف نفسه . في العام نفسه ، بل في الشهر نفسه تقريباً ، لتتزوج طياراً مبتدئاً من الفريق المرابط في جاكسونفيل في فلوريدا ، وهو صبي نحيل حالم ، من مدينة إيل في المسيسيبي ، أمضى الشهرين الاثنين من أشهر زواجهما الثلاثة في السجن ، لأنه طعن أحد موظفي الأمن بخنجر .

قالت ايلويز :

— لا ، لقد كان أحمر .

كانت مستلقية على أريكة ، وساقاها النحيلتان الجميلتان جداً مع ذلك ،

مصلبتان على علو الرسغين .

ورددت ماري جين التي كانت تجلس على المقعد الأزرق ..

ـ لقد بلغني أنه كان أشقر . ولقد أقسمت (لا اذكر من) ، أنه كان أشقر .

قالت ايلويز ، وهي تتثاءب :

ـ لا ، لا ، أبداً .. لقد كنت بالفعل في الغرفة عندما صبغت شعرها . ما هذا ؟ أليس من سجائر هنا ؟

قالت ماري جين :

ـ لا أهمية لذلك . لديّ علبة سجائر كاملة . يجب أن تكون في مكان ما . وراحت تبحث في حقيبتها .

قالت إيلويز ، دون ان تغادر الأريكة :

ـ هذه الخادمة المخبولة .. لقد وضعت أمامها رزمتين كاملتين من السجائر ، منذ أقل من ساعة ؛ ستعود بعد فترة لتسألني ماذا ينبغي أن تفعل بها ... يا إلهي ! عمّ كنت أتحدث ؟ ..

وهمست ماري جين ، وهي تشعل احدى سجائرها :

ـ ثيرنجر .

ـ آه ، نعم . إني أتذكر الآن ، كما لو حدث ذلك البارحة . لقد صبغته في الليلة التي سبقت زواجها بهذا « الفرانك هانك » .. هل تذكرينه ؟

ـ نعم . ولكن بصورة غامضة . إنه طالب في الصف الثاني ، سنه اكبر من صفه ، ضعيف الجاذبية الى حد مخيف .

ـ ضعيف الجاذبية .. يا إلهي ! يخيّل اليكِ أنه بيلا لوغوزي ، ولكن بدون أن يغتسل .

وألقت ماري جين برأسها الى الوراء ، وضحكت بصوت عالٍ . وقالت وهي تعود الى جلستها لتكمل شربها :

ـ رائع .

قالت إيلويز :

ـ هاتي كأسك.

وأعادت رجليها الى الأرض ، وانتصبت واقفةً وهي حافية القدمين :

ـ حقاً ! كم هي مخبولة .. لقد عملت كل ما بوسعي لأجعلها تقنع بالمجيء الى هنا ، اللهم اذا استثنيت تحريضي « لو » على مشاجرتها . لو كنت أعرف .. من أين لك هذه ؟

قالت ماري جين ، وهي تضع يدها على أيقونة معلقة في عنقها :

ـ هذه ؟ لقد كنت أضعها منذ أيام المدرسة . إنها آلت اليّ من أمي ..

قالت إيلويز ، وفي كل من يديها قدح فارغ :

ـ يا إلهي ! إني لا أملك أي شيء ديني لأحمله . واذا ما حدث أن ماتت أم « لو » ... آه ، آه ، فربما تركت لي ملقط جليد محفور عليه الحرفان الأولان من اسمها ، او شيئاً من هذا القبيل ..

ـ بالمناسبة .. كيف تسير الأمور معها في هذه الايام ؟

قالت ايلويز ، وهي متجهة نحو المطبخ :

ـ لا تسخري مني .

وصاحت ماري جين من وراء ظهرها :

ـ إنها الكأس الاخيرة بالنسبة لي .. حقاً ..

ـ كما تشائين .. ولكن من الذي طلبني في الهاتف ؟ من الذي جاء متأخراً ساعتين عن الموعد المضروب؟ ستمكثين هنا حتى أملّ رؤيتك . الى الجحيم ترقيتك القذرة ! ..

وألقت ماري جين برأسها الى الخلف وانفجرت في الضحك من جديد. ولكن ايلويز كانت في تلك اللحظة قد ادركت المطبخ ..

لم تكن ماري جين تعرف كيف تبقى وحدها في غرفة .. فاذا هي تنهض ، وتتجه الى النافذة، ثم تفتح الستائر ، وتسندمعصمها على احدى العوارض ، وتحس الغبار فتسحبه، وتمسحه باليد الاخرى، وتمكث على تلك الحال واقفة، منتصبة ..

كان وحل الثلج المتسخ في الخارج قد بدأ يتجمد بصورة ظاهرة . وأغلقت ماري جين الستائر ، وعادت الى المقعد الازرق ، دون أن تلقي في طريقها نظرة على المكتبتين المكتظتين بالكتب. وما ان جلست حتى فتحت حقيبتها، وأخرجت مرآتها ، وراحت تتفحص أسنانها ، ثم ضمت شفتيها ، وأمرت لسانها بقوة على أسنانها الامامية ، ثم فحصتها من جديد .. وقالت وهي تلتفت :

– ما أشدّ البردّ في الخارج ! ياإلهي ! كم انتهيت بسرعة .. ألم تضعي فيه شيئاً من الصودا ؟

توقفت إيلويز وفي كل من يديها قدح مجلّل" بالبخار ، ومدت سبّابتها : كفوهتيّ مدفع ، وقالت :

– لا يتحرك أحد ! لقد أمرتُ . بمحاصرة الحظيرة ...

وضحكت ماري جين ، وهي تعيد مرآتها الى مكانها .

واقتربت إيلويز مع الاقداح.. وأسندت قدح ماري جين بشكل منحرف على منضدة صغيرة ، واحتفظت بقدحها في يدها ، وعادت الى أريكتها تتمدد عليها من جديد ثم قالت :

– ماذا تظنينها كانت تفعل في المطبخ ؟ إنها تجلس هناك على وركيها السمينين الاسودين ، وهي تطالع كتاب « السترة » لقد سقطت مني صحون الجليد وأنا أخرجها من الثلاجة ، فلم تحرك ساكناً ، ولم تفعل اكثر من أن ترفع عينيها بلهجة بادية الانزعاج .

تناولت ماري جين قدحها ، وقالت :

– إنه قدحي الاخير ، اؤكد لك .. أوه ! اسمعي . أتعرفين من رأيتُ في الاسبوع الماضي ، في الطابق الارضي من محلات لورد وتايلور ؟

قالت ايلويز ، وهي تسوّي وسادة تحت رأسها :

ـ آكيم تاميروف .

قالت ماري جين :

ـ من ؟ من هو ؟

ـ آكيم تاميروف .. ممثل سينمائي .. إنه يقول دائماً : « أنتم تعـ ـ مـ ـ لون نـ ـ كـ ـ ط ـ ة فظيعة .. هيه ؟ » إني أعبده ... ليس في هذا البيت وسادة واحدة أستطيع تحملها . من رأيت ؟

ـ جاكسون . كانت ...

ـ أي واحدة ؟

ـ لم أعد أعرف . تلك التي كانت معنا في دروس علم النفس . تلك التي كانت دائماً تعمل ...

ـ كانت الاثنتان معنا في دروس علم النفس .

ـ إذاً .. تلك التي كان لها « ... » يأخذ العقل ..

ـ مارسيا لويز . لقد سقطتُ عليها في أحد الأيام انا أيضاً . هل حطمت لك أذنيك ؟

ـ يا الهي . نعم ! ولكن ، أتدرين ما قالته لي مـــع ذلك ؟ استاذتنـــا هوايتنـــغ ماتت . لقد قالت لي بأنّ برباره هيـــل كتبت لها بأن هوايتنغ اصيبت بالسرطان منذ الصيف الماضي .. وأنها ماتت .. وكل شيء .. كانت لا تكاد تزن ثلاثين كيلوغراماً عندما ماتت . مخيف أليس كذلك ؟

ـ لا .

ـ إيلويز .. انك على وَشْك أن تكوني أشد قسوة من الاسمنت المسلح .

ـ مم ! وماذا قالت أيضاً ؟

ـ قالت بأنها قادمة على التو من اوروبا ، كان زوجها في قوات الاحتـــلال في ألمانيا .. او شيئاً من هذا القبيل ، وكانت هي معه . وأكدت انهما كانا يعيشان

في منزل مؤلف من سبع وأربعين غرفة ، هما وزوجان آخران فقط ، ولديهما عشرة من الخدم على أقل تقدير . كان لها أيضاً حصانها الخاص، أما خادم الاسطبل الذي كان عندهم فهو مدرب هتلر السابق على ركوب الخيل . او شيء من هذا القبيل ... أوه ! وراحت تحكي لي كيف كانت على وشك أن تغتَصَب من قبل جندي أسود . تصوري انها كانت تقص ذلك علي في وسط الطابق الأرضي لمحلات لورد وتايلور ، انت تعرفين جاكسون لقد أخبرني بأنه سائق زوجها ، وأنه كان ذاهباً الى السوق في صبيحة أحد الأيام : قالت بأنها خافت لدرجة أنها لم تستطع أن ...

– انتظري لحظة .

ورفعت إيلويز رأسها ، ونادت :

– أهذي أنت يا رامونا ؟

وأجاب صوت طفل :

– نعم .

وصاحت ايلويز :

– أغلقي باب المدخل ، من فضلك ...

– انها رامونا .. أوه ! إنني أتلهف لرؤيتها .. لم أرها منذ ... أتتصورين ذلك ؟

صاحت ايلويز من جديد ، وعيناها مغمضتان :

– رامونا . أذهبي الى المطبخ ، وأطلبي من غراس أن تخلع لكِ حذاء المطاط .

قالت رامونا :

– حسناً . تعال ، يا جيمي !

قالت ماري جين :

– أوه ، كم أنا متلهفة لرؤيتها .. أوه ، يا إلهي ! أنظري ماذا فعلت ! إني في غاية التأثر لما حدث .

قالت إيلويز :

ـ لا بأس دعي عنك هذا . اني أمقت هذه السجادة اللعينة على كل حـــال . سأحضر لك قدحاً آخر .

ـ لا ، انظري ، ما يزال فيه اكثر من نصفه . وارتها ماري جين كأسها .

قالت إيلويز .

ـ حقاً ، أعطيني سيجارة .

ومدت لها ماري جين علبتها : وهي تقول :

ـ أوه ! ما أشد لهفتي لرؤيتها ! من تراها تشبه الآن ؟

وأشعلت إيلويز عود ثقاب .

ـ آكيم تاميروف .

ـ لا ، تكلمي بجد .

ـ « لو » ، إنها تشبه « لو » . وعندما تأتي والدته يبدو كل من الثلاثـــة مضروباً بقوة ٣ .

وبدون أن تنهض ، تمد إيلويز يدها الى مجموعـــة من منافض السجائر ، في الطرف الآخر من المنضدة الواطئة ، وتنجح في التقاط المنفضة الأولى ، وتركزها فوق بطنها . ثم تستطرد قائلة :

ـ إن ما يناسبني كل المناسبة هو كلب صيد ... أو شيء من هذا القبيل . . . رجل يشبهني

وسألت ماري جين :

ـ وكيف حال عينيها الآن ؟ أعني ألا تسير الى أسوأ ؟ أو شيء من ذلك ؟

ـ لا ، حسب ما اعلم .

ـ هل تستطيع أن ترى بدون نظارات ؟ أقصد عندما تستيقظ ليلاً لتذهب الى « المكان الصغير » .. او ما أشبه ..

ـ لو حدث ذلك لما ذكرت عنه شيئاً لأحد . إنهـــا حريصة على أسرارها الصغيرة .

وادارت ماري جين رأسها ، وهي على مقعدها قائلة :

ــ حسناً ، صباح الخير ، يا رامونا .. أوه ! يا له من ثوب جميل !

وأسندت قدحها الى المنضدة .

ــ أراهن بأنك لا تتذكرينني مطلقاً .

ــ بلى ، انها تتذكر . من هي السيدة يا رامونا ؟

قالت رامونا :

ــ ماري جين .

وراحت تحك جسمها .

قالت ماري جين :

ــ هذا رائع يا رامونا . تعالي هل تريدين ان تعطيني قبلة صغيرة ؟

قالت ايلويز لرامونا :

ــ كفاكِ حكاً !

وتوقفت رامونا عن الحك .

ورددت ماري جين :

ــ ألا تقبلينني قبلة صغيرة يا رامونا ؟

ــ لا أحب تقبيل الناس .

وانتفضت ايلويز ، وسألت :

ــ أين جيمي ؟

ــ إنه هنا .

وسألت ماري جين إيلويز :

ــ من هو جيمي ؟

ــ آه ! يا إلهي ! صديقها . إنه يذهب دائماً حيث تذهب ، ويعمل كل ما تعمل ، إنهما لا يفترقان أبداً .

وقالت ماري جين باندفاع :

ـ حقاً ؟ وانحنت الى الامام ثم استطردت .

ـ ألك صديق يا رامونا ؟

لم تعكس عينا رامونا وراء نظارتيها السميكتين أي ظـل من حماسة ماري جين .

قالت أيلويز :

ـ لقد سألتك ماري جين سؤالاً يا رامونا . وأدخلت رامونا إحدى أصابعها في أنفها الصغير الأفطس .

قالت ايلويز :

ـ كفى . ماري جين تسألك عما اذا كان لك صديق .

قالت رامونا وهي لا تزال مشغولة بأنفها :

ـ نعم .

قالت ايلويز :

ـ رامونا ، كفي عن ذلك فوراً ، فوراً ...

وتركت رامونا يدها تسقط .

قالت ماري جين :

ـ حسنا ، أرى ان ذلك رائع . ما اسمه ؟ هل تريدين أن تقولي لي اسمه ؟ أم أن ذلك سر كبير ؟

قالت رامونا :

ـ جيمي .

ـ جيمي ؟ أوه اني أعبد هذا الاسم ! جيمي ماذا يا رامونا ؟

اجابت رامونا :

ـ جيمي جيميرينو ..

قالت ايلويز :

ـ ابقي هادئة يا رامونا .

ـ حسناً ، هذا هو اسم بكل معنى الكلمة . واين جيمي ؟ ألا تريدين أن تبوحي لي بذلك يا رامونا ؟
قالت رامونا :
ـ هنا .
وتلفتت ماري جين حولها ، ثم التفتت صوب رامونا بابتسامتها الخبيثة :
ـ هنا . أين يا جيمي ؟
قالت رامونا :
ـ هنا . اني أمسك به بيدي .
قالت ماري جين لإيلويز التي كانت تفرغ قدحها :
ـ اني لا أفهم شيئا .
قالت ايلويز :
ـ لست انا التي يجب أن تتطلعي اليها .
والتفتت ماري جين صوب رامونا :
ـ أوه ، لقد فهمت . جيمي صبيٌ من صنع الخيال . هذا رائع !
وانحنت ماري جين الى الأمام بشيء من الحفاوة ، ثم استطردت :
ـ كيف حالك ، يا جيمي ؟
قالت ايلويز :
ـ انه لا يريد مخاطبتك . رامونا ، صفي عن جيمي لماري جين.
ـ أتكلم عن ماذا ؟
ـ قفي جيداً ، من فضلك ... صفي جيمي لماري جين .
ـ له عينان خضراوان ، وشعر أسود .
ـ ثم ماذا ؟
ـ ليس له أب ولا أم .
ـ ثم ماذا ؟

– ولا نمش على الوجه .
– ثم ماذا ؟
– له سيف .
– وماذا أيضا ؟
قالت راموناً .
– لا ادري .
وعادت تحك جسمها .
قالت ماري جين .
– يبدو انه جميل جداً .
وانحنت على مقعدها اكثر فأكثر الى الامام .
– راموناً قولي لي هل خلع جيمي أيضا حذاءه المطاط عندما دخلتما المنزل؟
قالت راموناً
– انه يحتذي جزمة .
قالت ماري جين لايلويز .
– هذا رائع
– أنت ترين ذلك رائعاً. أما انا فاني أسمعها تتكلم عنه طوال النهار . . جيمي يأكل معها، يستحم معها ، ينام معها ، انها تنام على طرف السرير ككلب الصيد ، لئلا تتدحرج عليه وتؤذيه .
وزمت ماري جين شفتها العليا ، وهي مأخوذة ، مشغولة . بما تسمع ، ثم فتحت فمها لتسأل :
– ومن اين له هذا الاسم ؟
– جيمي جيميرينو ؟ الله وحده يعلم .
– ربما كان اسم صبي من صبية الجيران .
– ليس في الحي أي طفل ؟ انهم يسمونني فاني الولود من وراء ظهري .

قالت راموتا :
ــ ماما .. هل استطيع الخروج للّعب؟

ونظرت اليها ايلويز قائلة :
ــ لقد عدت على التو من الخارج .
ــ جيمي يريد الخروج من جديد .
ــ ولماذا ؟ اذا سمحت لي بالسؤال .
ــ لقد نسي سيفه خارجاً .

قالت ايلويز :
ــ اوه ، حسناً ، هو وسيفـــه اللعين . اذهبي ، ولكن لا تنسي أن تلبسي حذاءك المطاط .

قالت راموتا وهي تأخذ بيدها عود ثقاب محترق من منفضة السجائر :
ــ أمن المحتمل ان آخذ هذا ؟
ــ قولي هل استطيع ان آخذ هذا ؟ نعم ، لا تذهبي الى الشارع من فضلك.

ورددت ماري جين بصوت اغن :
ــ الى اللقاء ، يا راموتا .
قالت راموتا :
ــ الى اللقاء . تعال يا جيمي .

وانتصبت ايلويز فجأة واقفة ، وقالت :
ــ هاتي كأسك .
ــ لا ، اتكلم جادة يا إيل . . . كان علي ان اكون الآن في لارشمونت ، أعني ان السيد وينبرغ لطيف جداً ، لذلك اكره أن . . .
ــ تكلمي معه هاتفياً ، وقولي لي بانك قلت . . هيا ، هاتي هـــذا القدح اللعين .

ـ لا ، حقاً ، إيل ... أؤكد لك .. سيتجمد كل شيء . . وليس عنـــدي مذيبة للجليد في السيارة .. اؤكد لكِ بأنني إن ...

قالت ايلويز :

ـ ليتجمد كل شيء ، إذ هبي الى الهاتف،قولي بأنك قدمتِ . اعطني هذا..

ـ حسناً ، اين الهاتف ؟

قالت ايلويز وهي تحمل القدحين الفارغين الى غرفة الطعام .

ـ وأخيراً .. من هنا !

وتوقفت عند الحاجز الذي يفصل غرفة الجلوس عن غرفة الطعام ، وراحت تهزه بعنف ، فيصر صريراً عالياً .

وضحكت ماري جين ضحكة عصبية .

***

قالت ايلويز :

ـ أريد أن أقول : إنك لم تعرفي والت معرفة عميقة .

كانت الساعة الخامسة الا ربعاً ، وكانت مستلقية على ظهرها ، فوق الأرض ، وقد ركزت كأسها بتوازن على صدرها الصغير .

ـ انه الشاب الوحيد من بين جميع الذين تعرفت عليهم ، الشاب الوحيد الذي كان يعرف كيف يضحكني ، أعني يضحكني فعلاً ...

ونظرت الى ماري جين :

ـ اتتذكرين تلك الليلة في سنتنا الدراسية الأخيرة ، عنـــدما برزت تلك المجنونة لويز هرمانسون في الغرفة بمشد صدرها الأسود الذي اشترته من شيكاغو ؟

ووافقت ماري جين بضحكة . كانت ممدودة على بطنها فوق الأريكة ، وذقنها مسندة على ذراعها في مواجهة ايلويز . كان قدحها على الأرض في متناول يدهـــا .

قالت ايلويز :
حسناً ، هكذا كان يعرف كيف يجعلني أضحك . كان يضحكني حين يتكلم معي .. يضحكني على الهاتف .. كان يضحكني حتى بالرسائل .
والغريب أنه لم يكن يتعمد أن يبدو مضحكاً. كان قادراً على أن يضحكني.. وهذا كل شيء ..

وادارت رأسها قليلا نحو ماري جين :

ـ هيه ! هل يزعجك ان تعطيني سيجارة ؟

قالت ماري جين :

ـ لا أستطيع أن التقطها .

ـ أوه !

وعادت ايلويز تنظر الى السقف . قالت :

ـ في ذات يوم سقطت على الأرض .

كنت انتظره عادة عند موقف الاتوبوس ، أمام خروج ال « ب ، اكس». وذات مرة وصـــل متأخراً ، في نفس اللحظة التي كان الأوتوبوس يتحرك فيها للسير . ورحنا ندور وراءه واذا بي أسقط على الأرض ، ويرض كعبي . والتفت الي قائلا :

ـ مسكين ، هذا العم المرضوض .

كان يتكلم عن كعبي .

فسماه العم المسكين المرضوض[١]

(١) النكتة تشير الى التقارب بين كلمتي Ankle كعب ، و Oncle عم بالانجليزية .

يا إلهي ! ما كان ألطفه !
ــ ألا يمتلك « لو » حسن الدعابة ايضاً ؟
ــ ماذا ؟
ــ ألا يمتلك « لو » حسن الدعابة هو ايضاً ؟
ــ أوه ! يا ربي ، من يدري ؟ أظن ان نعم، إنه يضحك للرسوم المتحركة.. ولكل هذه الاشياء .
ورفعت ايلويز رأسها ، وأخذت كأسها من على صدرها ، وشربت :

قالت ماري جين :
ــ على كل حال . ليس هذا كل شيء . صدقيني ، ليس هذا كل شيء .
ــ ما هذا الذي ليس كل شيء ؟
ــ أوه ! أترين ؟ الضحك ، وما شابه ذلك ..
قالت ايلويز :
ــ من يقول بأنه ليس كل شيء ؟ اسمعي ، عندما لا يكون المرء على وشك ان يصبح « أختاً » أوما يشبه ذلك ، فليس هناك أجمل من ان يضحك .
وضحكت ماري جين بعصبية، وقالت :
ــ ما أفظعك !

قالت ايلويز :
ــ آه ! يا الهي ! لشد ما كان لطيفاً ! كان مضحكاً وناعماً في آن واحد، ولكنه لم يكن ذلك الضرب من الصبية الصغار . كان لطيفاً بطريقة خاصة . أتدرين ماذا فعل ذات يوم ؟

قالت ماري جين :
ــ لا .
ــ كنا في قطار ترنتون عائدين الى نيويورك . كان ذلك فور تسريحه من الجيش . كانت القاطرة باردة ؛ فوضعت معطفي علينا . أذكر اني كنت البس

تحته قميص جويس مورو . أتذكرين ذلك القميص الازرق الرائع الذي كان عندها ؟

وهزت ماري جين رأسها موافقة . ولكن ايلويز لم تنظر اليها لتتأكد من جوابها .

ـ حسناً ، كان يمر بيده على بطني . أترين ؟ شيء من هذا القبيل . وفجأة قال لي بأن بطني جميل جداً لدرجة انه يكاد يشتهي أن يبرز ضابط ويأمره بأن يخرج يده الثانية من النافذة . لقد قال بأنه يريد أن يعمل الاشياء باستقامة . بعد ذلك سحب يده ، وطلب الى قاطع التذاكر أن يقف جيداً ، ثم قال له :

« اذا كان هناك شيء لا أستطيع احتماله فهو الرجل الذي لا يبدو عليه الاعتزاز ببزته الرسمية . »

واكتفى قاطع التذاكر بأن نصح اليه بالنوم من جديد.

وفكرت ايلويز قليلا ، ثم قالت :

ـ لم يكن الطريف دائماً ما يقوله ، ولكن طريقته في القول . هل تفهمين ؟

ـ هل تحدثت عنه للو ؟ أعني هل حدث لك ذلك ؟

قالت ايلويز :

ـ اوه، لقد بدأت ذات مرة . ولكن أول ما سألني عنه هو رتبته العسكرية.

ـ وماذا كانت رتبته ؟

قالت ايلويز :

ـ باه !

ـ لا ، أريد فقط أن أقول . . .

وانفجرت ايلويز فجأة بضحكة من الحنجرة .

ـ هل تدرين ماذا قال ذات يوم ؟ قال انه يشعر كل الشعور بأنه يتقدم في الجيش . ولكن في اتجاه مختلف عن كل الآخرين . قال انه سيطلب ، في أول

ترقية له ازالة الاكمام ، بدلا من وضع الشارات . قال بأنه عندما يصبح جنرالاً سيكون عارياً تماماً . وكل ما سيلبسه حينئذ زر صغير من أزرار فرقة المشاة ، يثبته على سُرّته . .

ونظرت ايلويز الى ماري جين التي لم تكن تضحك :

ـ ألا ترين ذلك غريباً ؟

ـ بلى ، ولكن لماذا لا تتحدثين عنه الى « لو » من حين لآخر .

قالت ايلويز :

ـ لماذا ؟ لأنه بليد الى حد لا يطاق . هذا هو السبب . ومن جهة أخرى ، اصغي الي جيداً ، يا بنت الحلال اذا ما تزوجت من جديد فحـــذار أن تتلفظي بشيء امام زوجك . أتسمعين ؟

قالت ماري جين :

ـ لماذا ؟

قالت ايلويز :

ـ لأني أقول لك ذلك، هذا هو السبب. ان ما يريدونه هو أن يعتقدوا بأنك تقضين حياتك بالتقيؤ في كل مرة يقترب فيها شاب منك. إني لا اهزل ، صدقيني.

ـ أوه ! تستطيعين ان تخترعي لهم ما تشائين من القصص ، ولكن لا تتكلمي ابداً بصدق ، ذاك هو رأيي . لا تقولي الصدق ابداً . اذا رويت لهم بأنك عرفت ذات يوم شاباً وسيماً ، فيجب أن تضيفي قبل ان تلتقطي انفاسك بأن جماله كان اكثر مما ينبغي . واذا ما سردت على مسامعهم بأنك عرفت شاباً ذكياً ، فحينئذ يجب أن تذكري بأنه كان من ذلك الضرب من السادة الذين يعرفون كل شيء أو انه ماكر كبير . والا فانهم سيلقون بالصبي المسكين على رأسك في كل فرصة تسنح لهم .

وتوقفت ايلويز ، وتناولت جرعة من كأسها كمن يفكر ، ثم قالت :

ـ أوه سيصغون اليك بانتباه زائد . وكل شيء ... سيتخذون هيئة الفاهم اللبيب . ولكن لا يغرنك ذلك . صدقيني ، ستقاسين الف عذاب اذا وثقت ولو قليلاً بفهمهم وادراكهم . ثقي بكلامي .

ورفعت ماري جين ذقنها من على مسند الاريكة تعلوها سحابة من الكآبة ، وأسندتها على ذراعها ، وراحت تفكر في نصيحة ايلويز ، ثم استطردت بصوت مرتفع :

ـ لا يمكنك ان تسمي « لو » غبياً .

ـ ولم لا ؟

قالت ماري جين بلهجة ساذجة :

ـ إنه رجل ذكي . أليس كذلك ؟

قالت ايلويز :

ـ أوه ، ماذا يجدي الحديث ؟ دعيك من ذلك . أراني أخيب ظنك في كل ما اقوله الآن . فدعيني اسكت .

قالت ماري جين :

ـ اصغي الي ، لماذا تزوجته اذاً ؟

ـ أوه، يا الهي ! لا ادري . لقد قال لي بأنه يعبد جين اوستن ، ثم راح يشرح لي اية مكانة كبرى تحتل كتب هذه المؤلفة في نفسه . هذا ما كان يقوله بالضبط لقد اكتشفت بعد زواجنا أنه لم يقرأ قط أيا من كتبها . هل تعرفين من هو أديبه المفضل .

وهزت ماري جين رأسها :

ـ ل . مانينغ فاينز . هل سمعت به ؟
ـ لا .
ـ وانا كذلك . لا أعتقد ان احداً سمع به قط .

لقد كتب كتاباً عن أربعة رجال ماتوا من الجوع في آلاسكا . لم يعد «لو» يتذكر العنوان ، ولكنه يصر مع ذلك على أنه اروع كتاب قرأه في حياته . يا الهي ! ليس عنده من الشرف ما يجعله يقول بصراحة بأنه احب هذا الكتاب لأنه يحكي قصة اربعة اشخاص ماتوا من الجوع في جزيرة .. أو شيء من هـــذا القبيل . ولم يستطع أن يقول الا أنه رائع الاسلوب .

قالت ماري جين :

ـ انك تبالغين في النقد ، اؤكد لك ذلك ، انك تمضين وقتك في البحث عن النقائص . وما أدراك أن الكتاب كان جيداً مع ذلك !

قالت ايلويز :
ـ صدقيني ، لا يمكن ان يكون كذلك .
وفكرت لحظة ، ثم قالت :
ـ انت على الأقل تعملين ، أتفهين ؟ على الأقل ...
قالت ماري جين :
ـ اصغي لي ، الا يخطر لك بأنك ستقولين له يوماًما على الأقل بأن وولت قد قتل ؟ اعني انه لن يكون غيوراً ، لا ، اذا ما عرف بأن وولت قد ... انت تعرفين .. قتل ..
قالت ايلويز :
ـ أوه . ما أروعك ! أيتها الفتاة ، العاملة ، المسكينة . سيكون ذلك أشد ايلاما له . سينقلب الى عفريت ، اسمعي جيداً . كل ما يعرفه هو اني عاشرت شخصا اسمه وولت .. جندي عادي يجيد النكتة . ان آخر ما يخطر في بالي أن افعله هو أن أقول له بأنه قتل . ان ذلك آخر شيء ! واذا مـــا فعلته ـ ولن

افعله ــ ، ولكن اذا ما فعلته ليكون كل شيء كاملا ، فسأقول له بأنه قتل اثناء المعركة .

ودفعت ماري جين ذقنها قليلا الى الامام على ذراعها وقالت :

ــ ايل ..

ــ نعم ؟

ــ لماذا لا تريدين أن تقولي لي كيف ُقتـــل ؟ أقسم لك بأني لن أكرر ذلك لأي انسان . أرجوك .

ــ لا .

ــ أرجوك . أقسم لك . لن أعيد ذلك لأحد .

وأفرغت ايلويز كأسها . واعادته فارغاً فوق صدرها ، وقالت :

ــ ستذكرين ذلك أمام آكيم تاميروف .

ــ لا ، اؤكد لك . لن أتكلم عنه بصورة خاصة امام ...

قالت ايلويز :

ــ اوه ، كانت فرقته قد عسكرت في مكان ما، بين عمليتين حربيتين، او شيء من هذا القبيل .. هذا ما قاله لي زميله الذي روى لي الحادث . كان وولت وشاب آخر يلفان مدفأة صغيرة يابانية ، كان كولونيل يريد ارسالهـــا الى منزله ، او انهما كانا يحلان الغلاف ليغلفاها من جديد ، لم اعد اتذكر بالضبط . كل ما كان هنالك هو انها كانت ملأى بالبنزين والخيوط . وانها انفجرت في وجهيهما ، لقد فقد الشاب الثاني احدى عينيه ...

وراحت ايلويز تبكي ، وهي تضع احدى يديها حول كأسها الفارغـــة لتثبتها على صدرها .

وانزلقت ماري جين من على الاريكة ، وجرت نفسها على ركبتيها عـــدة خطوات نحو ايلويز ، وراحت تمرر يدها على شعرها .

– لا تبكي ، ايل ، لا تبكي .

قالت ايلويز :

– من الذي يبكي ؟

– أعرف، ولكن لا تبكي ؛ اني اؤكد الك بأن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً.

وفتح باب المدخل .

قالت ايلويز وهي تشخر :

– إنها رامونا . لقد عادت . أرجوك ، قدمي لي هـــذه الخدمة . اذهبي الى المطبخ ، واطلبي ممن يوجد فيه ان يعشيها دونما إبطاء .

– أوافق . اذا وعدتني بالكف عن البكاء .

– أعدك بذلك . اذهبي ليست بي رغبة الآن للذهاب الى هذا المطبخ اللعين .

ونهضت ماري جين وهي تترنح ؛ ثم لم تلبث ان وجدت توازنها ، وغادرت الغرفة .

وبعد دقيقتين .. كانت عائدة . وكانت رامونا تهرب امامها . كانت رامونا تركض ورجلاها مسطحتان تماماً لتحدث اكبر قدر من الضوضاء. بحذائها المطاط ، المفكك الأزرار .

قالت ماري جين :

– انها لا تريد ان اخلع لها حذاءها المطاط .

كانت ايلويز التي ما برحت ممددة على ظهرها فوق الأرض ، تتمخط ، ومن خلال منديلها راحت تخاطب رامونا .

– اخرجي من هنا ؛ واطلبي من غراس أن تنزع لك حذاءك المطاط . انت تعرفين بأنه ممنوع أن تدخلي الـ ...

قالت رامونا :

– انها في بيت الخلاء .

ونحّت ايلويز منديلها ، ورفعت ظهرها استعداداً للجلوس ، وقالت:

– هاتي قدمك . اجلسي اولاً من فضلك . لا ، ليس هنا ... يا إلهي !

كانت ماري جين تبحث عن علبة سجائرها تحت المنضـــدة ، وهي تجلس القرفصاء . قالت :

– هيه : احزري ما جرى لجيمي .

– ليس عندي اية فكرة . هاتي القدم الأخرى . لا ، القدم الأخرى .

قالت ماري جين :

– لقد دُهس ، ألا تعدين ذلك مأساة ؟

قالت رامونا لايلويز :

– لقد رأيت سكيبر يحمل عظماً.

وسألت ايلويز :

– ماذا حدث لجيمي ؟

– لقد دهس ، ومات . رأيت سكيبر يحمل عظماً ولم يقبل أن ...

قالت ايلويز :

– أريني جبينك لحظة .

ومدت يدها ، وجست جبين رامونا .

– يبدو أنك محمومة قليلا . اذهبي وقولي لغراس أن تعـــد لك عشاءك في الطابق الأعلى ، وبعد ذلك ، تنامين فوراً . وسأصعد بعد قليل . اذهبي الآن من فضلك ، واحملي معك حذاءك المطاط .

وخرجت رامونا من الغرفة بخطى كبيرة بطيئة قالت ايلويز لماري جين :

– أعطني واحدة منها . سنأخذ كأساً اخرى . وقدمت ماري جين سيجارة لايلويز .

– انها لشيء مذهل ، مع ذلك ، قصة جيمي هذا ! يا للمخيلة !

ـ مم ! ستذهبين لاحضـــار شيء للشرب ، أليس كذلك ؟ أحضري معك الزجاجة ... لا أريد ان اذهب الى هناك . كل هـــذا المنزل اللعين .. كله تفوح منه رائحة البرتقال .

***

ما كادت الساعة تتخطى السابعة بعدة دقائق حتى رن جرس الهاتف .

ونهضت ايلويز من المقعد ، امام النافذة ، وراحت تتلمس حذاءها في العتمة، فلم تستطع أن تعثر عليه ؛ ثم ذهبت الى الهاتف . بخطى هادئة ، مترنحة ، وهي تمشي بجوربها .

لم يزعج الجرس ماري جين التي كانت تنام منبطحة على بطنها فوق الأريكة.

قالت ايلويز دون أن تنير الغرفة :

ـ هالو ، لا أستطيع الحضور لايصالك الى البيت . هنا ماري جين وقد صفت سيارتها أمام باب المنزل تماماً ، وفقدت مفتاحها . لا أستطيع الخروج . لقـــد امضينا عشرين دقيقة . ونحن نبحث في ـ ماذا يسمى ؟ ـ الثلج ، وكل هـــذه التركيبة ... ربمـا استطعت ان تطلب من ديك ايصالك . (وأصغت) . أوه ، حسناً ، هذا مزعج يا بطتي . اصغ الي ، لماذا لا تؤلفون ، انتم الرجال، مفرزة ، وتعودون مصطفين اثنين اثنين .. يمكنكم ان ترددوا هذه اللازمة . واحد ، اثنين، يمين ، يسار ... ستحدثون تأثيراً عظيماً ...

وأصغت من جديد .. ثم تابعت :

ـ لست غريبة ، على الاطلاق ، اؤكد لك . انهـــا مجرد فكرة ، وعلقت السماعة .

وعادت بخطى اقل ثباتاً الى غرفة الجلوس . وعلى المقعد ، امام النافذة ، سكبت في كأسها ما تبقى في زجاجة السكوتش ؛ وكان لا يكاد يتجاوز الإصبع، فشربته وهي ترتعش .. ثم جلست .

وعندما اضاءت غراس غرفة الطعام انتفضت ايلويز ، وصاحت دون ان تنهض :

ـ ليس من الضروري ترتيب المائدة قبل الساعة الثامنة . سيتأخر السيد وينجلر قليلاً .

وبرزت غراس في ضوء غرفة الطعام ، ولكنها لم تتقدم ، وقالت :

ـ هل ذهبت السيدة ؟

ـ انها تستريح .

قالت غراس :

ـ اوه ، سيدة وينجلر ، كنت تسأل فيما اذا كنت توافقين على أن يمضي زوجي السهرة هنا،في غرفتي متسع من المكان . وهو بدوره ليس مضطراً للعودة الى نيويورك قبل صباح الغد .

إن الجو بالغ الرداءة في الخارج .

ـ زوجك ؟ أين هو ؟

ـ إنه الآن في المطبخ .

ـ حسناً يا غراس ، اخشى ألا يستطيع تمضية الليل هنا .

ـ سيدتي !

ـ أقول ، أخشى الا يستطيع تمضية الليلة . تعرفين اني لا أدير فندقاً هنا .

وظلت غراس واقفة فترة دون حراك . ثم قالت :

ـ نعم ، سيدتي .

وعادت الى المطبخ .

تركت ايلويز غرفة الجلوس ، وصعدت الدرج على ضوء خافت ينبعث من حجرة الطعام .

كانت فردة حذاء رامونا المطاط ملقاة على قرص الدرج ، فالتقطتهـــا ، والقت بها بكل قوتها من فوق الدرابزون ، فتدحرجت بقوة على أرض الطابق الأرضي . ثم اشعلت نور غرفة رامونا ، وتركت يدها على الزر ومكثت بعض الوقت هادئـــة وهي تنظر الى رامونا . ثم تركت الزر ، ومشت نحو السرير في خطوات سريعة .

– استيقظي ، رامونا ، استيقظي .

كانت رامونا ترقد بطمأنينة على حافة السرير وردفها الايمن خارج السرير ، وكانت نظارتاها مطبقتين بعناية على منضدة نوم صغيرة . وزجاجها الى الأعلى . وكانت المنضدة مزينة بصورة لدونالدوك .

– رامونا !

واستيقظت الفتاة ، وهي تتنفس بسرعة ، وفتحت عينيها بقوة ، ثم اغمضتها على الفور .

– ماما ؟

– خيل الي بأنك قلت لي إن جيمي جيميرينو قد دُهس ، ومات ...

– ماذا ؟

قالت ايلويز :

– لقد سمعتني جيداً . لماذا تنامين هكذا على حافة السرير ؟

قالت رامونا :

– لأن ...

– لأن ماذا يا رامونا ؟ ليست بي رغبة ا ...

– لأني لا أريد أن أوذي ميكي .

— من ؟

قالت رامونا وهي تفرك انفها :

ـ ميكي ، ميكي ميكيرانو .

وراحت ايلويز تصيح :

— عودي الى وسط السرير ، هيا !

وسيطر على رامونا الذعر ، ولم تفعل شيئاً سوى ان تحدق في امها .

— جيد !

أمسكت ايلويز برسغي قدم رامونا ، وأعادتها الى وسط السرير بحركة جر ورفع .

لم تقاوم رامونا ولم تبك . بل تركت امها تفعل ما تريد دون حراك ، ولكن دون أن تذعن .

ورددت ايلويز بصوت متهدج :

— ستنامين الآن . اغمضي عينيك . أتسمعينني ؟ أغمضي عينيك .

وأغمضت رامونا عينيها .

ومشت ايلويز نحو زر النور ، واطفأته ، ومكثت فترة طويلة على عتبة الباب ، ثم هرولت فجأة في العتمة نحو منضدة الليل ، واصطدمت ركبتها بخشب السرير ، ولكنها كانت في شغل عن أن تشعر بالألم . وأمسكت بنظارتي رامونا بكلتا يديها ، وضمتها الى خدها .

كانت الدموع تسيل على وجهها ، وتبلل زجاج النظارة .

وراحت تردد :

« مسكين العم العجوز المرضوض ... مسكين العم العجوز المرضوض . »

وأخيراً ، أعادت النظارة الى مكانها فوق المنضدة ، والزجاج الى الأسفل ، وانحنت وقد اضاعت توازنها ، وراحت تتلمس اغطية السرير .

لم تكن رامونا قد اغفت . كانت تبكي منذ فترة ؛ فقبلتها ايلويز برفق من فمها وازاحت شعرها من على عينيها ، ثم غادرت الغرفة .

وهبطت هذه المرة وهي تترنح بشكل واضح ، وايقظت ماري جين .

قالت ماري جين وهي تنتصب فجأة فوق الأريكة :

— ماذا هنا ؟ من هنا ؟ هوه !

قالت ايلويز وهي تنتحب :

— أصغي الي يا ماري جين . أرجوك . هل تذكرين المرة الاولى في المدرسة، عندما كنت ارتدي الثوب الكستنائي والأصفر الذي اشتريته من عنـــد بواز ، والذي قالت عنه ميريام بول بأنه ما من أحد يرتدي هـذا النوع من الألبسة في نيويورك ؟ وبكيت اثر ذلك طوال الليل ...

وهزت ايلويز ذراع ماري جين ، وراحت تتكلم بلهجة دفاع :

— كنتُ فتاة لطيفة آنذاك ...

أليس كذلك ؟

***

عَشِيَّة الحَرب مَع الأسكيمُو

٣

كانت خمسة اسابيع قد مضت تباعاً منذ ان بدأت جيني مانوكس تلعب التنس في الجانب الشرقي مع سيلينا غراف ، احدى زميلاتها في صف الآنسة باسيهار .

ولم تكن جيني لتخفي عن نفسها بأنها ترى في سيلينا أجمل طالبة كسولة في صف الآنسة باسيهار . وهو صف يعج على كل حال بالطالبات الكسولات الجميلات . ولكن من ناحية اخرى ، لم تكن هناك اية واحدة منهن تستطيع أن تحضر هذا العدد كله من طابات التنس الجديدة كسيلينا .

كان والدها يصنع طابات التنس ، او شيئاً من هذا القبيل .

وذات يوم ، عند العشاء ، ارادت جيني ان تصور لأهلها كيف يكون العشاء الفاخر عند آل غراف :

يمثل خادم ببزة رسمية ، ويقترب من يسار كل ضيف ، ويقدم له ، بدلاً من عصير البندورة ، علبة طابات تنس .

ولكن ما حدث هو ان هذه العادة الصغيرة وهي تتلخص في ايصال سيلينا الى منزلها بالتاكسي ، بعد لعبة التنس ، واضطرارها في كل مرة الى دفع الحساب وحدها .. هذه العادة بدأت تثير أعصاب جيني . لا سيما ان سيلينا هي التي اقترحت العودة ، بعد لعب التنس ، بالتاكسي بدلاً من الاوتوبوس .

وما ان بدأت السيارة تصعد شارع يورك ، في يوم السبت الخامس ، حتى انفجرت جيني فجأة :

— هيه ، سيلينا .

— ماذا ؟

كانت سيلينا منهمكة في امرار يدها على السجادة التي تفرش أرض التاكسي.

وهمهمت شاكية :

ـ يبدو اني أضعت جعبة مضربي .

كانت الفتاتان ، بالرغم من حرارة هذا اليوم من ايار ، ترتديان معطفا فوق بنطاليهما القصيرين .

قالت جيني :

ـ لقد وضعتها في جيبك . أصغي الي قليلا ...

ـ أوه يا الهي ! لقد انقذت حياتي .

ولم يكن عرفان سيلينا لهذا الجميل ليهم جيني في كثير أو قليل . فقالت لها:

ـ اصغي الي .

ـ ماذا ؟

وقررت جيني ان تتكلم بصراحة ، من دون لف او دوران .

كان التاكسي يقترب من الشارع الذي يقع فيه بيت سيلينا .

قالت :

ـ ليست بي رغبة اليوم في أن اتحمل وحدي أجرة التاكسي مرة أخرى . لست مليونيرة كما تعرفين .

وبدت على سيلينا الدهشة في البدء ، ثم ما لبثت أن أجـــابت ببراءة وهي متعضة :

ـ ألا أدفع دائما النصف ؟

قالت جيني بصوت واضح :

ـ لا ، لقد دفعت النصف اول سبت فقـــط ، في منتصف الشهر السابق . ومنذ ذلك الحين لم تعودي الى ذلك . لا أريد ان أكون شحيحة ، ولكن ذلك

صحيح . علي ان اتدبر امري بالدولارات الاربعة والنصف في الاسبوع . . . وبالاضافة علي . . .

وسألت سيلينا بجفاف :

ـ ألا احضر أنا بدوري طابات التنس دائماً ؟ وكانت لحظات ودت فيها جيني من كل قلبها لو تخنقها .. قالت :

ـ ان والدك يصنعها .. أو شيء من هذا القبيل . انها لا تكلفك قرشاً واحداً أما انا فاني أدفع كل شيء من دراهمي الخاصة .

قالت سيلينا بلهجة متعالية قاطعة ، لتكون لها الكلمة الأخيرة :

ـ حسناً ، حسناً .

وبهيئة ممتعضة راحت تبحث في جيوب معطفها ، ثم استطردت بجفاف :

ـ ليس معي الا خمسة وثلاثون سنتاً الآن . الا يكفي ؟

ـ آسفة ، لا ؛ أنت مدينة لي بدولار وخمسة وستين سنتاً . . لقد سجلت كل . .

ـ أراني مضطرة للصعود الى الاعلى ، وطلب الدراهم من امي . الا تستطيعين الانتظار حتى يوم الاثنين ؟ سأحضرها لك في حصة الرياضة ، اذا كان ذلك يسرك .

وكانت لهجة سيلينا لا تنم أبداً عن الرضا والسعي للمصالحة فقالت جيني .

ـ لا . علي ان أذهب الى السينما هذا المساء . إني بحاجة اليها .

ولبثت الفتاتان غارقتين في صمت مشوب بالعداء حتى وصول التاكسي الى البناية التي تقطن فيها سيلينا .

كانت عينا كل منهما مثبتتين على نافذة السيارة التي تجاورها .

ونزلت سيلينا التي كانت تجلس الى جهة الرصيف اولا ، وتركت باب البناية الخارجي مفتوحاً بعض الشيء ، ودلفت الى البناء بخطوات حثيثة ، وهيئة شاردة كاحدى ملكات هوليوود .

أما جيني التي احتقن وجهها بالغضب فقد دفعت الاجرة ، ثم جمعت أدوات التنس « المضرب ، المنشفة ، القبعة » ولحقت بسيلينا .

كانت جيني في الخامسة عشر يبلغ طولها ١٧٥ سنتمتراً وهي تحتـــذي حذاء التنس ، (مقاس ٤٠) .

وكان شعورها ، وهي تدلف الى مدخل البناية ، بهيئتها الخشنة ، وحـــذائها المطاط ، أن منظرها أقرب ما يكون الى منظر الدب .

ورأت سيلينا أن تثبت بصرها في الساعة المعلقة على جدار المصعد .

قالت جيني ، وهي تتجه نحوها بخطى واسعة :

– لقد أصبحت مدينة لي الآن بدولار وتسعين سنتاً .

والتفتت سيلينا قائلة :

– ألا يهمك ان تعلمي بأن والدتي مريضة جداً ؟

– وماذا بها ؟

– انها على وشك ان تصاب بذات الرئة . وهل تعتقدين بأنه يسرني ان أزعجها بموضوع يمكنه الانتظار كموضوع الدراهم ؟

وجهت سيلينا عبارتها البتراء بكل ما تستطيع من رباطة الجأش ؛ وبـــدا على جيني في الواقع شيء من الحيرة نتيجة لهذا النبأ ، سواء أكان صادقاً ام كاذبـــاً ! ولكن ذلك لم يبلغ الحد الذي يجعلها تلين .

قالت :

– ليست هي التي أقرضتُها الدراهم .

ولحقت بسيلينا داخل المصعد .

وعندما قرعت سيلينا جرس الباب ، أدخلت الفتـــاتان الى المنزل – او على

الأصح – فتح الباب من قبل خادمة زنجية وترك نصف مفتوح، ولم توجه سيلينا أية كلمة للخادمة . وتركت جيني اغراضها على كرسي عند المدخل وتبعت سيلينا .

وفي الصالة التفتت سيلينا ، وقالت :

– هيه ! ألا تودين الانتظار هنا ؟ قد أضطر الى ايقاظ والدتي و ...

قالت جيني :

– لا بأس .

واستلقت على أريكة .

– لم يدر في خلدي قط أنك خسيسة الى هذا الحد .

قالت سيلينا ذلك ، وقد بلغ بها الغضب حداً جعلها تستعمل كلمة خسيسة ، ولكن لم تكن لديها الجرأة لتقولها بصوت مرتفع .

قالت جيني :

– انت الآن على علم بذلك .

وفتحت عدداً من مجلة « ڤوغ » امام عينيها ، وأبقت وجهها مختفياً وراءه ، حتى غادرت سيلينا الغرفة ثم أعادت المجلة الى ظهر المذياع .

وفحصت الغرفة ، ثم اعادت ترتيبها في مخيلتها ، وهي تحذف الشمعدانات ، وتنقل الازهار الصناعية من مكان الى آخر . وكانت الصالة – في رأيها – بشعة ، مقرفة الى حد لايوصف .

وفجأةً ، رن صوتُ رجلٍ في الطرف الآخر من المنزل :

– أهذا انت يا أريك ؟

وحزرت جيني بأنه أخو سيلينا الذي لم يسبق لها ان رأته قط ، فوضعت رجليها الواحدة فوق الأخرى ، وردت أطراف معطفها فوق ركبتيها، ومكثت

تنتظر .

وسرعان ما برز في الغرفة شاب له نظارتان، يرتدي بيجامة ، عاري القدمين، فاغر الفم ، وقال :

— أوه ، يا إلهي ، ظننت أنه اريك ! .

ودون ان يتوقف ، اجتـــاز الصالة كلها بتلك الهيئة ، وهو يضم الى صدره الضيق شيئاً ما ، وجلس في الطرف الآخر من الأريكة ، وقال بلهجة حانقة :

— لقد جرحت إصبعي منذ لحظات .

ونظر الى جيني كأنما كان يتوقع ان يراها جالسة الى جانبه ، وسألها :

— ألم يحدث لك ان جرحت إصبعك جرحاً بالغاً حتى العظم ؟

كان في صوته الصارخ ما يشبه النداء ، كما لو ان جيني ستوفر عليه — او هي أجابته — كل الجهد الذي ينبغي ان يقوم به لاذابة الجليد بينهما .

كانت جيني تنظر اليه بعينين واسعتين . ولم تلبث ان قالت :

— لقد وقع لي ذلك فعلاً ، ولكنني لم أجرح تماماً حتى العظم .

لقد كان أغرب صبي ، او رجل ، — يصعب تحديد ذلك — رأته عيناها .

كان يستدل من شعره بأنه خارج لتوه من السرير . أما لحيته الشقراء المبعثرة فيرجع تاريخها الى يومين على أقل تقدير .

كان كل ما فيه يوحي بأنه إنسان عبيط .

وسألته جيني :

— وكيف جرحت يدك ؟

وراح يتأمل إصبعه الجريح فاغر الفم ، متهدل الشفتين ، ثم تمتم :

— ماذا ؟

ـ كيف جرحت يدك ؟

وأجاب بلهجة يفهم منها بأن جواب هذا السؤال سيبقى غامضاً الى الأبـد :

ـ وما أدراني . كنت أبحث عن شيء في سلة الاوراق هذه ، وكانت مـلأى بشفرات الحلاقة .

واستطردت جيني :

ـ أنت شقيق سيلينا ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، يا إلهي ، إنها تنزف بصورة مخيفة ! ابقي مكانك ، قد احتاج الى عملية نقل دم قذرة ؛ من يدري ؟

ـ هل وضعت شيئاً ما عليها ؟

وازاح شقيق سيلينا إصبعه الجريح ببطء عن صدره ، ورفعها لتراها جيني .

ـ لا ، لم أضع عليها غير قطعة الورق اللعينة هذه ، كما افعل عندمـــا تجرح ذقني أثناء الحلاقة .

ونظر الى جيني من جديد ، وسألها :

ـ ومن انت ؟ صديقة « للمصروعة » ؟

ـ انا وهي في صف واحد .

ـ آه ، نعم ، وما اسمك ؟

ـ فيرجينيا مانوكس .

قال وهو يحدق فيها من خلال نظارتيه :

ـ انت اذاً جيني ؟ انت فيرجينيا مانوكس ؟

قالت جيني :

ـ نعم .

وأنزلت ساقها عن الساق الأخرى ، وحول اخو سيلينا عينيه الى إصبعه التي

كانت بالنسبة اليه مركز الاهتمام الوحيد ، على ما يبدو ، في الحجرة كلها .

قال بلهجة لا مبالية .

ــ انا أعرف شقيقتك . انها مغرورة كبيرة .

واعتدلت جيني في جلستها .

ــ من ؟

ــ لقد سمعتني جيداً .

ــ انها ليست كما تقول .

قال أخو سيلينا :

ــ ليأخذني الشيطان إن لم تكن كذلك .

ــ لا . إنها ليست كذلك !

ــ ليأخذني الشيطان إن لم تكن كذلك . إنها الملكة ، ملكة رابطة المتعجرفات .

ونظرت اليه جيني وهو يرفع قطعة الورق من على إصبعه ، ويلقي نظرة الى ما تحتها .

ــ انك لم تر أختي قط .

ــ ليأخذني الشيطان إن لم اكن رأيتها .

وسألت جيني :

ــ ما اسمها ؟ ما اسمها الأول ؟

ــ جون .. جون المتغطرسة .

وصمتت جيني فترة ، ثم سألت فجأة :

ــ وكيف هي ؟

ولما لم تحظ بجواب أردفت :

ــ كيف شكلها ؟

قال اخو سيلينا :

– لو كانت على نصف الجمال الذي تظن انها تتمتع به لكانت محظوظة جداً .

وشعرت جيني بأن الجواب على غاية من الحذق ، ولكنها لم تعقب عليه بشيء

واستطردت بعد ذلك :

– لم اسمعها قط تتحدث عنك .

– إن ذلك يحز في قلبي .. يحز في قلبي ، لا تدرين الى أي حد ..

قالت جيني وهي تلاحظه بانتباه .

– انها مخطوبة على كل حال ، وستتزوج خلال الشهر القادم .

فبادرها وهو يرفع عينيه :

– ممن ؟

واستغلت جيني الفرصة التي قدمها لها وهو ينظر اليها :

– لا يعني اسمه شيئاً بالنسبة لك .

وعاد يعبث بضماده الهزيل ، ثم قال :

– اني أرثي له .

وانفجرت جيني في قهقهة عالية .

– ان الدم ما يزال يتدفق منه . هل تعتقدين بان علي ان اضع شيئاً ما فوقه ؟ ماذا يوضع على الجرح عادة ؟ مركوركروم ؟

قالت جيني :

– في هذه الحالة تفضل صبغة اليود .

ثم أحست ان جوابها كان على غاية من التهذيب اذا ما قورن بالجو العام المحيط بها ، فأردفت :

ـ لا علاقة للمركوروكروم بما تشكو منه .
ـ ولم لا ؟ ما هو وجه اعتراضك عليه ؟
ـ ليس له صلة بمشكلتك . هذا كل شيء . إن ما تحتـــاجه هو صبغة اليود .

ونظر الى جيني ، ثم سألها :
ـ أليس هو ذلك الدواء الذي يؤلم ؟ أليس هو الذي يخز كالشيطان ؟

قالت جيني :
ـ نعم انه يؤلمك . ولكنك لن تموت من جرّائه .

وأعاد شقيق سيلينا بصره الى اصبعه دون ان يبدو عليه أنه اغتاظ من لهجة جيني ، وقال :
ـ لا أحبه .
ـ لا أحد يحبه .

ووافق بهزة من ذقنه . ثم استطرد :
ـ نعم ، أعرف ذلك .

وراحت جيني تراقبه بصمت ، ثم أردفت فجأةً :
ـ توقف عن العبث به .

وسحب شقيق سيلينا يده بقوة عن الجرح كمن مسته شحنة كهربائية ، واعتدل في جلسته ، او على الاصح ، بذل جهده لئلا يبدو بمظهر الضعف الكامل . وراح يحدق في طرف الحجرة الآخر ، وقد عـلا قسماته غير المتناسقة تعبير حـــالم . وأدخل ظفر سبابته السليمة بين اثنتين من اسنانه ، وقذف بقايا طعام ، و هو يلتفت نحو جيني ، وابتدرها سائلاً :

ـ هل أكلتِ ؟
ـ ماذا ؟

ـ هل تغذيت ؟

وهزت جيني رأسها قائلة :

ـ سأتناول غذائي عنـدما اعود الى المنزل ، لأن والدتي تترك لي طعامي جاهزاً حتى عودتي .

ـ في غرفتي نصف شطيرة بلحم الدجاج . هل ترغبين فيها ؟ اؤكد لك انني لم أمسها .. وأن ...

ـ لا ، شكراً .

ـ يا آلهي . انك تعودين للتو من لعب التنس ، لا بد انك جائعة الى حـد

قالت جيني :

ـ ليس ذلك هو السبب . انه بالأحرى مجاملة لوالدتي التي تترك لي الغـذاء ساخناً حتى عودتي . انها تمرض اذا لم أصب منه شيئاً . هل تفهم ذلك ؟

وبدا على شقيق سيلينا انه يقدر ذلك . لقد هز رأسه على الأقـل ، وحول بصره الى مكان آخر ، ولكن لم يلبث ان التفت على الفور قائلاً :

ـ ما رأيك بقدح من الحليب ؟

ـ لا ، شكراً ، شكراً .. اؤكد لك ..

وانحنى بحركة آلية ، وراح يحك كعبه العاري ، ثم سأل :

ـ ما اسم الشخص الذي ستتزوجه ؟

قالت جيني :

ـ أتتكلم عن جون ؟ اسمه ديك هفنر .

واستمر شقيق سيلينا في حك كعبه .

قالت جيني :

ـ انه ملازم في البحرية .

ـ يا المصيبة !

وضحكت جيني ببلاهة،وتركته يحك كعبه حتى أصبح أحمر اللون .وعندما بدأ يحـــك بطرف ظفره "دُمّلة" صغيرة على ربلة ساقه حولت الفتـــاة طرفها وسألته :

– كيف تعرفت الى جون ؟ أليس غريباً اني لم التق بك عندنا في المنزل قط ؟
– لم اضع قدمي قط في حظيرتكم ! ..

وانتظرت جيني .

ولما لم يتبع اعترافه هذا بشيء آخر سألت :

– اين تعرفت عليها اذاً ؟
– في حفلة .
– في حفلة ؟ متى ؟
– لم أعد اذكر . أثناء عيد الميلاد ١٩٤٢ .

وسحب باصبعيه سيجارة من الجيب العلوي لقميص بيجامتـه ، كان شكل السيجارة ينبىء بصورة واضحة أنه قد نام فوقها . قال :
– أعطيني علبة الثقاب ، من فضلك .

وتناولت جيني علبة ثقاب من على المنضدة المجاورة ، وقدمتها له .

ودون ان يلتفت أشعل سيجارته ، ثم أعاد عود الثقاب المنطفىء الى العلبة ، وألقى برأسه الى الوراء ، ثم نفث من فمه ببطء نفثة هائلة من الدخـان ، ما لبث أن استعادها بمنخريه ، واستمر يدخن على هذا النحو « على الطريقة الفرنسية » .

لم يكن وضعه على الأريكة دوراً يمثله في رواية صغيرة بكل تأكيد ، ولكنه كان على الأصح يشبه تجربة شخصية لشاب خطر له ذات يوم أن يحلق ذقنه بيده اليسرى ، أمام الجمهور .

وسألت جيني :

ـ لماذا تطلق على جون اسم المتعجرفة ؟

ـ لماذا ؟ لأنها كذلك . ليأخذني الشيطان إن كنت أعرف لماذا ؟

ـ لا . اريد ان اقول : لماذا تسميها متعجرفة ؟

والتفت نحوها بهيئة متعبة .

ـ اصغي الي . لقد كتبت لها ثماني رسائل لعينة، ثمان ، لم تجب على أية واحدة منهـــا .

وترددت جيني :

ـ ربما كانت مشغولة .

ـ نعم ، صحيح ذلك . مشغولة ، نعم كما تنشغل الحيوانات اللعينة التي تنـــام طول الشتاء .

قالت جيني :

ـ لماذا تشتم على هذا الشكل ؟

ـ خ ... صحيح أني اتكلم بصورة زرية .

وضحكت جيني ضحكة مقتضبة .

ـ دعنا من ذلك . منذ متى تعرفها ؟

ـ منذ أمد بعيد على كل حال .

ـ نعم ، ولكني اريد ان أقول : هل اتصلت بها هاتفياً ، او قمت بشيء من هذا القبيل ؟ أعني هل تكلمت معها بالهاتف أو ...

ـ لا .

ـ اذاً يا الهي ، ماذا تريد منها أن تفعل اذا كنت لم تتصل بها قط بالهاتف ؟

ـ لم اكن استطيع، يا الهي !

قالت جيني :

ـ لماذا ؟

ـ لأني لم اكن موجوداً في نيويورك !

ـ أوه ! واين كنت اذاً ؟
ـ أنا ؟ في الأوهيو !
ـ أوه ! هل كنت تدرس ؟
ـ مطلقاً ، لقد تركت الدراسة .
ـ أوه ، هل كنت في الجيش ؟
ـ لا . أبداً .

وراح يدق على الجهة اليسرى من صدره بيده التي تحمل السيجارة . ثم استتلى قائلا :

ـ خافقي .

قالت جيني :

ـ قلبك ؟ ما بال قلبك ؟
ـ لا أدري ما به . لقد أصبت في طفولتي بحمى ذات منشأ روماتيزمي . ألم اعين في ...
ـ ايه ، ألم يمنعوك من التدخين ؟ أعني ألا يجدر بك ان تتوقف عن التدخين وعما يشابهه ؟ لقد سمعت الطبيب يقول ...

قال :

ـ ان الاطباء يرددون دائماً ثرثرة لا حصر لها .

وصمتت جيني لحظة ، لحظة قصيرة جداً ، ثم سألت :

ـ ماذا كنت تعمل في الاوهيو ؟
ـ انا ؟ كنت اعمل في معمل قذر للطيران .

قالت جيني :

ـ انت ؟ وهل كنت مسروراً من عملك ؟

وردد وهو يقلدها :

ـ هل كنت مسروراً من عملك ؟ كنت أعبد هذا العمل. إني مغرم بالطيارات

حتى الجنون . انها لطيفة جداً .. الطيارات ..

كانت جيني منساقة في حديثها لدرجة يصعب معها ان تغتاظ .

ـ وكم مكثت تعمل هناك ؟ أعني في معمل الطائرات ...

ـ لا أدري ، يا إلهي ، سبعة وثلاثون اسبوعاً ...

ونهض ، ثم توجه الى النافذة ، وراح يتأمل الشارع وهو يحك عموده الفقري بابهامه . ثم التفت الى جيني قائلا :

ـ انظري اليهم .. الى هذا القطيع .. قطيع من الاغبياء .

قالت جيني :

ـ من ؟

ـ لا أدري . كل الناس .

ـ اذا أبقيت إصبعك متجهة الى الأسفل على هـذا النحو ، فسوف يزداد نزيف الدم منها .

فانصاع لكلمتها . واتكأ برجله اليسرى على حافة النافذة ، ووضع يـده الجريحة على فخذه بشكل افقي ، وواصل نظره الى الشارع . ثم اردف قائلا :

ـ انهم يقفون في الصف ، امام هذا المركز اللعين للتجنيد . كلهم .. سننازل الاسكيمو في المعركة القادمة . هل تعرفين ؟

قالت جيني :

من ؟

الأسكيمو ! يا الهي ! افتحي أذنيك جيداً .

ـ ولماذا الأسكيمو ! بالذات ؟

ـ لا ادري لماذا ؟ وكيف تريدينني أن أعرف يا الهي ؟ سيحشدون هـذه المرة جميع الخرفين ، الأزلام الذين ينـاهز عمرهم الستين ... كل ذلك لكي تكون ساعات العمل اقل على ما أظن . هذا هو كل شيء ! إنها فكرة جهنمية .. أليس كذلك ؟

قالت جيني دون أن تحمل شيئاً من سوء النية :
ـ ومهما يكن ، فلن تكون مضطراً بهذه الشروط الى الالتحاق بهم ..
وأحست قبل ان تنهي جملتها بأنها قد ارتكبت زله.
قال بسرعة :
ـ أعرف ذلك .
وسحب قدمه من حافـــة النافذة ، وفتحها ، ثم القى بعقب سيجارتـــه الى الشارع ، ثم استدار ، وجعل ظهره الى النافذة :
ـ هيه ! هل تريدين ان تؤدي لي خدمة بسيطة ؟ عندمـــا يأتي أحد الى هنا قولي له بأني سأكون مستعداً خلال ثانيتين . لم يبق علي الا أن احلق ذقني .
هذا هو كل شيء . هل توافقين ؟
وهزت جيني رأسها موافقة .
ـ هل تريدين أن أطلب من سيلينا ان تسرع ؟ او شيئا من هذا القبيل ؟ ألها علم بوجودك هنا؟
قالت جيني :
ـ أوه ! إنها على علم بوجودي . لست على عجلة من أمري . شكراً .
وهز شقيق سيلينا رأسه ، ثم امعن النظر للمرة الأخيرة في إصبعه الجريـح ، كما لو انه يحاول التأكد من أنه في وضع يسمح له بقطع المسافة حتى غرفته .
ـ لماذا لا تضع له ضماداً لاصقاً ؟ أليس عندك ضماد ، أوشيء من هذا القبيل؟
قال :
ـ لا ، لا تهتمي بذلك .
وخرج من الغرفة وهو يجر قدميه . وما هي الا ثوان معدودة حتى عاد وهو يحمل بيده قطعة الشطيرة . قال :
ـ كلي هذا .. انه شهي .
ـ لا . لا استطيـع فعلا ..

ـ خذي هذا يا إلهي . لم أضع فيه السم ، أو ...
وتناولت جيني قطعة الشطيرة منه ، وأردفت قائلة :
ـ شكراً .
وتريث ينظر اليها ، ثم قال :
ـ انه بلحم الدجاج . لقد اشتريته مساء البارحة من حانوت حقير .
ـ يبدو أنه لذيذ جداً .
ـ لماذا لا تأكلينه اذاً ؟
وأخذت جيني لقمة .
ـ أليس لذيذاً ؟ هيه !
وازدردت جيني اللقمه بصعوبة وقالت :
ـ لذيذ جداً .

وهز أخو سيلينا رأسه ، وأجال في الحجرة نظرة غائمة وهو يحك عظام صدره .

ـ حسناً ، أظن أنه يجدر بي الآن أن أذهب ، وارتدي ملابسي ... يا إلهي الجرس يقرع ! لا تتحركي ! ابقي مكانك ..
وابتعد ..

* * *

وما ان خلت جيني لنفسها حتى راحت تبحث فيما حولها ، دون ان تنهض ، عن مكان تخفي فيه قطعة الشطيرة .

ثم تناهى الى سمعها صوت أقدام تجتاز الممر ، فدستها في جيب معطفها .

ودخل الغرفة رجل في الثلاثين ، متوسط القامة . كانت قسمات وجهه متناسقة وشعره مقصوصاً . ولم تستطع ان تعرف شيئاً عن وضعه من تفصيلة بذلته ، أو

من لون ربطة عنقه ، ونقوشها . من يدري ؟ ربما كان أحـــد المحررين في مجلة من المجلات الكبرى ، او انه يحاول أن يكون كذلك .

ربما كان ممثلا في مسرحية تقدم على مسارح فيلادلفيا ..

ربما كان يدرس المحاماة ..

كل هذا جائز ..

وتوجه الى جيني بحفاوة قائلا :

ـ مرحبا !

ـ مرحبا !

وسألها :

ـ هل رأيت فرانكلين ؟

ـ انه يحلق ذقنه . لقد سألني ان أطاب اليك انتظاره . لن يتأخر اكثر من دقيقة .

ـ أوه ! يا الهي ، انه يحلق .

ونظر الشاب الى ساعة في معصمه ، ثم جلس على اريكة من الديباج الأحمر ، ووضع احدى رجليه على الأخرى ، وأمسك بوجهـــه بين يديه ، إما لأنه كان متعباً ، واما لأن عينيه المرهقتين كانتا تؤلمانه .

وفرك اجفانه طويلا بأطراف اصابعه ، ثم قال وهو يبعد يديه عن وجهه :

ـ لقد اجتزت منذ لحظات أقسى صباح في حياتي .

كان صوته ينبعث من الحنجرة فقط ، كما لو انه كان منهكاً الى حد لا يستطيع معه استخدام رئتيه .

وسألت جيني ، وهي تنظر اليه :

ـ ماذا حدث لك ؟

ـ اوه ... انها قصة طويلة . لم اتعود ازعاج الاشخاص الذين لا اعرفهم على الأقل منذ عشرة قرون .

كان يجيل على النوافذ نظرات كئيبة غير محددة .

ـ على كل حال ، لم أعد ادعي على الاطلاق اني أعرف النفس البشرية ، حتى ولو بشكل سطحي . يمكنك أن تصدقيني دون تردد .

ورددت جيني :

ـ ماذا جرى لك ؟

ـ آه ، يا إلهي! هذا المخلوق الذي يقاسمني غرفتي منذ اشهر طويلة . .وأشهر. . لم اعد أريد الحديث عنه . .

هذا الكاتب ! أضاف ذلك بشيء من الرضا ، وهو يتذكر على الأغلب اللعنة المحببة لأحدى روايات همنغواي :

ـ وماذا عمل لك ؟

قال الشاب :

ـ بصراحة . الأفضل أن لا أبدأ الحديث مطلقاً .

وتناول سيجارة من علبته الخاصة . دون ان ينتبه الى العلبة الموضوعة بجلاء على المنضدة ، ثم اشعلها بقداحته .

كانت يداه كبيرتين ، ولكن لم يكن يبدو عليها انها قويتان ، او حاذقتان ، او ناعمتان بشكل خاص ، رغم أنه كان يحركهما كما لو انهما تمتلكان في ذاتها قدرة جمالية لا تحد .

قال :

ـ لقد قررت الكف عن التفكير في الموضوع . ولكني ما ازال حانقاً . أصغي الي . لقد حط علي فجأة هذا المخلوق النذل القادم من آلتكونا في بنسلفانيا ، او شيء من هذا القبيل ، وعليه سيماء من يموت جوعاً . وانا على قدر من الطيبة والفهم من ماركة ـ السامري الطيب ـ المكفولة المنشأ ، فاقتدته الى مسكني . وهو مسكن صغير لا تكاد تراه عينك الا بالمجهر ، صغير لدرجة اني أتحرك فيه بصعوبة بالغة ، وقدمته الى كل أصدقائي ، وتركته يسد علي مسكني بمخطوطاته ، وأعقاب سجائره ، وأقذاره .

وكنت أمر على ذلك كله مرور الكرام ، ثم أعرفه الى كل منتجي

المسارح في نيويورك ، واحمل قمصانه المتسخة من مسكني حتى حانوت المنظف ، ثم أعيدها .. فماذا كانت النتيجة ؟

والتقط الشاب أنفاسه ثم اردف :

ـ أما المكافأة على تلطفي ، على فهمي ، فهي انه انسحب على الطريقة الانجليزية هذا الصباح ، بين الساعة الخامسة والسادسة ، دون أن يترك كلمة صغيرة . فعل ذلك بعد ان حمل كل ما وقع تحت يديه القذرتين .

وتوقف قليلاً ليسحب الدخان من سيجارته ، ثم نفثه في خط رفيع متعرج.

ـ وبعد ذلك ، آه ، لا اريد ان أسمع شيئاً عنه . وألقى نظرة على جيني ، ثم استطرد قائلا :

ـ اني أعبد معطفك .

كان قد ابتعد عن مقعده ، واجتاز الحجرة ، وأمسك بطرف معطف جيني بين أصابعه :

ـ انه هائل . إنه أول وبر جمل من النوع الجيد أراه منذ الحرب . هل لي في سؤالك من أين حصلت عليه ؟

ـ لقد احضرته لي والدتي من ناسو .

وهز الشاب رأسه بهيئة مدركة ، وعاد الى مقعده :

ـ انها أحد الأمكنه النادرة التي ما يزال المرء يعثر فيها على وبر جمل من النوع الجيد .

وجلس .

ـ هل مكثت هناك فترة طويلة ؟

قالت جيني :

ماذا ؟

ـ هل مكثت والدتك فترة طويلة فيها ؟ إني أسألك ذلك لأن أمي كانت

هناك طوال شهر كانون الاول ، وشطراً من كانون الثاني . إني أصحبها اليها عادة ، ولكنني كنت مشغولاً هـذا العام لدرجة لم استطع معها أن أتغيب قط .

قالت جيني :

ــ لقد كانت ماما هناك في شباط .

ــ رائع . وأين نزلت هناك ؟ هل تعرفين ؟

ــ عند عمتي .

وهز الرجل رأسه .

ــ هل لي أن اسألك عن اسمك ؟ انك صديقـة لشقيقة فرانكلين على مـا اعتقد ؟

قالت جيني :

ــ نحن في صف واحد .

ولم تجب بذلك إلا على الشق الاخير من السؤال .

ــ ألست ما كسيم الشهيرة التي ما تنفك سيلينا تتحدث عنها ؟

قالت جيني :

ــ لا .

وراح الشاب فجأة ينفض قلبات بنطاله براحة يده . وقال :

ــ إني مغطى بشعر الكلب من رأسي حتى قدمي . لقد سافرت امي الى واشنطن أثناء عطلة نهاية الاسبوع ، وتركت كلبها الصغير في مسكني . انه في الحقيقـة لطيف جداً ، ولكنه قليل التهذيب الى حد لا يطاق . أعندك كلب ؟

ــ لا .

ــ أقول لك الصدق . إني اجد في الاحتفاظ بالكلاب في المدن ضربـاً من القسوة .

وتوقف عن التنفيض ، وغاص في مقعده ، ثم نظر من جديد الى ساعـــة معصمه .

ـ ما رأيت هذا الصبي قط يحافظ على موعد من المواعيد . سنذهب لمشاهدة « الوحش والجميلة » لكوكو ، وهو الفلم الذي ينبغي بصورة خاصـة حضوره منذ بدايته ، والا .. فقد كل ميزته . هل رأيته ؟

ـ لا .

قال :

ـ اوه ، يجب أن تريه . لقد شاهدته ثماني مرات . انه العبقرية بعينها . إني أحاول اصطحاب فرانكلين منذ أشهر لرؤيته .

وهز رأسه دلالة على الخيبة .

ـ ما أغرب ذوقه ! لقد عمل كلانا أثناء الحرب في نفس المكان البشع . وكان هذا الصغير يجرني لرؤية افلام لا معنى لها ، افلام قطـاع الطرق ، ورجال الغرب حتى الفكاهات الموسيقية ! ...

وسألت جيني :

ـ هل عملت أنت ايضاً في مصنع الطائرات ؟

ـ نعم ، يا إلهي ! طوال سنوات وسنوات .. لا تعودي بي الى هذا الموضوع أرجوك .

ـ أأنت مصاب بالقلب مثله ؟

ـ حمداً لله ، لا .لنلمس الخشب !

وضرب ذراع المقعد ضربتين قويتين .

ـ إن لي بنية ك ..

***

ما ان دخلت سيلينا الحجرة حتى نهضت جيني مسرعة للقائها . كانت سيلينا قد استبدلت ثوباً ببنطالها القصير . وكان ذلك حرياً باثارة جيني في الظروف العادية .

قالت سيلينا بدافع من الادب فقط :

ـ أنا آسفة لأني جعلتك تنتظرين . ولكني اضطررت بدوري لانتظار والدتي حتى تستيقظ ..

ـ هالو إريك !

ـ هالو مرحبا !

قالت جيني بصوت منخفض بحيث لا تسمعها الا سيلينا وحدها .

ـ على كل حال ، لم أعد راغبة في تلك الدراهم .

ـ ماذا ؟

ـ لقد فكرت في الموضوع . أترين ؟ أنت تقدمين الطابات طوال الوقت . لقد نسيت ذلك .

ـ ولكنك كنت تقولين بأني ما دمت لا أدفع ثمنها ...

قالت جيني ، وهي تمر أمام اريك دون أن تلقي اليه بتحية وداع :

ـ رافقيني حتى الباب .

وعندما بلغتا الممر ، قالت سيلينا :

ـ لكني اظن بأنك كنت تودين الذهاب الى السينما هذا المساء ! وانك كنت بحاجة الى الدراهم !

قالت جيني :

ـ إني في غاية التعب .

وانحنت ثم جمعت كل امتعة التنس التي تخصها .

ـ اسمعي سأتصل بك هاتفياً بعد العشاء. هل تخرجين هذا المساء ؟ ربما مررت لرؤيتك ؟

ونظرت اليها سيلينا بشيء من الدهشة وقالت :

ـ حسناً .

وفتحت جيني باب المدخل واتجهت نحو المصعد ، وضغطت على الزر ثم قالت :

ـ لقد قابلت أخاك .

ـ آه ! انه شخص طريف ، أليس كذلك ؟

قالت جيني بلهجة تنم عن عدم الاهتمام :

ـ ماذا يعمل في الواقع ؟ هل يعمل ؟ أو ...

ـ لقد توقف عن العمل . يريد بابا أن يعود الى الدراسة . ولكنه غير راغب في ذلك .

ـ لماذا ؟

ـ لا أدري . يقول إنه قد جاوز السن ...

ـ وما سنه ؟

ـ لا ادري . اربع وعشرون .

وفتح باب المصعد .

قالت جيني :

ـ سأتصل بك فيما بعد .

وانطلقت في الخارج بخطوات واسعة نحو شارع لكسنجتون لتستقل

الاتوبوس . وبين الشارع رقم ٣ وشارع لكسنجتون بحثت عن حافظة النقود في جيبها ، وعثرت على قطعة الشطيرة ، فأخرجتها ، وخفضت ذراعها لتلقيهـا في الشارع . ولكنها عادت فوضعتها نهائياً في جيبها .

لقد امضت ، منذ عدة سنوات ، ثلاثة أيام كاملة لكي تتخلص من فرخ من فراخ عيد الفصح وجدته ميتاً بين نشارة الخشب في قاع سلة المهملات عندها . . .

***

الرَّجُل الضَّاحِك

٤

كان ذلك في عام ١٩٢٨ .

وانا في التاسعة من عمري .

كنت منضوياً الى منظمة تعرف باسم « نادي الأشبال » بكل ما تحمل روح الجماعة من معنى .

وفي ايام الدراسة ، في الساعة الثالثة من بعد الظهر ، وهي ساعة الانصراف من مدرسة المنطقة ذات الرقم ١٦٥ ، الواقعـــة في الطريق ١٠٩ قرب شارع امستردام ، كنا ننطلق خمسة وعشرين شبلا تحت إشراف قائدنا ، فنرقص بتدافع الأكتاف ، وركلات الأقدام ، في الأوتوبوس العتيق الذي رممـــه قائدنا ، ثم يقودنا الى الحديقة العامة « ببدل اشتراك يتفق عليه مع اوليائنا . »

أما فيما يتبقى من الوقت بعد الظهيرة ، فكنا ، اذا ما سمح لنـــا الجو نلعب « الركبي » ، او كرة القدم ، او البيسبول .

كان ذلك يتوقف على حالة الطقس .

وفي الايام الماطره ، كان القائد ينطلق بنا بصورة دائمة إما الى متحف التاريخ الطبيعي ، او الى متحف الفن.

أما في ايام السبت ، وأكثر أيام الأعياد ، فكان الرئيس يمر علينا في منازلنا منذ الصباح ، ويحملنا في سيارته الهرمة ، ويمضي بنا خارج مانهاتان نحو ما كان يخيل الينا انه فضاء شاسع ، حيث تقع حديقة « ڤـــان كورتلان » والاحراج الكثيفة . فاذا ما استبدت بنا الرغبة في اللعب ذهبنا الى حديقة « ڤان كورتلاند»

حيث الملاعب الممتازة ، وحيث لا تعثر ضمن فريق الخصوم على عربة للأطفـال ، أو على عجوز نزقة ، مسلحة بهراوة كبيرة .

أماعندما كانت قلوبنا ،نحن الأشبال، تخفق للذهاب الى مخيم ، فكنا نذهب الى الأحراج ، وكنا نلاقي مصاعب جساماً .

أذكر اني تهت ذات يوم من أيام السبت في مكان ما من تلك البقعة اللعينة التي تمتد من الصوة المركزة على جانب طريق « لينيت » حتى النهاية الغربيـة لجسر جورج واشنطن .ومع ذلك لم افقد رشدي . جلست الى لوحة اعلان هائلة، يعصف بي الغم ، وفتحت سلة طعامي ، ورحت اتناول افطـاري ؛ وأنا أحس احساساً غامضاً ان القائد لن يلبث أن يعثر علي . كان القائد يعثر علينا دائماً .

واذا ما شئت ان تعرف شيئاً عن قائدنا فانه شاب في الثانية ، أو الثالثـة والعشرين ، من « ستاتن آيلاند » ، اسمه جون جيزوسكي . مفرط في الخجـل ، مفرط في الرقة ، وهو الى ذلك طالب في كلية الحقوق ، في جامعـة نيويورك ، والخلاصة : كان في مجموعه إنساناً لا تنساه الذاكرة بسهولة .

ولست هنا لأعرض سجلا لمآثره ، ومزاياه كلها ، وانما سأكتفي بأن اسجل خلال حديثي العابر أنه كان قائد كشاف بكل ما في الكلمة من معنى ، وأنه كاد أن ينتخب أحسن قائد للكشافة في امريكا عام ١٩٢٦ . ويعلم الجميع ان فريق العمالقة للبيسبول في نيويورك قد دعاه ذات يوم للانضمام اليه .

كان دائماً الحكم الهادىء الحيادي رغم كل ما نثيره من صخب اثنـاء الرياضة ، وكان أحذق من يشعل النار او يطفئها في الرحلات .. يضاف الى هـذا كله براعته في فن التمريض ، وتواضعه ، وتجربته الواسعة .

وكنا جميعاً ، من أصغر جرموز فينا ، حتى اكبر كشاف نعبده ، ونكن له أعمق الاحترام .

إن صورة القائد عام ١٩٢٨ ما زالت واضحة في مخيلتي كل الوضوح .

واذا ما كانت العواطف تقاس بالسنتيميترات ، فاننا نحن الأشبال كنا نحولها الى عملاق في أقل من لحظة .

ولكن ما دامت الحقيقة لا تخضع لرغباتنا فلنعترف بالواقع .

كان قائدنا شاباً ، ضخم الجذع ، طوله مائة وستون سنتمتراً، او مائة واثنتان وستون على الأكثر . كان شعره فاحم السواد . تكاد منابته تلاصق حاجبيه ، أنفه كبير الحجم ، اما طول جذعه فكان يقارب طول ساقيه . كانت كتفاه ، تحت سترة الجلد التي يرتديها ، قويتين ، ولكنهما ضيقتان هابطتان .

ومع ذلك كله فقد كان يبدو لنا في ذلك الوقت أنه يجمع في جمال جسمه ، وتناسقه ، معظم المزايا التي يتمتع بها بوك جونس ، وكين ماينارد ، وتوم ميكس مجتمعين .

وفي كل يوم ، عندما كان الظلام يهبط مبكراً حيث لا يبقى مجال للفريق المهزوم ليضاعف ضرباته المضادة ، البعيدة عن أصول اللعب ، كنا نحن الأشبال نلتف حول قائدنا بكثير من الحماسة والأنانية ، ونستسلم لموهبته الفذة في سرد القصص .

كنا ننقلب حينذاك الى قطيع محموم ، غاضب ، نتسابق بضربات الأيدي ، أو بالصرخات الحادة ، لنظفر بمقاعد السيارة القريبة من مجلس القائد .

كانت السيارة تشتمل على صفين متوازيين من المقاعد المحشوة بالقش ، وكان الصف الأيسر يضم ثلاثة مقاعد إضافية ، على ارتفاع مقعد السائق ، هي أحسن مقاعد السيارة .

لم يكن القائد يصعد الى سيارته حتى يكتمل عقدنا .

وحينئذ كان يجلس مدلياً ساقيه على طرف المقعد ، ثم ما يلبث ان يفتتح فصلا جديداً من قصة « الرجل الضاحك » بصوته الرتيب ذي النبرة الموقعة .

ومنذ اللحظة التي يبدأ فيها حديثه لا يعود اهتمامنا يفتر أبداً .

كان « الرجل الضاحك » اكثر القصص ملاءمة للأشبال .

لقد كانت تبلغ حجم القصص الكلاسيكية الشهيرة وكانت تميل الى التفرع في جميع الاتجاهات ، ولكنها تبقى مع ذلك مترابطة ، متسقة في اذهاننا . بحيث يمكن دائماً أن تنقلها الى منزلك ، وتستعيد افكارها وانت في حوض الاستحمام مثلاً .

لم يكن « الرجل الضاحك » سوى الابن الوحيد لزوجين ثريين من اعضاء الارساليات التبشيرية . وقد اتفق ان اختطف ، وهو ما يزال رضيعاً ، من قبل قطاع طرق صينيين . ولما رفض الوالدان الغنيان دفع فدية طفلهما ، متقيدين ببعض التعاليم الدينية ، بلغ الغيظ بقطاع الطرق حد الجنون . وانتقموا من الوالدين بأن أدخلوا رأس الطفل بين فكي كلابة ، وراحوا يديرون ذراعها عدة دورات نحو اليمين .

ونظر الفتى — موضوع هذه التجربة الفريدة — الى نفسه عندما بلغ مبلغ الرجال فاذا هو جمجمة صلعاء ، متطاولة كقطعة من خبز السكر ، وفتحة هائلة بيضوية الشكل تحت الأنف ، تقوم مقام الفم ، ولم يكن الأنف نفسه سوى منخرين مسدودين .

وهكذا كانت الفتحة القبيحة ، المثيرة للشفقة ، التي تستقر تحت انف الرجل الضاحك تتقلص ، وتتمدد ، كلما تنفس ، كحجم هائل ، او هكذا كنت أتصورها على الأقل .

كان قائدنا يجيد شرح تنفس بطله بالمحاكاة اكثر مما يجيده بالوصف ، وكان الغرباء سرعان ما يسقطون صرعى لمجرد رؤية ذلك الوجه المخيف ، اما المحيطون به فكانوا يهربون من طريقه لئلا تقع أعينهم عليه . وعلى النقيض من ذلك ، كان رجال العصابة يفسحون له المجال ليتجول طليقاً في مخابئهم ، لا يطلبون منه اكثر من ان يحفظ وجهه تحت قناع خفيف أحمر من تويج شقائق النعمان . ولم يكن من

شأن هذا القناع أن يوفر عليهم مشهد وجه ابنهم المتبنى فقط ، بل كان يساعدهم أيضاً على متابعة روحاته وغدواته ، أضف الى ذلك انه كان ينفث رائحة الافيون كيفما تحرك .

وفي كل صباح ، كان الرجل الضاحك ينزلق خارج جحر العصابة ، منقطعاً عن كل ما حوله في عزلة قصوى . كانت مشيته رشيقة كمشية القط . وكان يغوص في الغابة الكثيفة المجاورة ، وهناك كان يقيم صداقاته مع الحيوانات من كل نوع .

من الكلاب ..
الى الفئران البيض ..
الى النسور
والأسود
وأفاعي البوا
والذئاب ..
الى آخر ما هنالك ...

كان يرفع قناعه بين هذه البهائم ، ويتحدث إليها بلغاتها الخاصة ، بصوت ناعم أغن . ولم تكن تلك الحيوانات تراه مخيفاً .

وهكذا أمضى القائد شهوراً طويلة حتى انتهى الى هذا الموضع من القصة . واذ ذاك بدأ يتصرف بسياق القصة ، ويخضعها لمزاجه الخاص ، وكان ذلك يلاقي الرضا ، كل الرضا ، من الأشبال .

كان الرجل الضاحك لا يجارى اذا ما ألصق اذنه بالارض ، راح ينصت الى ما تسر به .

ولكنه لم يستطع ان يكتشف شيئاً من أسرار مهنة العصابة ؛ ويبدو انه لم يكن يعير ذلك كبير اهتمام ، فلم يلبث أن طلع ذات يوم بنظام جديد لهـذه المهنة يفوق كل ما سبقه .

استهل حياته في اللصوصية بعمليات على نطاق ضيق في الريف الصيني .

كانت تلك العمليات مغامرات هاو يسرق وربما قتل . . ولكنه لا يلجأ الى القتل الا في الحالات التي لا يجد فيها بداً من ذلك .

وما هي الا فترة حتى اصبح « الرجل الضاحك » ذائع الصيت بطرقه الاجرامية المبتكرة ، المزودة بحب فريد للعدالة والأمانة ، جعله محبباً الى القلوب عند الجميع .

ومع ذلك فان أهله الذين تبنوه – ونعني بهم العصابة التي دفعته في الاصل الى الاجرام – كانوا آخر من علم بأخبار مغامراته . وعندما اتصلت بهم انباؤها انتابتهم الغيرة حتى الهوس .

وفي ذات ليلة ، راحوا يمرون الواحد تلو الآخر امام سرير الرجل الضاحك وهم يعتقدون انهم قد اسلموه الى نوم عميق ، بعد ان أعطوه مخدراً ، وانهالوا على الجسد المرتسم تحت الملاءة بضربات القدوم ، واتضح فيما بعد بأن الضحية لم تكن سوى ام رئيس العصابة ، وهي امرأة شرسة ، سليطة اللسان ، لا تتوقف عن المشاكسات ، ولم ينتج عن ذلك الا زيادة نهم العصابة الى دم الرجل الضاحك .

ووجد الرجل الضاحك نفسه في النهاية مضطراً لسجن كل أفراد العصابة في مزار تحت الأرض ، ولكنه لا يخلو من جمال في الزخرفة .

كانوا يهربون خلسة من حين لآخر ، فيحنق عليهم ، ولكنه كان يأبى قتلهم .
وكان هذا الجانب الرحيم من طباع الرجل الضاحك يتركني مذهولاً .

وما هي الا فترة حتى اعتاد الرجل الضاحك على اجتياز الحدود الصينية ، والعبور بانتظام الى باريس في فرنسا .

وهناك ، كان يتلهى بأن يضع عبقريته الهائلة بكل تواضع وجهاً لوجه أمام مارسيل دوفارج ، رجل المخابرات الذائع الصيت .

كان دوفارج ، شعلة من الذكاء ، ولكنه كان مصاباً بمرض الصدر ، ولم يلبث ان أصبح هو وابنته أشد أعداء الرجل الضاحك ، ابنته الصبية ، الرائعة الجمال ، رغم ما تنطوي عليه من خبث .

كان الرجل وابنته ما يفتآن يحاولان من حين لآخر اجتذابه حتى باب الحديقة وكان الرجل الضاحك يرافقهما حتى منتصف الطريق بدافع من حب المخاطرة ، ثم يتوارى أغلب الأحيان دون ان يترك اي تفسير معقول عن الطريقة التي كان يختفي بها.

ومن حين لآخر كان أيضاً يرسل بطاقة وداع لاذعة بواسطة فتحات الكهاريز في باريس . وكانت سرعان ما تصل الى دوفارج . واذ ذاك يقضي رجل المخابرات وابنته وقتاً طويلا وهما يتخبطان في كل مكان تقريباً داخل كهاريز باريس .

ولم يلبث الرجل الضاحك ان جمع اضخم ثروة عرفها شخص في العالم ، كان يقدم الجانب الأعظم منها تحت اسم معونات مغفلة لرهبــان دير محلي.. نساك زاهدين ، كرسوا حياتهم لتربية كلاب بوليسية ألمانية .

وكان بما يتبقى لديه من ثروته يشتري احجاراً كريمة يخفيها أثنـــاء طريقه في مغارات من الزبرجد تحت البحر الأسود .

كانت حاجاته الخاصة قليلة جداً ، فكان يعيش بصورة دائمة على الارز ، ودم النمر ، في كوخ صغير على الجانب المعرض للرياح في أعــالي التيبت . ولم يكن كوخه اكثر من حجرة ألعاب تحت الأرض وحجرة للأسلحة .

وكان يشاطره العيش اتباع أربعة شديدو الاخلاص له :

ذئب من ذئاب الغابات ثرثار ، محتال ، يحمل اسم « الجناح الاسود » .

وقزم محبوب جداً اسمه أومبا .

وعملاق منغولي اسمه هونغ ، أحرق البيض لسانه ..

وفتاة خلاسية « اوربية - آسيوية » رائعة الجمال ، كانت لحبهـا الشديد غير

المتبادل لسوء الحظ للرجل الضاحك ، ولحرصها الشديد على سلامتها الخاصة ، تجد في نفسها ميلاً الى الجريمة في بعض الاحيان .

كان الرجل الضاحك يصدر أوامره الى العصابة من وراء ستارة من الحرير الأسود . ولم يكن لأحد حتى لأومبا المحبوب الحق في رؤية وجهه .

لن أفعل ذلك بكل تأكيد ، ولكني قادر على التطواف بالقارىء ساعات — وبالقوة اذا لزم الأمر — حول الحدود الصينية الباريسية من جميع الجهات .

ومرد ذلك الى اني اري في الرجل الضاحك أحد اجدادي الأمجاد . . أرى فيه نوعاً من روبرت ، اي ، لي ، مع كل الفضائل التي تتصل بالسحر . وهذه الاوهام متزنة جداً اذا ما قورنت بتلك التي كنت أغذيها عام ١٩٢٨ ، عندما كنت اتخيل نفسي ليس الخلف المباشر للرجل الضاحك فحسب ، بل الحفيد الوحيد الشرعي له الذي لا يزال على قيد الحياة .

لقد بلغ ذلك مني أني لم اكن اتصور نفسي ابناً لوالدي في عام ١٩٢٨ ، ولكن على العكس، كنت أرى نفسي محتالاً شيطانياً مرائياً، يرتقب أصغر أخطاء أبويه ليكون له العذر في ان يؤكد هريته الحقيقية — والأفضل ان يتم ذلك دون اللجوء الى العنف ما لم تقض الضرورة بالعنف — .

ولئلا أجرح قلب والدتي المزيفة كنت اخطط لاشراكها في نشاطي السري وأجهد ما وسعني الجهد لأجد لها المهمة الملكية التي كانت جديرة بها وان لم اكن قد حددتها بعد . ولكن العمل الرئيسي الذي كان علي أن اقوم به على الأخص في عام ١٩٣٨ هو أن اراقب تصرفاتي ، متظاهراً باللعب ، متشاغلا بتسويك اسناني وتمشيط شعري ، واخفاء دمامتي الطبيعية الراعبة بأي ثمن .

وفي الواقع لم اكن انا وحدي الخلف الشرعي الوحيد الذي لا يزال على قيد الحياة للرجل الضاحك ، بل كنا خمسة وعشرين شبلا من أشبال النادي . ولأقل ذلك بشكل آخر : خمسة وعشرون خلفاً شرعياً احياء ، يجوبون المدينة ، مجهولي

الهوية ، يرتسم على وجوههم التهديد والتحدي .

كنا نحدج بأعيننا عمال المصاعد كأعداء خطرين ونهمس بأطراف شفاهنا صابين الاوامر الشديدة في آذان الطباخين، ونشير بابهامنا الى جبين معلمي الحساب ... نقوم بكل هذا ، ونحن بانتظار اللحظة المناسبة لنلقي الرعب والاعجاب في قلوب الناس اجمعين .

وفي ذات يوم – بعد الظهر – من شهر نيسان بينما كان موسم البيسبول عند الأشبال في اوائله لاحظت شيئاً جديداً معلقاً في اوتوبوس القائد .

كان ذلك الشيء صورة ذات جوانب مسننة ، مثبتة فوق مرآة السيارة .

كانت تمثل فتاة في لباس جامعي .

وبدا لي ان وجود صورة فتاة يتنافى كل التنافي مع مظهر الاوتوبوس المفرط في الذكورة .

وبادرت القائد بالسؤال عمن تكون ؟ فتملص بادىء الأمر من الجواب ، ثم اعترف اخيراً بأنها صورة فتاة .

سألته عن اسمها فأجاب بدون ارتياح : « ماري هدسون » .

ثم سألته من جديد : هل هي نجمة سينمائية ؟ او شيء من هذا القبيل ؟ فرد : لا . ليست كذلك ! انما هي طالبة في كلية ويلسلي . واضاف بعد تفكير عميق بان كلية ويلسلي هذه مؤسسة راقية جداً .

ثم سألته : لماذا يضع صورتها على كل حال في الاوتوبوس ؟

فهز كتفيه كما لو انه يحاول ان يفهمني بأن الصورة شبه مفروضة عليه .

وخلال الاسبوعين التاليين ظلت الصورة محتلة مكانها في الاوتوبوس، سواء اكانت مفروضة ام لا ! ولم تختف مع أوراق التغليف .

« بيبي روث » ، وعيدان المصاصات .. وانتهى بنا الأمر نحن الأشبال ، الى الاعتياد عليها ، ولم تعد تثير فينا من الاهتمام اكثر مما تثيره دائرة عقرب السرعة .

وبينما كنا في طريقنا الى الحديقة العامة ذات يوم ، فوجئنا بالقائـــد يوقف الاوتوبوس الى جانب رصيف في الشارع رقم ٥ ، في الجهة القريبـــة من الطريق رقم ٦٠ ، على بعد كيلو متر واحد من ملعب البيسبول الذي اعتدنا ان نلعب فيه .

واندفع عشرون من الاشبال ، اشبال المقاعد الخلفية ، بصوت واحد يطلبون تفسيراً للحادث . ولكن القائد لم يكترث بهم ، وبدلاً من ان يقدم التفسير المطلوب أخذ بكل بساطة وضعه المألوف عندما يقص حكاية ، فدلى ساقيه على طرفي المقعد ، وانطلق في فصل جديد من « الرجل الضاحك » قبـل ساعتين على الموعد المحدد له .

ولم يكد يبدأ حتى دق شخص ما على زجاج الباب . كانت أعصاب القائـد متوترة في ذلك اليوم بصورة خاصة ، فوثب من مقعده وثباً وراح يعالج الباب . وماهي الا لحظة حتى تسلقت السيارة فتاة ترتدي معطفاً من الكاستور .

لست اذكر ،اذا ما عدت الى ذكرياتي بشكل عام ، اني مارأيت في حياتي غير ثلاث فتيات لفتن انتباهي منذ الوهلة الأولى بجمال منقطع النظير .

كانت الاولى فتاة نحيفة ترتدي لباس بحر اسود تحاول بجهد ظاهر أن تغرس مظلة برتقالية اللون في رمال شاطىء جونس حوالي عام ١٩٣٦ .

وكانت الثانية فتاة تقوم بجولة في البحر الكاريبي على ظهر سفينة خاصـــة ، وقد رأيتها تلقي بقداحتها الى خنزير بحر .

أما الثالثة فكانت ماري هدسون صديقة القائد .

سألت الفتاة قائدنا وهي تبتسم :

— هل تأخرت كثيراً ؟

قالتها بنفس اللهجة التي تستطيع ان تقول بها : أتراني قبيحة المنظر ؟

أجاب القائد :

ـ لا ، أبداً .

وبشيء من العصبية نظر الى الأشبال الجالسين قربه ، وأشار الى الصف الأول بافساح مكان لجلوسها .

وجلست ماري هدسون بيني وبين صبي اسمه إدكار ... لا أذكر بقية اسمه... كان عمه صديقاً حميماً لأحد مهربي الخمور .وأفسحنا لها كل ما نستطيع من المكان. وانطلق القائد يسوق السيارة ، وهو يرجها رجاً كسائق مبتدىء ، ولم يكن من الأشبال الا أن صمتوا من الصف الاول حتى المقاعد الخلفية .

وفيما كنا نعود الى المكان الذي اعتدنا أن نوقف سيارتنا فيه ، انحنت ماري هدسون في مقعدها الى الأمام ، وراحت تعرض على القائد، بحماسة ، قائمة القطارات التي لم تستطع اللحاق بها ، والقطار الذي استطاعت ركوبه .

كانت تقطن دوغلاستون في لونغ آيلاند .

كان القائد بادي العصبية ، ولم يستطع ان يفتح فمه بكلمة . وكان لا يكاد يسمع ما تقوله . كان ـ كما اذكر ـ مرتبكاً لا يكاد يضبط درجات السرعة .

ولحقت بنا ماري هدسون عند النزول ، وكنت على ثقة طوال الطريق الموصل الى ملعب البيسبول بأن تعبيراً معيناً كان يرتسم على وجوه كل الأشبال ، تعبير من يريد أن يقول ، ألا تدرك هذه الفتاة بأن عليها أن تعود الى منزلها !

وأخيراً ، بينما كنت اقذف قطعة النقود على أحد وجهيها لتحديد الفريق الذي سيبدأ الهجوم ، توجت ماري هدسون الموقف بأن صرحت بأنها تود ان تلعب معنا .

لم يكن هناك جواب أشد إفحاماً من سكوتنا جميعاً .

لقد كنا في دهشة لمجرد رؤية فتاة بيننا ، ولكننا بدأنا الآن ننظر اليها شزراً .

وكأنها ادركت ما يدور في اذهاننا فلم تلبث ان فاجأتنا بابتسامة زعزعت موقفنا ، وأربكتنا .

وتدخل القائد آنذاك ، كأنما يريد أن يفهمنا بأنه اذا كان قد صمت حتى الآن فانه يعرف كيف يوقف كل فرد منا عند حدوده . فانتحى بماري هدسون جانباً وابتعد بها بحيث لا نستطيع سماع ما يقولان . وبدا عليه أنه يريد ان يقنعها بهدوء بالعدول عن رغبتها .

وفي النهاية قاطعته ماري هدسون ، ووصل الينا صوتها وهي تردد :

— ولكنني أريد انا ايضاً أن ألعب !

وهز القائد رأسه ، وقـام بمحاولة جديدة . وأشار باصبعه الى ناحية الملعب الذي كان غارقاً في الوحل ، مملؤاً بالحفر ، ثم التقط مضرباً ، وراح يبين لها مدى ثقله بالنسبة اليها .

قالت ماري هدسون بنبرة واضحة :

— لا يهمني ذلك . لقد قطعت الطريق حتى نيويورك لمراجعة طبيب الأسنان، وأجهدت نفسي .. اريد أن ألعب .

وهز القائد رأسه من جديد ، وانحنى صاغراً ، وعاد بخطى بطيئة الى نقطة الانطلاق ، حيث وقف الابطال والمحاربون ، فريقا الاشبال ، ينتظران .

ونظر اليّ . كنت رئيساً لفرقة المحاربين ، ولفظ اسم لاعب القلب فيفرقتي . كان هذا اللاعب قد تخلف في المنزل لمرضه ، وسرعان ما اقترح أن تأخذ ماري هدسون مكانه . فأجبت بأني في غير ما حاجة الى لاعب قلب . فانتهرني القائد :

— يا للشيطان ! من اين أتيت بهذه الفكرة اللعينة ؟ وكيف تجرؤ أن تعلن أنك لست بحاجة الى لاعب قلب ؟

لقد صُدِمت ..

كانت المرة الأولى التي أسمع فيهـا القائد يلعن ويشتم ، والأنكى من ذلك أني كنت أحس أن مـــاري هدسون تبتسم وهي تنظر الي . فالتقطت قطعة حجر غاضباً وقذفت بها على احدى الاشجار .

وبدأ الفريق الآخر الهجوم . وفي اول جولة للعب لم يكن أي عمل في قلب الدفاع . وكنت من مكاني في الموقع الامامي القي من حين الى آخر بنظـــرة الى الوراء . وفي كل مرة كانت ماري هدسون تجيبني بحركة مرحة من يدها . كانت تلبس قفازاً ضخماً اختارته حسب مزاجها . كان منظره كريهاً .

كانت لماري هدسون في مخطط لعب « المحاربين » جولة اللعب التاسعة . وعندما ذكرت لها ذلك مطت شفتيها ، وقالت : « حسناً ، اذاً اسرعوا ! »

والغريب أننا أسرعنا فعلاً ، فجاء دورها في اللعب في الجولة الأولى وعنـــد ذلك خلعت معطفها الكاستور ، وقفازها الضخم ، واحتلت مكانهـــا في ثوب غامق . وعندما قدمت لهـــا المضرب سألتني عن سبب كونه ثقيلاً الى هذا الحد . فما كان من القائد الا ان ترك مكان الحكم الذي يشغله وراء الرامي ، واقـترب منا وعليه سيماء القلق ، ونصح ماري هدسون بأن تجعل طرف المضرب يرتكز على كتفها اليمنى . قالت :

ـ هذا ما اقوم به .

ثم نصح اليها بأن لا تشد كثيراً على المضرب .

قالت :

ـ إني لا أضغط عليه . افسح لي الطريق .

وضربت الهواء بقوة عندما قذفت لها أول كرة ، واعادتها من فـــوق رأس لاعب اليسار . كانت ضربة معلم ؛ ضربة يمكن ان تصل بصورة عادية حتى الموقع الثاني . ولكن ماري هدسون اوصلتها الى الموقع الثالث وهي واقفة .

وعندما أفقت من ذهولي ، ثم من إعجابي ثم من فرحـــي ، رحت أنظر الى القائد . لم تعد تبدو عليه هيئة الرجل الزائغ بنظراته وراء الرامي . كان سعيداً كل السعادة . وأومأت ماري هدسون لي من الموقع الثالث . بحركة من يدها ، فأجبتها بالطبـع . لم اكن أستطيـع الامتناع عن جوابها ، حتى لو كانت بي رغبة

لذلك ، فقد كانت بالاضافة الى ضربة المضرب الرائعة فتاة تجيد الايماء بيدهـــا للآخرين من الموقع الثالث .

وطوال بقية اللعب كانت تبلغ الهدف في كل مرة ترفع فيها المضرب. ولسبب او لآخر كان يبدو عليها أنها تكره الموقع الأول . ولم يكن هناك من طريقـــة لاقناعها بالوقوف عنده . لقد انسلت ثلاث مرات على الاقل الى الموقع الثاني .

ولم يكن لعبها باتجاه العمق في مستوى اقل من سابقه . ولكن الجولات كانت تتراكم عندما كان يأتي دورنا في تسديد الضربات . لذلك لم نكن نستطيع تركيز انتباهنا . أعتقد بأنه كان من الأجدى لهـــا أن توافق على ملاحقة الكرات بأي شيء مـــا عدا قفاز البيسبول . ولكنها كانت تتمسك به . كانت تقول إنـــه لطيف جداً .

وفي الاشهر التالية لعبت ماري هدسون البيسبول مع الأشبال مرتين كل اسبوع (في الأيام التي كانت فيها على موعد مع طبيب الاسنان على ما يبدو) .

كانت في بعض الأيام تأتي لتستقل الاوتوبوس في الموعد المحدد ؛ وفي بعضها كانت تصل متأخرة . كانت أحياناً تتكلم دون توقف طوال الطريق ، وأحيانـاً اخرى تجلس صامتة تدخن سجائرها الـ « هربرت تاريتون » (ذات العقب المرشحة) كانت رائحتها لذيذة عندما يجلس المرء الى جانبها .

وذات مساء من أماسي شهر نيسان العاصفة ، مر علينا القائد كالمعتاد في الساعة الثالثة عند ملتقى الطريق رقم ١٠٩ بشارع امستردام . وعندما انعطف في الطريق رقم ١١٠ اتجه بصورة طبيعية نحو الشارع رقم ٥ . كان القائـــد قد بلل شعره ليمشطه . وقد ارتدى معطفه بدلاً من السترة الجلدية . وكان بوسعي أن أراهن دونما مجازفة بأن ماري هدسون ستلتحق بنا . وعندما مررنا بسرعة خاطفة أمام مدخل الحديقة التي نسير فيها دوماً تأكدت من ذلك تمام التأكد . فقـد أوقف القائد سيارته في الزاوية المختارة لمثل تلك المناسبة بجانب الطريـــق رقم ٦٠ ، واتخذ جلسته المألوفة على طرفي المقعد . وشرع في فصل جديد من « الرجـــل

الضاحك » لتزجية الوقت .

إنني ما ازال اتذكره بكل تفاصيله ، ذلك الفصل ؛ وسأقصه عليكم بايجاز.

شاءت مصادفة مؤسفة أن توقع أعز أصدقاء الرجل الضاحك ، ذئبه « الجناح الاسود » في فخ مادي ومعنوي نصبه له آل دوفارج :

ونظراً لمعرفة آل دوفارج بشعور الرجل الضاحك بالواجب ، فقد اقترحا عليه المقايضة على حرية الجناح الأسود بحريته. وسرعان ما وافق الرجل الضاحك على الاقتراح عن طيبة خاطر. (كان يصيب بعض نواحي تفكيره الثانوية أحياناً شيء من الخور) ؛ وتم ألاتفاق بين الطرفين على أن يقابل الرجل الضاحك آل دوفارج في منتصف الليل ، في مكان ما من الغابة الكثيفة، التي تحيط بباريس.

وهناك في ضوء القمر يطلق سراح الجناح الأسود .

ولكن آ ل دوفارج لم يكونا ينتويان إطلاق سراح الجناح الاسود مطلقاً . فقد كانا يخشيان منه ، ويكرهانه كرهاً شديداً .

وفي الليلة الموعودة ربطا بدلاً منه ذئباً آخر مزيفاً ، صبغا له قدمه الخلفية اليسرى باللون الأبيض ليصبح الشبه تاماً بينه وبين الجناح الأسود .

لقد فات آ ل دوفارج نقطتان لم يعيراهما انتباههما وهما :

دقة حساسية الرجل الضاحك ومعرفته التامة بلغة الذئاب .

وما أن اسلم نفسه لآ ل دوفارج لتربطه الفتاة بسلك شائك من الحديد الى جذع شجرة حتى فاق الرجل الضاحك الى توجيه بضع كلمات يودع بها ذلك الذي كان يفترضه صديقه العتيق . وتوجه اليه بصوته الأغن الجميل . ودهش الصديق المزيف الواقف على قيد عدة أمتار منه لمعرفة الرجل الغريب التامة بلغته . وأصغى بأدب فترة غير قصيرة للنصائح الأخيرة ، النصائح الشخصية والمهنية التي كان يوجهها اليه الرجل الضاحك .

ولكن صبره في النهاية بدأ ينفد . وراح يهتز متثاقلاً على قدميه . وفجأة ،

وبلهجة غير مهذبة قاطع الرجل الضاحك قائلاً له بأن اسمه قبل كل شيء ليس الجناح القاتم ، او الجناح الاسود ، او الاطراف الرمادية ، او أي شيء من هذا الكلام الفارغ . انه يدعى « آرمان » ؛ وانه من ناحية ثانية لم تطأ قدماه أرض الصين طوال حياته ، وليست به أية رغبة للذهاب اليها .

وهنا ثارت ثائرة الرجل الضاحك وأسقط قناعه بلسانه ، وكشف وجهه عارياً أمـــام آل دوفارج تحت ضوء القمر ، فسقطت الانسة دوفارج من جراء الصدمة على الأرض دون وعي . أما والدها فقد كان على قسط اكبر من الحظ .

لقد انتابته بغتة ، وفي اللحظة الحاسمة ، نوبة من نوبات السعال القوية ، ولم ير بسبب ذلك عملية كشف القناع المميتة .

وعندما انتهت نوبة سعاله نظر الى ابنته فاذا هي طريحة على الأرض في ضوء القمر . فغلا دمه ، ثم غطى وجهه باحدى يديه ، واطلق عيارات مسدسه الالي دفعة واحدة باتجاه التنفس المصحوب بالصفير الذي كان يصعده الرجل الضاحك .

وانتهى الفصل هنا ...

واخرج القائد ساعته الـ « أنجرسول » التي لا يزيد ثمنها عن الدولار من جيبه ، والقى عليها نظرة خاطفة ، واستدار على مقعده ، وادار المحرك .

نظرت بدوري الى ساعتي . كانت الساعة فيها تقارب الرابعـــة والنصف ، وبينما كان الاوتوبوس يتحرك للسير سألت القائد عما اذا كان ينتظر ماري هدسون . فلم يحر جواباً . وقبل أن أتمكن من اعادة سؤالي ، رمى برأسه الى الوراء ، والقى الينا بالكلمة التالية :

– شيء من الصمت ، هناك في الداخل ، بحق الشيطان !

وأياً كانت العبارة التي قيلت بها .. فان هذه التوصية كانت في غير محلها ، لأن الصمت كان يخيم في السيارة منذ فترة لا بأس بها .

كان اكثرنا يفكر في الحالة التي تركنا فيها الرجل الضاحك .

لقد انقضى الزمن الذي كنا نخشى فيه على مصير كائن مثله كانت ثقتنا به

تفوق الحدود . ولكننا لم نكن قد بلغنا بعد الدرجة التي نستطيع أن نتقبل فيها دون انفعال أزماته التي يتعرض فيها لخطر من هذا النوع .

في الجولة الثالثة ، او الرابعة ، للعب ، في نفس ذلك اليوم أبصرت فجأة ماري هدسون من مركزي في الموقع الأول .

كانت جالسة على مقعد لا يبعد اكثر من مائة متر الى جهة اليسار بالنسبة الي .

كانت تجلس بين مربيتين تصطحبان عربتين للاطفال . كانت ترتدي المعطف الكاستور وتدخن سيجارة وكان يبدو عليها أنها تتابع اللعب فصرخت من مكاني لأزف الخبر للقائد وانا شديد ألانفعال بهذا الاكتشاف .

كان القائد يقف خلف الرامي ، وسرعان ما اتجه الي بخطى واسعة ولكن بدون أن يركض .

وسألني :

ـ أين ؟

أشرت للمكان . فأبقى عينيه مثبتتين عليها . ثم قال بأنه سيعود . وترك الملعب . سار اليها بخطى بطيئة . كان معطفه مفتوحاً ، ويداه غارقتين في جيوب بنطاله الخلفية . وجلست في الموقع الأول ، ورحت اراقبهما

وقبل أن يصل القائد الى ماري هدسون زرر معطفه ، وتقدم وذراعاه متدليتان الى جنبيه .

مكث واقفاً أمامها زهاء خمس دقائق . كان يبدو عليه أنه يتحدث اليها . ثم نهضت ماري هدسون واقبلا معاً نحو ملعب البيسبول . لم يكونا يتبادلان الحديث اثناء السير . ولم يكن احدهما ينظر الى الآخر . وعندما وصلا الى الملعب اتخذ القائد مكانه وراء الرامي ، فصحت به :

ـ هل تلعب ؟

أشار الي بأن أسدّ فمي ، فسددته ، ونظرت الى ماري هدسون ،

كانت تمر ببطء وراء اللاعبين ، ويداها في جيوب معطفها الكاستور . ثم جلست على مقعد أعد لاستراحة اللاعبين وراء الموقع الثالث ، واشعلت سيجارة جديدة ، ووضعت ساقاً على الآخرى .

وعندما حان دور هجوم فريق «المحاربين» رحت اليها عند مقعدها ، وسألتها عما اذا كانت تود أن تلعب مع الفريق في الجناح الأيسر . فهزت رأسها بالرفض؛ فسألتها عما اذا كانت مصابة بالبرد ، فهزت رأسها ايضاً بالرفض . ورددت على مسمعها بأن لاعب الجناح الأيسر غائب ، وأن لاعباً واحداً يقـوم بدور القلب والجناح الأيسرمعاً . فلم اتلق جواباً .

وعندئذ قذفت بقفازي في الهواء وحاولت استقباله برأسي ، ولكنه سقط في بركة من الوحل ، فمسحته على بنطالي ، وطلبت من مـــاري هدسون أن توافينا للعشاء ذات يوم في منزلنا ، وقلت لها بأن القائد غالباً ما يزورنا فقالت :

– دعني وشأني ، أرجوك ، دعني وشأني .

نظرت اليها في دهشة من أمري. ثم اتجهت نحو مقعد «المحاربين» وانا أخرج قطعة ماندارين من جيبي ، ورحت أتلهى بقذفها بيدي .

وفي منتصف الطريق على طول خط التوقف للموقع الثالث ، التفت ومشيت القهقرى وعيناى مثبتتان على ماري هدسون ، والماندرينة في يدي ، لم تكن لدي أية فكرة عما يحدث بين القائد ، وبين ماري هدسون (ولا اعلم ذلك الآن بالطبع او على الاقل لا اعرف عنه الا فكرة غامضة)

ولكني في حينها أيقنت بأن ماري هدسون قد تركت جماعـــة الأشبال الى غير عودة .

وهذا الضرب من اليقين يمكن أن يجعل من السير الى الوراء أمراً غير مضمون، دون أي اعتبار آخر ، فقد سقطت بجلبة كبيرة على عربة من عربات الأطفال .

وعندما جاءت جولة اللعب الثانية كان الظلام يحول دون متابعـــة اللعب ،

فتوقفنا ورحنا نجمع الأدوات . وكانت آخر صورة أحفظها لماري هدسون هي صورة فتاة تبكي قريباً من الوقع الثالث .

أمسك بها القائد من ذراع معطفها الكاستور، ولكنها ابتعدت عنه، وخرجت من الملعب وهي تجري ، وسارت في الممر المزفت ، وواصلت جريها حتى غابت عن ناظري .

لم يلحق القائد بها . بل اكتفى بالبقاء واقفاً ينظر اليها ، وهي تتوارى . ثم انفتل عائداً الى الملعب ليحمل مضربَيْنا .

كنا نترك المضربين له يحملها دائماً . لحقت به وسألته عما اذا كان قد تشاجر مع ماري هدسون ، فزجرني طالباً مني ان لا أدس أنفي فيما لا يعنيني .

رحنا نحن الأشبال كالمعتاد نقطع الأمتار الخمسين الأخيرة التي تفصلنا عـن المكان الذي ترك فيه الاوتوبوس ، وبطوننا تكاد تلامس الأرض من شدة الجري، نصيح ونتدافع ويُسقط بعضنا الآخر بادخال ساقه بين سيقان رفاقه الراكضين . كنا متشوقين ، منفعلين لفكرة دنو الموعد ، موعد اتمام قصة الرجل الضاحك .

وبينما نحن نجتاز الشارع رقم ٥ ترك أحدهم سترة الصوف تسقط على الأرض فتعثرت بها وسقطت على وجهي . ثم جريت بأقصى ما استطيع نحو الاوتوبوس . ولكن المقاعد الممتازة كانت قد احتلت ، واضطررت للجلوس في المقاعد الوسطى .

لم اكن منشرحاً للنتيجة التي حصلت عليها فدفعت بمنكبي زميلاً جالساً الى يميني ، والقيت نظرة حولي ، ثم تبعت القائد ببصري . كان القائد يجتاز الشارع رقم ٥ ، لم تكن الساعة قد بلغت الثامنة . ولكن رداءة الجـو جعلت الظلام يهبط منذ الخامسة والربع .

كان القائد يجتاز الشارع ، وياقة معطفه مرفوعة ، الى الأعلى حول رقبته ، والمضربان تحت ذراعه اليسرى ، وانتباهه مثبت على الشارع . كان شعره الأسود

الذي بلله قبل عدة ساعات لبمشطه قد جف تماماً الآن ، وتشمث . تذكرت أني تمنيت حينئذ ان يكون القائد لابساً قفازاً .

كان الاوتوبوس غارقاً في الصمت كالمعتاد حين تسلق اليه القائد ، او كان على الاقل هادئاً كما يكون المسرح حين تطفأ الانوار . وماتت الاحاديث في همس مقتضب ، او توقفت نهائياً . ومع ذلك فان أول ما ابتدرنا به القائد كان قوله :

ـ هيا ، كفوا عن الضجيج في الداخل . وإلا فلا قصة اليوم !

وانقلب الجميع على الفور الى تماثيل جامدة داخل السيارة . ولم يبق أمام القائد الا أن يتخذ وضع القاص . وما ان استقر في مكانه المعتاد حتى أخرج منديلاً وتمخط بشكل نظامي ، المنخر بعد الاخر ، وكنا نتابع حركاته بصبر نافد ، واهتمام بالغ . وعندما انتهى من ذلك ، طوى منديله بعناية اربع طيات ، وأعاده الى جيبه . وأخيراً منحنا الفصل الاخير من « الرجل الضاحك » . ذلك الفصل الذي لم يستغرق حتى نهايته اكثر من خمس دقائق .

***

أصابت أربع من رصاصات دوفارج الرجل الضاحك : اثنتان منها أصابتا القلب مباشرة . وعندما سمع دوفارج الذى كان ما يزال يغطي وجهه لئلا تقع عينه على تلك الصورة المنكرة ، عندما سمع حشرجة نَزْع مفجع تعلو في المكان الذي صوب اليه أحس بالسعادة تفجره ، وراح قلبه الدنيء يضرب بوحشية ، فهرع نحو ابنته المغمى عليها ينعشها ، وتجرأ حينئذ على النظر الى الرجل الضاحك بسرور السفلة وجرأة الجبناء .

كان رأس الضحية يتدلى كرأس الميت ، وذقنه تمس صدره الذي ينزف دماً.
واقترب الأب والابنة ببطء مشوب بالجشع ليتأملا جريمتهما . ولم يـــدر في خلدهما أن مفاجأة كبرى تنتظرهما هناك .

لم يكن الرجل الضاحك ميتاً ، بل كان يركز قواه ليجعل عضلات معدتـــه

تتقلص حسب طريقة سرية . وما أن وصل اليه آل دوفـارج حتى رفع فجأة رأسه ، وصبّ في أسماعهما قهقهة مخيفة ، وبدون جهد ؛ وبوضع لا مبال ، تقيأ الرصاصات الأربع التي أصابته واحدة واحدة ..

لقد صدم آل دوفارج صدمة جعلت قلبيهما ينفجران من هولها ، وسقطا ميتين تحت قدمي الرجل الضاحك .

(وما دام الفصل سيكون قصيراً على كل حال ، فقد كان من الممكن إنهـاؤه هنا . وكان بامكان الأشبال أن يدبروا أمرهم ليجدوا تفسيراً معقولا للميتة الفجائية التي اودت بآل دوفارج .

ولكن القائد لم ينهه هنا .)

مكث الرجل الضاحك أياماً طويـلة مربوطاً الى الشجرة بسلك شائك من الحديد . وتحللت جثتا آل دوفارج أمام عينيه . ولكنه كان على حافة الهلاك بسبب النزف الغزير ، وانقطاع مؤونته من دم النسر .

وفي ذات يوم استغاث بحيوانات الغابة بصوت ضعيف مؤثر ، وأمرها أن تذهب للبحث عن اومبا ، القـزَم المحبوب ، فصدعت بالأمر . ولكن الطريـق كان شاسعاً جداً للذهاب الى الحدود الصينية الباريسية والعودة منهـا ، وعندما وصل اومبا الى المكان مع جعبة ادويته ، ومؤونته من دم النسر كان الرجـل الضاحك قد راح في غيبوبة .

كان أول ما قام به أومبا هو أن التقط قناع سيده الذي قذفت به الريح على صدر الانسة دوفارج ، الصدر الذي نخرته الديدان .ووضعه باحترام على القسمات القبيحة ، ثم ضمد الجراح .

وعندما تفتحت عينا الرجل الضاحك الصغيرتان أخيرا ، رفـع اومبا بسرعة زجاجة دم النسر حتى القناع . ولكن الرجل الضاحك امتنع عن الشراب . وبدلا من ذلك لفظ بصوت ضعيف اسم حبيبه « الجناح الأسود » ، فحنا اومبا رأسه

المشوه قليلا واخبر سيده بأن آل دوفارج قد قتلاه .

كان ذلك قمة الأحزان بالنسبة للرجل الضاحك ، فاذا هو يرسل زفرة تفتت القلوب . وبحزن شديد تناول زجاجة دم النسر وسحقها بيده ؛ وسال الدم القليل الباقي في خيط رفيع على معصمه ، وأمر أومبا بأن يدير عينيه ، فانصاع للامر وهو يبكي .

وكانت آخر حركة قام بها الرجل الضاحك قبل ان يدير وجهه نحو الارض المبللة بالدماء أن نزع قناعه .

توقفت القصة هنا ...

ولم يعد اليها القائد فيما بعد قط .

وحرك قائدنا اوتوبوسه ...

وفي الصف الذي اجلس فيه كان « بيلي والش » أصغر الأشبال قد انخرط في النحيب .

لم يطلب احد منا اليه أن يكف عن البكاء . أما انا فأذكر أن ركبتي كانتا تصطكان .

وبعد لحظات .. عندما كنت انزل من اوتوبوس القائد كان اول مـــا وقعت عليـــه عيناي قطعة من ورق الحرير الأحمر كانت الريح تقذفها على قاعدة عمود أحد المصابيح .

كان يخيل للمرء أنها القناع المصنوع من تويج شقائق النعمان .

وبلغت المنزل ، واسناني تصطك .. دون أن استطيع تمالك نفسي ، ونقلت فورا الى السرير .

تحت ... في المركب

٥

كان ذلك بعد الساعة الرابعة بقليل، من احدى أمسيات صيف «سان‌مارتان».
وفي المطبخ كانت الخادم « ساندرا » تعود المرة العشرين من النافذة التي تطل على البحيرة وهي تزم شفتيها .

كانت ، في أثناء التفاتها ، تحل وتعقد من جديد ، بحركة آلية زنار صدارتها ، وهي تشده بمقدار ما يسمح لها خصرها الضخم . وأخيراً ارتدت الى المنضدة التي غطي سطحها بطبقة عازلة ، وتهاوت على الكرسي ، بلباسها المنشى حديثاً قبالة السيدة « سنيل » .

كانت السيدة سنيل قد فرغت من شؤون التنظيف والكي ، وجلست كالمعتاد تتناول قدح الشاي قبل أن تنزل الى الطريق ، وتسعى حتى موقف الاوتوبوس .

وكانت السيدة سنيل تضع قبعتها على رأسها ، تلك القبعـــة الفريدة من اللباد الأسود التي لم تغادر رأسها طوال الصيف ؛ بل انها لم تتخل عنها طوال مواسم الصيف الثلاثة الماضية ، أثناء موجات الحر اللاهبة ، أيام السراء والضراء ، وهي محنية على اثني عشرية من مناضد الكي ، وعلى اثـــني عشرية أخرى من المـكانس الكهربائية ، وما تزال تلك القبعة تحمل في داخلها ماركة « هاتي كارنيجي » التي ربما كانت قد تغضت قليلاً ، ولكنها لا تخلو مع ذلك من أثر بليـغ في النفس .

وصرخت ساندرا المرة الخامسة والسادسة وهي تتوجه بالكلام الى السيدة سنيل والى نفسها في آن واحد .

ـــ لن احطم رأسي من أجل ذلك. هذا ما قررته. لن احطم رأسي من أجله، وما جدوى ذلك ؟

قالت السيدة سنيل :

– انك على صواب . لو كنت مكانك لما أعرت الموضوع أي اهتمام . أقسم لك بأعز ما لدي إني لم اكن لأهتم بالأمر . أتريدين أن تسدي الي هـذه الخدمة؟ ناوليني حقيبتي .

كانت الحقيبة الجلدية التي استعملت حتى الاهتراء والـتي ما تزال مع ذلك تحمل في داخلها ماركة ممتازة كماركة قبعتها ، موضوعة على خزانة الطعام بحيث تستطيع ساندرا التقاطها دون أن تنهض ، فقدمتها الى السيدة سنيل من فـوق المنضدة ، ففتحتها السيدة واخرجت علبة سجائر بالنعناع ، وعلبـة ثقاب من نادي ستورك .

أشعلت السيدة سنيل سيجارة ، ثم أدنت فنجان الشاي من شفتيها ، ثم اعادته فوراً الى طبقهوقالت:

– اذا لم يبرد بأسرع من ذلك ، فسأضيع اتوبوسي .

ونظرت الى ساندرا التي كانت تحدق في القدور النحاسية المصفوفة على الجدار بنظرات كئيبة ثم تابعت بلهجة آمرة :

– يكفيك إرهاقاً . وماذا يجديك أن تحطمي رأسك؟ إما أنيقول لهاكل شيء، وإما أن لا يقول لها شيئاً .. هذا هو الموضوع كله .. ماذا يجديك أن تحطمي أعصابك من أجل ذلك ؟

قالت ساندرا :

– لا ، إني لن أحطم رأسي .. وان آخر شيء أعمله هو أن احطم رأسي من أجل ذلك . ولكن ما يفقدني صوابي هو الطريقـة التي يجر نفسه بها في أرجاء البيت دون أن يسمع له صوت . هل تفهمينني ؟ هذا الولد لا يسمعه انسان حين يقترب . واليك مثلاً : منذ أيام كنت أعرّق القاصولياء ، هنا ، على هذه المنضدة بالذات . حسناً .. كنت أمشي على يده. لقد بوغتُ به فجأة تحت المنضدة .

ـ موافقة ، ولكن هل يكفي ذلك لكي تفقدي أعصابك .

قالت ساندرا :

ـ لا ، ولكن هل تفهميني ؟ يجب أن يتنبه المرء الى كل ما يقوله أمامه . إن ذلك يجعلني كالمخبولة .

قالت السيدة سنيل :

ـ ما يزال الشاي ساخناً ... مـــا أصعب أن يضطر الانسان للاحتراس عندما يتكلم .

ـ هذا ما يفقدني صوابي ! أقسم لـــك ، إني لا اكاد أملك صوابي اكثر الأحيان .

ونفضت ساندرا عن حجرها فتاتاً وهمياً وهمهمت :

ـ صبي في الرابعة !

قالت السيدة سنيل :

ـ إنه لطيف جداً . ما أجمل عينيه السوداوين الكبيرتين . فأجابت ساندرا بحنق :

ـ سترين إنه سيحمل انف والده .

ورفعت فنجانها ، وارتشفت منه رشفة دون صعوبة ، واكملت بلهجة مشوبة بعدم الرضا ، وهي تضع فنجانها ، في مكانه :

ـ إني لا ادرك لماذا يريدون البقاء هنا طوال شهر تشرين الاول. هل تفهميني؟ لم يعد أحد يدنو من الماء الآن ولو من بعيد ، انهـــا لم تعد تسبـــح ، وهو لم يعد يسبـــح ، والطفل نفسه لم يعد يسبح .. لم يعد أحـــد يسبـــح .. ولم يعودوا ينزلون البتة في ذلك الزورق القذر . لا ادري لمـــاذا يبددون دراهمهم في البقاء هنا .

ـ لا افهم كيف تستطيعين شرب شايك ، في حين أني لا استطيع لمسه .
وراحت ساندرا تتأمل الجدار قبالتها بحنق :
ـ واني لا أضن بكل ما أملك ، لأعود الى المدينة . لا أقول ذلك من باب الهذر . إني أمقت هـذا المكان القذر ، ونظرت الى السيدة سنيل نظرة حانقة واردفت :
ـ ان الأمر مختلف بالنسبة لك . انت تعيشين هنـا طوال السنة ، وتعرفين عدداً لا يستهان به من الناس . وكل شيء ... لست في مثل حالتي .
قالت السيدة سنيل ، وهي تنظر الى عقرب الساعة فوق الفرن الكهربائي .
ـ علي أن أبتلع هذا الشاي حتى ولو كان فيه هلاكي.
وسألتها ساندرا فجأة :
ـ ماذا كنت تفعلين لو كنت مكاني ؟ بربك ماذا كنت تفعلين ؟ أجيبيني بصراحة .
كان السؤال من النوع الذي تنزلق فيه السيدة سنيل بمنتهى السرور كما تنزلق في معطف من فرو السمور
لقد جعلها تنسى على الفور فنجان الشاي . قالت :
ـ حسناً ، لو كنت مكانك لما أعرت الأمر أدنى اهتمام ، أما ما أعمـله فسأقوله لك ، أفتش عن ...
فقاطعتها ساندرا :
ـ إني لا اهتم الأمر .
ـ أعرف ، أعرف .. ولكن ما أعمله أنا هو أن أبحث حالاً عن ...
وفتح باب غرفة الطعام ، ودخلت المطبخ ربة المنزل « بوبوتانبوم ».
كانت في الخامسة والعشرين من العمر ، قصيرة ، بردفـين هزيلين ، وشعر منكوش ، بلا شكل ولا لون ، ترده وراء أذنيهـا الكبيرتين . كانت ترتدي

بنطالاً كورسيكياً يصل حتى ركبتيها ، وقميصاً أسود بياقة ملفوفة ، وجوربين قصيرين ، وخفاً . فاذا نحيّت جانباً اسمها المضحك ، وانعدام مسحة الجمال في وجهها ، فانها لا تخلو من صفات اخرى لامعة ، تجعلها فتاة كاملة مدهشة ، واتجهت فوراً الى الثلاجة وفتحتها .

كانت تصفر بين أسنانها مع اهتزاز خفيف من ردفيها للايقاع ، وهي واقفة تنظر في داخل الثلاجة .. ساقاها منفرجتان ، ويداها على ركبتيها .

وصمتت ساندرا ، والسيدة سنيل ، واطفأت السيدة سنيل سيجارتها بدقة :

ــ ساندرا .

ــ نعم ، سيدتي ؟

ونظرت ساندرا حالاً من فوق قبعة السيدة سنيل :

ــ هل بقي عندنا مخلل خيار ؟ أريد أن أعطيه قطعة .

قالت ساندرا بلهجة ساخرة :

ــ لقد أكله . لقد أتى عليه مساء البارحة قبل النوم . لم يكن قد بقي منه الا قطعتان .

ــ اوه .. حسناً ! علي أن أشتري مزيداً منه في أثناء ذهابي الى المحطة . ربما أخرجه ذلك من المركب .

واغلقت بوبو الثلاجة ، وراحت تنظر من النافذة المطلة على البحيرة . ثم سألت وهي الى جوار النافذة :

ــ هل هنالك شيء آخر يمكن إعطاؤه اياه ؟

ــ هناك الخبز فقط .

ــ سيدة سنيل .. لقد تركتُ لك شيكاً على المنضدة في مدخل البيت . شكراً للعمل الذي قمت به .

قالت السيدة سنيل :

ـ لا داعي للشكر. يبدو أن ليونيل اراد الهرب؟وضحكت ضحكة خفيفة.

قالت بوبو وهي تدس كلتا يديها في جيوب بنطالها الخلفية .

ـ هذا ما يبدو لي .

قالت السيدة سنيل ، مع ضحكة خفيفة جديدة .

ـ لن يستطيع الذهاب بعيداً على كل حال .

وتحركت بوبو قليلا من جوار النافذة لئلا تدير ظهرها الى منضدة المرأتين .

ـ لا ..

واعادت خصلة من شعرها الى ما وراء أذنها ، واكملت بلهجة من يُسِرُّ بشيء :

ـ إنه ينأى بجانبه ليحيا حياته الخاصة بانتظام منذ بلوغه سن الثانية.. ولكنه لا يبتعد مطلقاً .

كان أبعد مكان ذهب اليه في المدينة ذاتها هو وسط « الحديقة المركزية » ، والحديقة لا تفصلها عن منزلنا سوى مجموعتين من منازل مجاورة ، واقرب مكان يذهب اليه هو مدخل بناية منزلنا . كان يقبع هناك في زاوية ليودع والده .

وضحكت السيدتان الجالستان حول المنضدة ، وشرحت ساندرا للسيدة سنيل بلهجة تحبب :

ـ ان وسط الحديقة هو المكان الذي يتجمع فيه كل الاولاد في نيويورك . انهم يتزلجون هناك .

اجابت السيدة سنيل :

ـ اوه !

قالت بوبو وهي تخرج علبة سجائر وثقاباً من أحد جيوبها:

ـ لم يكن قد تجاوز الثالثة ، كان ذلك في السنة الماضية .

واشعلت سيجارة، بينما كانت المرأتان تنظران اليها بعينين تطفحان بالاهتمام.

ـ كانت قصة فظيعة ، لقد اضطررنا أن نجند كل شرطة المدينة للبحث عنه .

قالت السيدة سنيل :

ـ وهل عثروا عليه ؟

قالت ساندرا بازدراء :

ـ لقد عثروا عليه بالطبع ، ماذا تظنين ؟

ـ لقد عثروا عليه بعد الحادية عشرة ليلا في وسط الـ ... يا إلهي ! في شهر شباط على ما اعتقد . لم يكن أي ولد في الحديقة . لم يكن هناك الا العشاق ، كما اتذكر وطائفة من المتشردين المنحلين. كان جالساً على الأرض ،في كشك الموسيقى يدحرج دحلا الى الأمام والى الوراء في احد الشقوق،وهو يكاد يتجمد من البرد، ينظر الى ...

قالت السيدة سنيل :

ـ يا إلهي ! ما الذي دهاه ؟ أعني لماذا ذهب على هذه الصورة ؟

ونفخت بوبو حلقة من الدخان وحيدة ، مجهضة ، على الزجاج :

ـ لقد قال له أحد الأطفال في ذلك اليوم يمازحه « إن رائحتك كريهة ، أيها الصغير . » ونعتقد بأن ذلك هو السبب على الأرجح. لا ادري علي وجه التوكيد. ان ذلك ليتجاوز ادراكي .

وسألت السيدة سنيل :

ـ وهل يقوم بذلك منذ فترة طويلة؟ أعني منذ متى بدأ يقوم بهذه التصرفات

قالت بوبو بلهجة مؤرخ :

ـ حسناً ، منذ أن بلغ الثانية والنصف . لقـــد راح يختبىء تحت مغسلة في الطابق الأرضي لمنزلنا .

في غرفة الغسيل . كان هناك بنت اسمها نوامي وهي صديقة عزيزة عليه قـــد

فاتحته بأن لديها دودة في زجاجة « الترموس » التي تحملها . هذا كل ما استطعنا فهمه منه على الاقل .

وتنهدت ، وتركت النافذة ، وقد تعلق بسيجارتها ذيـل طويل من الرماد ، واتجهت نحو باب الحديقة ، وبدلاً من كلمة الوداع قالت :

— يجب أن أعود اليه .

وضحكت السيدتان . وقالت ساندرا للسيدة سنيل :

— « ميلدرد » ! اذا لم تتحركي فسيفوتك الاوتوبوس .

واغلقت بوبو باب الحديقة وراءها ...

***

كانت تستند الى الحاجز الصغير الذي يحيط بالموج ، وهي تتلقى أشعة الشمس الأخيرة في ظهرها . وعلى بعد مئتي خطوة أمامها ، كان ابنها ليونيل جالساً على المقعد الخلفي لزورق والده . كان الزورق المربوط الى الشاطىء دون شراع ولا صاري يؤلف زاوية قائمة تماماً مع نهاية الجسر . كانت هناك حديدة تزلـّج مهملة او لعلها ضائعة ، تطفو على بعد بضع عشرات من الأمتار ، مقلوبة على قفاها لم يكن يبدو على البحيرة أي مركب للنزهة ، اللهم الا مركب المقاطعة الذي يلوح من بعيد وهو يقترب من مرسى « ليتش » ولم تتمكن بوبو من أن تلتقط صورة واضحة لليونيل . أما الشمس فلم تعد شديدة الحرارة ، ولكنها كانت شديدة الوهج تغرق كل ما كان يوجد على مسافة ما — صبياً كان او مركباً — كل ذلك كان يبدو غائماً متكسراً كما تبدو عصا ألقيت في الماء .

وما هي الا لحظات حتى أقلعت بوبو عن ذلك ، فزقت عقب سيجارتها بين أصابعها ، كما يفعل الجنود ، وانحدرت نحو الجسر .

كان ذلك في شهر تشرين الأول . وكان الجسر يعكس أمواج الحرارة على الوجوه . كانت تتقدم وهي تصفر بين أسنانها لحن « كنتكي بيب » . وما ان وصلت

الى نهاية الخشبة التي تؤلف الجسر حتى جلست القرفصاء على حافتها مباعدة بين ركبتيها ، ونظرت الى ليونيل القابع تحتها . كان على أقل من طول مجذاف منها فلم يرفع عينيه اليها . قالت بوبو :

— اويه ياصديقي القرصان القابع في المركب . ها أنذا هنا أيتها السمكة القذرة !

وبان على ليونيل فجأة أنه يريد أن يظهر مهارته كبحار دون أن يرفع عينيه ، فعطف الدفة الى اليمين عطفة قوية ، ثم أعادها اليه على الفور . كان يثبت عينيه باصرار على ظهر السفينة .

قالت بوبو :

— هذه انا ، بوبو تانبوم .. بوبو غلاس قبل الزواج .. نائبة الأميرال .. أقوم بجولة تفتيشية على المبتدئين .

وسمع جواب .

قال ليونيل :

— لست اميرالا ، انك سيدة .

كان يلجأ الى التقاط أنفاسه في منتصف عباراته فاذا هو يبتلع الكلمات التي كان يريدها أن تبرز واضحة عالية . وكانت بوبو تبدو مصغية اليه بأذنيها وعينيها معاً .

— من قال لك ذلك ؟ من قال لك إني لست اميرالا ؟

فغمغم ليونيل بجواب غير مسموع .

وسألت بوبو من جديد .

— من ؟

— بابا .

ومدت بوبو يدها وهي ما تزال تجلس القرفصاء بين الرقم ٧ الذي يتألف من

ساقيها المنفرجتين ، وامسكت بحافة الجسر الخشبي لتحفظ توازنها ، ثم قالت :

ـ إن أباك رجل لطيف . وهو في يقيني أمهر بحار أعرفه في المـــاء العذب . صحيح كل الصحة أني لست الا سيدة عندما اكون على اليابسة ، ذلك صحيح جداً ، ولكن مهنتي الحقيقية ، بالدرجة الأولى ، هي أن أصارع ...

قال ليونيل :

ـ لست اميرالا .

ـ ماذا تقول ؟

ـ لست اميرالا . انكِ أبداً سيدة .

وران صمت قصير استغله ليونيل الذي كان يمسك بالدفة بكلتا يديـــه ليغير الاتجاه من جديد . كان يرتدي بنطالا قصيراً من الكتان الأسمر ، وكنزة نظيفة من القطن الأبيض نقشت على صدرهـــا صورة « جيروم لوتروش » وهو يعزف الكمان . كان جسمه قد لوحته الشمس ، وشعره الذي يشبه شعر أمه قد تَصلَ لونه بتأثير الحرارة . قالت بوبو :

ـ كثيرون هم الذين يظنون بأني لست أميرالاً ، ذلك لأني لا اصرخ بهـــذا دائماً على رءووس الأشهاد .

وسحبت سيجارة وثقاباً من جيب بنطالها وهي تحاذر أن تفقد توازنها :

ـ إني نادراً ما ارغب في الحديث عن رتبتي مع الناس ، وخاصة مع الصبيان الذين لا يرفعون أبصارهم الي اذا ما تحدثت معهم . لا بد أن اقوم بعمل يضطرهم الى طردي من البحرية بخسارة وضجة بالغتين . وبدون أن تشعل سيجارتها نهضت فجأة ، وانتصبت بوضع استعداد ؛ وجمعت أبهام يدها اليمنى وسبابتها على شكل بيضوي ، أدنته من شفتيها ، واخرجت صوتاً يشبه صفارة البوق .

وسرعان ما رفع ليونيل رأسه ، وبدا له أن ذلك الصفير لم يكن الا مزاحاً على الأغلب ، ولكنه كان مهتماً به أشد الاهتمام ، ففتح فاه ، واطلقت بوبو لحناً

هو مزيج من النقر وقرع الطبل – ثلاث مرات دون توقف – ، ثم القت تحية حسب الأصول الى الشاطىء الآخر . وعندما عادت أخيراً الى جلستها الأولى على حافة الجسر الخشبي بدت وكأنها تفعل ذلك مرغمة ، كما لو أنهـــا كانت مضطربة بتأثير الافضاء بتقليد بحري يستعصي فهمه على المدنيين والصبية الصغار ، ثم راحت تتأمل أفق البحيرة الممدود لحظة ، ثم تذكرت بأنها ليست وحيدة ، فأرسلت الى ليونيل نظرة مفعمة بالخطورة ، وكان فمه ما يزال مفتوحاً :

– انه صفير سري لا يحق لغير الأميرالات أن يسمعوه .

واشعلت سيجارتها ، واطفأت الثقاب بنفثات طويـــلة من الدخان بشكل مسرحي .

– ماذا سيحل بي لو عرفوا بأني قد اسمعتك هذا الصفير .

وهزت رأسها . ومن جديد حولت بصرها الى الأفق .

– أعيدي ذلك .

– مستحيل .

– لماذا ؟

وهزت بوبو كتفيها .

– هناك عدد كبير من صف الضباط في الاماكن المجاورة، وكلهم من طراز..

وبدلت مكانها ، وجلست وساقاها متصالبتان على الطريقة الهندية ، ثم رفعت جواربها القصيرة وقالت بلهجة مراضية :

– سأقول لك ماذا سنعمل الآن ، اذا قلت لي لماذا هربت ؟ سأصفر لك كل ضروب الصفير السرية التي أعرفها ... أتوافق على ذلك ؟

واعاد . ليونيل عينيه الى سطح المركب على الفور وقال :

– لا .

– لماذا لا ؟

ـ لأن ...

ـ لأن ماذا ؟

قال ليونيل :

ـ لأني لا اريد .

وادار الدفة بحركة قوية ليؤكد ما قاله .

كانت بوبو تحمي بيدها جانب وجهها الأيمن من الشمس :

ـ ألم تقل لي بأنك انتهيت من كل هذا ، وأنك لن تعود الى الهرب. لقد ناقشنا ذلك معاً . ووعدتني بألا تعود الى ذلك . لقد وعدتني ... اليس كذلك ؟

وهمهم ليونيل بجواب لم تسمعه .

قالت بوبو :

ـ ماذا ؟

ـ لم اعد بشيء قط ...

ـ بلى ، لقد وعدت . وكيف لا ؟

واستمر ليونيل يمسك بدفة سفينته . ثم أردف قائلاً :

ـ اذا كنت اميرالاً حقاً ، فأين أسطولك ؟

ـ أسطولي ؟ إني مسرورة جداً لأنك طرحت علي هـــذا السؤال . ونهضت لتنزل بدورها الى القارب .

وأمر ليونيل دون أن يرفع صوته او يدير بصره :

ـ الى عرض البحر ... لن يركب أحد ؟

ـ الا تريد ان يركب احد ؟

كانت قدم بوبو قد لامست مقدمة المركب فسحبتها طائعة ، واعادتهـــا الى محاذاة الجسر .

ـ لا احد على الاطلاق .

وعادت الى الجلوس على الطريقة الهندية .

ـ لماذا ؟
واجاب ليونيل دون تردد ، ولكن بصوت خفيض من جديد .
قالت بوبو :
ـ ماذا تقول ؟
ـ لأنه ليس لأحد الحق في ذلك .
ونظرت بوبو بجد الى الصبي الصغير . ومكثت فترة لا تقول شيئاً .
ثم تابعت أخيراً :
ـ يؤلمني كثيراً أن أسمع ذلك. لقد كنت ارغب حقاً في الصعود الى مركبك.. إني وحيدة جداً بدونك . انك توحشني كثيراً . فهل تعرف ذلك ؟ كنت وحيدة في المنزل طوال اليوم دون أن أجد بجانبي من أتحدث اليه .
لم تبدر أية حركة لادارة الدفة خلال ذلك . كان ليونيل يتفحص قطعة الخشب على يد الدفة ذاتها . قال :
ـ عندك ساندرا ... يمكنك أن تتحدثي اليها .
قالت بوبو :
ـ ان ساندرا مشغولة ؛ وعلى كل حال فانا لا ارغب في الحديث مع ساندرا، بل معك أنت . إني ارغب في الصعود الى مركبك ، والتحدث اليك .
ـ تستطيعين أن تتكلمي وانت مكانك .
ـ ماذا ؟
ـ تستطيعين الكلام من هناك ...
ـ لا . لا استطيع . إني بعيدة جداً . يجب أن نكون أشد قرباً .
وادار ليونيل الدفة ، وقال :
ـ لا ، لن يصعد أحد .
ـ ماذا ؟

ـ لن يصعد أحد .

وسألت بوبو :

ـ حسناً . هل تريد إذاً أن تقول لي من أين انت ؟ ولماذا هربت ؟ بعد أن وعدتني بألا تعود الى ذلك !

كانت هناك نظارة لأعماق البحر تقبع في قاع المركب ، بجوار المقعد الخلفي، وكجواب وحيد أمسك ليونيل بانشوطتها الجلدية بين أبهام قدمه اليمنى والاصبع الاخرى،ومد ساقه بسرعة،ثم القاهامن فوق الحاجز فانحدرت بسرعة الى الأعماق.

قالت بوبو :

ـ هذا لطيف منك ، هذا عمل بَنّاء ... إنها نظارة عمك ويب . سيكون شديد السرور بهذا العمل .

ـ لا يهمني ذلك .

وسحبت من سيجارتها نَفساً طويلا .

ـ وقبل ذلك كانت لعمك سيمور .

ـ لا يهمني ذلك

قالت بوبو :

ـ أرى ذلك ، أرى ذلك جيداً .

كان الطرف المشتعل من سيجارتها المرصوص بين أصابعها قد بلغ نهاية خطرة. لقد مس احدى عقد اصابعها ، وسرعان ما فوجئت بالحرارة ، والقت باللفافة على سطح البحيرة . ثم اخرجت شيئاً ما من احد جيوب بنطالها . كانت علبة بحجم علبة ورق اللعب تقريباً ، مغلفة بورق أبيض ، مربوطة بشريط أخضر . قالت وهي تحس بنظرة الصبي ترتفع نحوها :

ـ انها حاملة مفاتيح ... تماماً كتلك التي يملكها بابا ... لكنها تشتمل على عدد اكبر من المفاتيح . في هذه الحاملة عشرة منها ...

ومد ليونيل يديه ، وهو ينحني على مقعده الى الأمام ، ليلتقطها ، قائلاً :

– هل ترمين بها من فضلك ؟

– لنتفحص الأمور جيداً ، امهلني لحظة . يجب ان افكر قليلاً . يجب أن أرمي حاملة المفاتيح هذه في البحيرة ...

فحملق فيها ليونيل باندهاش ، ثم أغلق فاه ، وأردف قائلا وهو غير واثق من حقه فيها :

– إنها لي ...

وهزت بوبو كتفيها ، وبصرها مثبت عليه :

– سيان عندي .

وعاد ليونيل الى الجلوس بهدوء على المقعد . وكان مـــا يزال يحدق في أمه . ويبحث باليد اليمنى عن الدفة خلفه . كانت نظرته تنبيء بأنه قد فهم تماماً ، كما كانت والدته تنتظر منه ذلك !

– خذ !

ورمت اليه بوبو بالعلبة ، فسقطت تماماً على ركبتيه ، فنظر اليها ثم امسك بها واعاد النظر كرة أخرى ، عندما أصبحت في يده ، ثم قذف بها بقوة ، ومن خلف كتفه ، في البحيرة . ثم رفع عينيه على الفور الى بوبو ، عينين لم تر فيهما التحدي بل الدموع . وما هي الا لحظة حتى كانت شفتاه تتمددان على هيئة ثمانية افقية ، وراح يبكي بكل جوارحه .

نهضت بوبو بحذر ، كمن تخدرت رجله وهو جالس في المسرح ... وهبطت الى المركب ، وما هي الا لحظة حتى كانت تجلس في المقعد الخلفي ؛ والبحار على ركبتيها ، وهي تهدهده ، وتقبله في عنقه ؛ وتقول له :

البحارة لا يبكون يا صغيري .. إنهم لا يبكون مطلقاً الا عندمـــا تغرق باخرتهم ، او عندما يغرقون ، ويتمسكون بقطعة من الخشب ، ولا يبقى معهم

شيء للشرب ، ولا ...

ـ ساندرا ... انها ساندرا ... قالت للسيدة سنيل بأن بابا قـذر .. برميل كبير قذر ..

وكبحت بوبو انتفاضة ، ثم رفعت الصبي من على ركبتيها ، واوقفته أمامها ، ثم أزاحت خصلة من الشعر كانت على جبينه :

ـ لقد قالت ذلك .. هيه ؟

وهز ليونيل رأسه بجد أن نعم .. ثم اقترب ، وهو ما يزال يبكي ، ليكون بين ساقي أمه .

قالت بوبو :

ـ حسناً ، ليس ذلك فظيعاً الى هذا الحد ،

وحبسته بين ذراعيها وساقيها :

ـ كان يمكن ان يكون أسوأ من ذلك .

وراحت تعض بلطف أذن الصبي .

ـ هل تعرف يا حبيبي معنى « البرميل » .

وسواء أكان لا يقدر .. أم لا يريد ذلك ، فقـد امتنع ليونيل عن الاجابة فوراً ، وترك نشيجه يهدأ قليلاً ... وعندما تكلم كان صوته يخرج مختنقـاً تحت تأثير حرارة عنق بوبو .

ثم قال :

ـ انه وعاء كبير يوضع فيه الماء .

وازاحت بوبو ابنها قليلاً لتستطيع أن تراه بصورة أفضل . ودست يدها في

اسفل بنطال الصبي وهو ينتفض ، ثم رفعته ، ورتبت له قميصه القطني بعناية ، وادخلته تحت البنطال . ثم اردفت :

ـ سأقول لك ماذا سنعمل ؟ سنركب السيارة في جولة حتى المدينة .. وسنشتري مخلل الخيار وشيئاً من الخبز .. ثم نأكل مخلل الخيار في السيارة .. ثم نذهب لانتظار بابا في المحطة .. ثم نعود الى البيت ... ونطلب اليه أن يأخذنا في نزهة بالمركب .. يجب أن نساعده في تثبيت الشراع .. هل توافق ؟

قال ليونيل :

ـ موافق .

لم يسيرا على قدميهما في عودتهما الى المنزل ، بل قاما بالجولة المتفق عليها ... وهكذا انتصر ليونيل .

مِن أجل ايسمه
مَع الحُبّ وَالدناءَة

٦

تلقيت ، منذ أيام ، دعوة بالبريد الجوي لحضور زواج في انكلترا يتم في ١٨ نيسان : وكنت شديد الرغبة في حضور هذا الزواج . وعندما وصلتني الدعوة بدا لي أولاً أني أستطيع أن أقطع المسافة بخفقة جناح . وليذهب الحرص الى الجحيم !

ثم قلبت الأمر على وجوهه مع زوجتي، وهي فتاة متزنة الى حد يبهر الانفاس وقر قرارنا في النهاية على أن نهمل الموضوع .

وكان من أهم الدواعي لذلك أنني كنت قد نسيت كل النسيان أن حماتي تبتهج أيما ابتهاج بقضاء الاسبوعين الاخيرين من نيسان معنا .

ولم تكن الفرصة لتسنح لي دائماً برؤية الأم غرونشر ، لا سيا وقد بعد العهد بينها وبين الشباب . إنها الآن في الثامنة والخمسين ، (او هي على الأقل السن التي تتحمل أن يعطيها اياها الآخرون .)

ومهما يكن من أمر فاني لم اكن على أية حال من اولئك الذين لا يبادرون ، أينما وجدوا ، لكي يمنعوا زواجاً من الانعطاف في طريق الكارثة . وهذا ما دعاني الى أن ألقي على الورق ببضع ملاحظات تلقي ضوءاً على العروس التي كنت اعرفها منذ ما يقرب من ست سنوات .

ولن اكترث كثيراً اذا ما كان من شأن تلك الملاحظات أن تحمل الى العريس الذي لا اعرفه بعض اللحظات القاسية فانا لا اسعى في هذه الصفحات التالية الى ارضاء الآخرين بقدر ما ارغب في البناء وزرع العِبَر في الطريق .

كنت في نيسان من عام ١٩٤٤ واحداً من ستين جندياً امريكياً يتّبعون ، في

مقاطعة « دوفونشاير » بانكلترا ، تدريباً خاصاً بعمليات الانزال تحت إشراف شعبة المخابرات . وعندما ترجع بي الذكريات الى تلك الفترة الآن يخيل الي أننـا نحن الجنود الستين كنا من نوع فريد . ذلك أنه لم يكن فينا ما يسمى بالشخص الاجتماعي الذي يحسن الاتصال بالناس . كنا جميعاً من اولئك الذين يجيدون تحبير الرسائل بشكل خاص ، وكنا عندما يفتح أحدنا فاه بشيء لا يتعلق بالخدمـة فذلك لكي يسأل زميله عما اذا كان لديه بعض الحبر الذي لا يستعمله هو نفسه . فاذا لم نكن بصدد كتابة رسالة ، او سماع محاضرة اتبع كل منا طريقه الخاص .

كان طريقي يوصلني عادة الى الريف المجاور كلما وجدت الجو رائقـاً . فاذا ما وجدت الجو ممطراً بحثت عن زاوية جافة ، وجلست أطالع ، مبتعداً أقصى ما استطيع عن منضدة « البنغ بونغ » .

ودام التدريب ثلاثة أسابيع ، وانتهى ذات يوم من أيام السبت . كان يومـاً شديد المطر . وفي ذلك المساء الأخير كان على فرقتنا كلها أن تنتقل الى لندن في حوالي الساعة السابعة . وكانت الشائعات تتردد بأننا كنا سنلحق بفرق المشاة التي نقلت بالطائرات وأعدت لليوم ج ...

وما كادت الساعة الثالثة تدق حتى كنت قد حزمت جميع متاعي في حقيبتي ، بما في ذلك جعبة قناع الغاز الذي وزع علينـا . كانت الجعبة مصنوعة من القماش فملأتها بالكتب التي حملتها معي مما وراء المحيط . أما قناع الغاز نفسه فكنت قد قذفت به الى البحر من نافذة الباخرة « موريتانيا » منذ أسابيع ، لأني كنت على يقين من أنه اذا ما خطر للعدو يوماً أن يستخدم الغاز فلن يتاح لي مطلقاً أن أضع هذا القناع اللعين في الوقت المناسب . واذكر أني مكثت فترة طويلة أمام ثكنتنا اراقب المطر يهطل خطوطاً مائلة مكفهرة ، وكانت إصبعي تؤلمني حقاً لكثرة ما ضغطت على لسان البندقية .

كنت أسمع وراء ظهري الصرير البغيض لعشرات من أقلام الحبر على عشرات من البطاقات تحمل في أعلاها عبارة « البريد الجوي » . وفجأة ، ودون أن يكون

في رأسي شيء محدد ، ابتعدت عن النافـــذة ، ووضعت ممطري ، ولثامي الذي يخفي حتى أنفي ، وحذائي الضخم، وقفازي الصوفيين ، وسدارة ما وراء المحيط التي كنت ارتديها مائلة حسب زاوية خاصة ما زال رفاقي يتحدثون عنهـــا حتى الآن ، زاوية تجاوز الأذنين بقليـــل . ثم ضبطت ساعتي على ساعة دورة المياه ، وهبطت المدينة عن طريق الهضبة الطويل ذي الاسفلت المبلل .

لم اكن اكترث ايما اكتراث للبرق يخطف البصر من حولي ، كأنما كانت تلك فرصتي الأخيرة ، فاما أن اقتنصها ، او ادعها تفلت مني الى الأبد

وفي وسط المدينة ، في اكثر امكنتها عرضة للبلل بالتأكيد ، توقفت قبـــالة كنيسة لأقرأ لوحة النشاط الكنسي ، لأن الأحرف البيضاء المرسومة على لوحة سوداء استرعت انتباهي من جهة ، ولأني من جهة أخرى كان قد تكون عندي ، خلال الأعوام الثلاثة التي سلختها في الجيش، فعل منعكس وهو قراءة كل اللوحات أيا كان مضمونها .

كان الجدول يشير الى أن تمريناً لجوقة المنشدين سيجري في الساعة الثالثـــة والربع . ونظرت الى ساعة معصمي ، ثم الى اللوحة . كان هناك جدول بأسماء الأولاد الذين سيشتركون في التمرين . مكثت واقفاً تحت المطر أطالع قائمـــة الأسماء حتى آخرها ... ثم دخلت الكنيسة .

كانت مجموعة من البالغين قد انتشرت في الأروقة . وكان بعضهم يمسك فوق ركبتيه احذيـــة من المطاط صغيرة الحجم ، مقلوبة على قفاها ، فاجتزت صحن الكنيسة ، واتخذت مكاني في الصف الأول .

كانت الجوقة تتألف من عشرين ولداً تتراوح أعمارهم بـــين السابعة والثالثة عشرة ، معظمهم من البنـــات : وكانوا يتراصون في صفوف ثلاثة من الكراسي الصغيرة . وفي تلك اللحظة أطلت مدرسة الموسيقى ، وهي امرأة ضخمة ترتدي ثوباً من « التويد » ، وطلبت الى الأولاد أن يزيـــدوا في فتحة أفواههم . ثم ابتدرتهم بهذا السؤال :

ـ هل فيكم من سمع عصفوراً صغيراً يغني أغنيته الجميلة دون أن يبدأ بفتح منقاره الصغير الى أقصاه ، الى أقصاه .. الى أقصاه .. ؟

ويبدو أن احداً منهم لم يسمع شيئاً من ذلك ، فاكتفوا بأن منحوها نظرة فيها شيء من الاهتمام ، ولكنها صامتة .. ثم تابعت قائلة : إنها تود أن يفهم كل أطفالها جيداً معنى الكلمات التي ينشدونهـا ، وألا يكتفوا بالقائها كالببغاوات الحمقاء . ثم نفخت في الآلة الموسيقية نغماً معيناً ، ورفع الأطفال ، على اثرها ، كتب الانشاد كمجموعة من المحكومين بالأشغال الشاقة في سن مبكرة .

كانوا ينشدون دون مرافقة الموسيقى ، او على الأصح ، دون أن يضايقهم أي اعتبار في وضعهم ذاك .

كانت أصواتهم جميلة ، صافية ، الى حد أن أي إنسان أشد تصوفاً مني قد يحمل ، دونما ارغام ، على التحليق تحت تأثير الأصوات وحدها .

كان اثنان من الأطفال الصغار يعدون قليلاً أواخر المقاطع ، ولكن بطريقة لم تكن أم المؤلف نفسها بقادرة على أن تكشف أي خطأ فيها .

لم اكن قد سمعت هذا النشيد قط ، ولكني رأيت نفسي أتمنى لو أنـه اشتمل على اثني عشرية من المقاطع .

كنت ـ وانا أصغي ـ أتفحص وجوه جميع الأطفال . ولكن أحدها لفت انتباهي على الأخص .

كان وجه البنية التي تقف أقرب ما يكون مني في نهاية الصف الأول ...

كانت في حوالي الثالثة عشرة، شعر أشقر ، سبط، قص قصيراً ، جبهة رائعة، عينان تنظران بقرف ونفور ، وتستطيعان بكل تأكيد ـ حسبما خطر لي ـ أن تقدما لك بياناً عن شخصيتك في أقل من ثانيتين .

كنت أميز صوتها بوضوح بـين أصوات الأطفال الآخرين ، لا لأنها كانت أقربهم الى مكاني ، بل لأنها تملك أحسن أداء للأنغام العالية .

كان صوتها أصفى الأصوات وأرقها ، واكثرها وثوقاً بنفسه ، وكانت بالطبع تقود الآخرين ، وكان يبدو على الآنسة الصغيرة أنها ضجرة من موهبتها ، او أنها ضجرة من المكان والزمان اللذين تمارس فيهما هذه الموهبة فقط .

رأيتها مرتين تتثاءب بين المقاطع . كان تثاؤباً شبيهاً بتثاؤب السيدات .. شفاه مغلقة .. لو لم يفضحها جناحا منخريها حين يضطربان .

وما ان انتهى النشيد حتى راحت معلمة الغنـاء تشرح باسهاب رأيهـا في الأشخاص الذين لا يعرفون كيف يحتفظون بارجلهم ساكنة ، وفمهم مغلقاً أثناء الموعظة .

ادركت أن التمرين قد انتهى ..

وقبل أن يقضي صوت الاستاذة النشاز قضاء مبرماً على السحر الذي خلقه صوت الأطفال نهضت وغادرت الكنيسة ..

كان المطر ما يزال يتدفق بصورة أغزر حين هبطت الشارع ، وألقيت نظرة من النافذه على صالة الاستراحة في مقر الصليب الاحمر ، ولاح لي اثنان او ثلاثـة من الجنود يرتفقون المنضده . وكنت حتى من خلال الزجاج اسمع وقع كرات « البنغ بونغ » في الغرفة المجاوره .

ولم البث أن اجتزت الطريق ، ودخلت مقهى للمدنيين قد خلا من الناس ، اللهم الا من خادمة نـَصَف كانت تؤثر على الاغلب ـ كما تراءى لي - زبونـاً بمعطف جاف .

استخدمت المشجب ، وانا أحاول الا ألفت النظر الي ، وجلست امام منضدة ثم طلبت فنجاناً من الشاي ، وقطعة من البسكويت بالقرفـة . كانت تلك هي المرة الأولى التي أحدث فيها احداً هذا النهار . ثم رحت افتش جيوبي كلهـا تفتيشاً دقيقاً ، حتى جيوب معطفي ، لاعثر اخيراً على رسالتين قديمتين رحت أعيد قراءتهما من جديد . كانت احداهما من زوجتي تقص علي فيهـا كيف

أصيبت تجارة محل سكرافت في الشارع رقم ٨٨ ، والاخرى من حماتي ترجوني فيها أن أبعث اليها بصوف للحياكة حالما تسنح لي الفرصة بمغادرة الثكنة .

كنت ما أزال ارشف قدح الشاي الاول حين دخلت الصالة الآنسة الصغيرة التي أعجبت بها ، وأصغيت اليها في الجوقة .

كان شعرها مبتلا ..

وكانت أطراف أذنيها تظهر من تحته ..

وكان بصحبتها صبي صغير جداً هو اخوها دون أي شك ، رفعت عن رأسه قبعته بحركة من إصبعيها كما يفعل عالم في المختبر. واغلقت السير، سير المجموعة ، امرأة قوية الجسم تعتمر قبعة من اللباد ، يبدو أنها المربية .

اجتازت منشدتنا الصالة وهي تخلع معطفها واختارت منضدة . كان اختياراً رائعاً بالنسبة لي ، فقد كانت المنضدة في مواجهتي تماماً . لا تبعد اكثر من مترين او ثلاثة عني . ولم تلبث أن جلست هي والمربية ؛ أما الصبي الصغير الذي لا يتجاوز الخامسة فقد بدا لي أنه لم يكن قد قرر الجلوس بعد . لقد خلع سترته وتركها تقع على الأرض . وراح يزعج مربيته بدون انقطاع وهو مقطب الوجـــه ، منقبض السحنة . كشيطان مكتمل . كان يدفع بكرسي المربية ثم يجذبه من الأمـــام الى الخلف ، ثم يحدق فيها وجهاً لوجه ليرى الانطباع الذي يخلفه عمله هذا في نفسها . وعبثاً حاولت المربية أن تطلب إليه بصوت خفيض مرتـــين او ثلاثاً أن يجلس ، ويكف عن تلـــك الحركات المزعجة ، ولكنه لم يستجب ، ويضع مؤخرته على كرسيه الا حينما أمرته شقيقته . وأخيراً التقط منشفته ثم وضعها على رأسه ، فما كان من شقيقته الا أن سحبتها ، وفرشتها على ركبتيه .

وفي اللحظة التي قدم اليهم فيهــا الشاي ، فاجأت المنشدة الصغيرة نظرتي التي كنت القيها على مجموعتهم ، فنظرت الي بدورها نظرة كلها اهتمام بعينيها الفاحصتين المنقبتين، والقت الي فجأة بابتسامة مجاملة خاطفة . كانت ابتسامة مشرقة كما تكون

احياناً بسمات المجاملة الصغيرة . فقابلتها . بابتسامة أقل اشراقاً . كان علي أن أخفي بشفتي العليا الشمع الأسود الذي وضعه الطبيب على أسناني الأمامية . وقبل أن أنتبه كانت الآنسة تقف بجانب منضدتي بثقة يحسدها عليها الكثيرون .

كانت ترتدي ثوباً مخططاً تراءى لي أنه يلائم كل الملاءمة فتاة في يوم مطير .

قالت :

ـ كنت اعتقد بأن الامريكان لا يحبون الشاي .

لم تكن تلك الملاحظة ملاحظة فتاة « تعرف ـ كل ـ شيء . » بل واحدة مغرمة بالدقة والاحصاء .

أجبت بأن بعض مواطني لا يشربون شيئاً خلافه ؛ وسألتها ما اذا كانت تقبل أن تشاركني منضدتي . قالت :

ـ شكراً . يمكنني أن ألبي دعوتك بعض الوقت .

نهضت ، وقدمت لها الكرسي المقابل لي ، فجلست على حافته مستقيمة ، في وضع رشيق ، دون تصلب ؛ وعدت مسرعاً الى مقعدي ، وفي نيتي أن أجعل الحديث بيننا شائقاً . إلا أني لم أجد ما أقوله عندما جلست .

ابتسمت من جديد ، دون أن أنسى اخفاء الشمع الأسود الذي يزين أسناني ، وابديت ملاحظة عابره حول الطقس الرديء .

قالت زميلتي بصوت يشير بوضوح وتأكيد الى انها تكره الحديث السطحي :

ـ نعم .

ثم أسندت أصابعها على حافة المنضدة ، كما يفعل من يقوم بجلسة استحضار الأرواح ثم أطبقت يديها حالاً . كانت أظافرها قد قرضت حتى الجذور . وكانت تضع في معصمها ساعة من طراز عسكري جداً ، تشبه ميزان الجو الذي تستعمله البحرية . كان حجمها ضخماً جداً بالنسبة لمعصمها النحيل .

قالت بلهجة من لا ينتظر جواباً :

– كنت تستمع الى الجوقة ، لقد رأيتك هناك .

واجبت مؤكداً بأني كنت هناك ، وأني ميزت صوتها من بين سائر الأصوات . وقلت بأنها تملك حنجرة جميلة جداً .

فردت :

– نعم ، أعرف ذلك . إني انوي احتراف الغناء .

– حقاً ؟ في الأوبرا ؟

– لا ، بكل تأكيد . سأغني الجاز في الاذاعة ، واكسب مالاً كثيراً ، ثم أنزوي في مزرعة خاصة في الاوهيو عندما ابلغ الثلاثين .

ومررت راحة يدها على شعرها المبتل . ثم سألت :

– هل تعرف الأوهيو ؟

قلت بأني اجتزته عدة مرات في القطار ، ولكني لا أعرفه تماماً . ثم قدمت اليها قطعة من بسكويت القرفة . قالت :

– لا ، اشكرك . اذا كان لابد من الصراحة فأني آكل كالعصفور .

ورحت أمضغ قطعة من البسكويت وأشرح لها أن هناك مناطق وعرة في الأوهيو .

– اعرف ذلك . لقد حدثني عن تلك البقعة ألامريكي قابلته ذات يوم . انك الامريكي الحادي عشر الذي اتعرف اليه .

كانت مربيتها في تلك اللحظة تشير اليها بالعودة حالاً الى منضدتها قائلة بأنه يجب ألا تزعج السيد؛ وكان جواب زميلتي الوحيد أن حركت كرسيها بهدوء عدة سنتيمترات بحيث أولت المربية ظهرها ، وقطعت كل اتصال معها .

وسألتني بلهجة واثقة :

– هل تداوم على مدرسة المخابرات الموجودة على الهضبة ؟

وبدون أن أظهر الغضب ، أجبتها بأني أقيم في منطقة « الدفونشاير » لأسباب صحيـــة .

قالت :

ـ لأسباب صحية ؟ أصحيح ذلك؟ هـل تعرف أني لست من مواليد البارحة؟

أجبتها بأني كنت أشك في ذلك. واكتفيت باحتساء الشاي فترة من الوقت.. كنت اشعر بأني اصطنع الوقار ، وأني أجلس وظهري متصلب على الكرسي اكثر مما ينبغي .

وهمست زميلتي بلهجة حالمة :

ـ انك تبدو اذكى من أن تكون امريكياً !

قلت لهـا بأن هذه الملاحظة تنم على التبجح والغرور . وارجو ان تكون غير لائقة بها .

واحمرّ وجهها ... فأعطتني بذلك الثقة التي كانت تنقصني حتى ذلك الحين .

ـ حسناً ! إن اكثر الامريكيين الذين عرفتهم يتصرفون كالحيوانات .. انهم ابداً يتخاصمون .. ويشتمون الجميع ، و ... هل تدري مـاذا فعل احدهم ؟ ...

وهززت رأسي انـ لا ...

ـ لقد قذف أحدهم بزجاجة ويسكي فارغة من نافذة عمتي ؛ وكانت النافذة مفتوحة لحسن الحظ .. أترى في مثل هذا العمل شيئاً من الذكاء ؟ ... أجب ...

لم يكن ذلك العمل لينطوي على شيء من الذكاء في رأيي .. فتهربت من التعليق عليه واكتفيت بأن لاحظت كثيراً من الجنود ، من كل اطراف العالم ، يعيشون بعيداً عن أهلهم ، وأن قليلاً منهم من عرف شيئاً من السرور الحقيقـــي طوال حياته . وقلت بأني كنت اعتقد ان اكثر الناس يمكنهم ان يفهموا ذلك .

قالت زميلتي دون أن تقتنع :

- ذاك محتمل !

ورفعت يدها من جديد الى شعرها المبتل ، وحاولت ان تسبل بضع خصلات شُقْر على أذنيها . ثم اردفت :

- إن شعري مبتل بدرجة كبيرة . يجب ان يكون شكلي مخيفاً .

ونظرت اليّ :

- ان شعري يتموج عندما يكون جافاً .

- أتصور ذلك جيداً . إني مقتنع بذلك .

قالت :

- ليس شعري جعداً تماماً ، ولكنه ذو تموجات . هل أنت متزوج ؟

قلت :

- نعم !

فهزت رأسها .

- أأنت مغرم بزوجتك ؟ ام تراني أتدخل فيما لا يعنيني !

قلت لها بأني لا أتردد عن إيقافها عند حدها عندما تفعل ذلك .

ووضعت يديها ومعصميها على المنضدة . واذكر اني ما كدت اعاود النظر الى ساعتها الضخمة حتى خطر لي ان اعمل شيئاً ، كأن اقترح عليها تحويلها الى حزام.

قالت وهي ترقبني لترى ما اذا كنت ادرك معنى ما ستقول :

- إني لا املك غريزة الاجتماع بصورة عامة .

ولم احر جواباً سلباً كان ام ايجاباً .

- لقد اتيت فقط لأنك بدوت لي في عزلة موحشة . إن لـــك لوجهاً شديد التعبير .

قلت لها بأنها على حق في ذلك . واني اشعر كثيراً بالوحدة . واني كنت سعيداً جداً لأنها قدمت الي .

قالت وهي تمس رأسها من جديد :

ـ إني ابذل ما في وسعي لأشاطر الآخرين آلامهم . تقول لي عمتي بأني شديدة الجمود . إني أعيش مع عمتي . انها في غاية اللطف ، لقد بذلت جهدهـا منذ وفاة أمي لنشعر كأننا في بيتنا .

ـ إني سعيد لذلك .

ـ كانت أمي شديدة الذكاء ، لامعة في بعض مزاياها .

وحدقت بي تحديقاً عنيداً بعض الشيء :

ـ هل تجدني باردة جدا ؟

قلت لها بأنها ليست كذلك على الاطلاق . بل انها على العكس . وذكرت لها اسمي ، وسألتها عن اسمها ، فترددت :

ـ اسمي الصغير هو ايسمه . لا أعتقد بأني سأذكر لك اسم عائلتي الآن . إن لي لقباً . وربما تأثرت كثيرا بالالقاب ، فان الامريكان تستهويهم الالقاب ، هل تعرف ذلك ؟

قلت :

ـ لا اعتقد بأني كذلك . ولكنها قد تكون فكرة حسنة ان يخفي الانسان اسمه فترة معينة .

وشعرت في تلك اللحظة بنفس حار يلفح نقرتي، فالتفت ، وكاد أنفي يصطدم بأنف شقيق ايسمه الصغير .

ودون ان يعيرني ادنى اهتمام توجه الى اخته بصوت ثاقب :

ـ تقول الآنسة ميكلي بأن عليك ان تعودي لتنهي تناول شايك .

وعندما نقل رسالته انسحب نحو الكرسي الذي يفصلني عن شقيقته من جهة اليمين ، ورحت اراقبه باهتمام بالغ . كان رائعاً حقـــاً في بنطاله من « الشتلاند » البني ، وسترته الصوفية الزرقاء. وقميصه الأبيض، وربطة عنقه المخططة ، وراح بدوره ينظر الي بعينين خضراوين ، شديدتي الاتساع . ثم سأل فجأة :

ـ لماذا يقبل الناس بعضهم بعضاً في الافلام بصورة جانبية ؟

قلت :

ـ بصورة جانبية ؟

كانت تلك مشكلة حيرتني في طفولتي فأجبت :

ـ سبب ذلك، في رأيي ، ان أنوف الممثلين كبيرة الى حد لاتسمح لهم بالتقبيل وجهاً لوجه .

قالت ايسمه :

ـ ان اسمه شارل ، وذكاؤه يتجاوز سنه بكثير .

ـان له عينين خضراوين جميلتين ! أليس كذلك يا شارل ؟

فالقى شارل عليّ نظرة ازدراء تتناسب وسؤالي وانزلق بجسمه على الأرض ، ومرره تحت المنضدة ، ما عدا رأسه الذي قلبـــه الى الوراء ، صانعاً من جسمه جسراً على أعلى الكرسي . قال بصوت مخنوق ، وهو يتطلع الى السقف :

ـ انها برتقاليتان .

وأمسك بطرف غطاء المنضدة ، وغطى به وجه الجميل المنقبض .

قالت ايسمه :

ـ انه ذكي تارة ، غبي تارة . اجلس يا شارل .

لم يتحرك شارل قيد أنملة . كان يحاول ان يلتقط أنفاسه .

ـ انه شديد التأثر لفقدان أبي . لقد قتل في افريقيا الشمالية .

قلت لها بأن ذلك يؤسفني .

ـ كان ابي يعبده .

وراحت تعض باهتمام جلد ابهامها المقروض .

ـ انه يشبه والدتي كثيراً. اني اتكلم عن شارل . اما انا فصورة طبق الأصل عن أبي .

واستمرت في عض ظفرها المقروض .

ـ كانت امي امرأة متأججة العواطف . كانت اجتماعية بطبعها ، امـا ابي فكان انطوائياً . كانا يتفاهمان جيدا مع ذلك ، ولأكن صريحة ، بطريقة سطحية. كان بابا بحاجة الى رفيقة اكثر ذكاء من امي . كان عبقرياً . كان رجـلا ذا امكانات ضخمة ...

وانتظرت باهتمام زيادة في المعلومات ، ولكن ذلك لم يأت . خفضت بصري نحو شارل ، الذي كان يسند خده على أعلى الكرسي ، وعندما رآني انظر اليه اغمض عينيه وتناوم كالملاك، ثم ما لبث ان مد لسانه ـ وهو زائدة بطول عجيب ـ واطلق ذلك الصراخ الذي يجابه به عادة الحـكم الضعيف في لعبة البيسبول ، فانزعج زبائن المقهى جميعاً .

قالت ايسمه دون ان يبدو عليها شيء من الانزعاج :

ـ كفى ... لقد سمع امريكياً يفعل ذلك وهو يقف في الصف لشراء شيء من السمك ، والبطاطا المقلية ؛ وهـو يردده الآن كلما شعر بالضيق ... كف عن ذلك ، والا ارسلتك فورا عند الآنسة ماكلي .

وحملق شارل بعينيه ليظهر انه قد سمع تهديد اخته ، لكنه لم يبد قلقاً ممـا سمع ، واغلق عينيه من جديد ، وبقي مسنداً خده على اعلى الكرسي .

فما كان مني الا ان نبهته بأن عليه الا يعود الىذلك حتى يحمل لقبه رسمياً.. اذا كان له لقب كذلك بالطبع .

ورشقتني ايسمه بنظرة فاحصة ، وقالت بلهجة ماكرة :

– انك تملك روح الدعابة ، اليس كذلك ؟ كان بابا يقول بأني لا املك روح الدعابة البتة . كان يقول بأني غير مسلحة لمواجهة الحياة . لأني لا املك هذه الروح .

ورحت اراقبها ، وانا اشعل سيجارة ، ثم اردفت بأن روح الدعابة غير ضرورية . وعندما يكون الانسان في ورطة ، فانها لا تجدي نفعاً .

– كان بابا يقول العكس .

لم يكن ذلك اعتراضاً . ولكنه تاكيد لاعتقاد معين ، فلم البث ان تراجعت ، ووافقت ، وقلت بان والدها ربما كان يرى الأمور من علٍ .. اما انا فلست ارى في الوقت الحاضر ابعد من طرف انفي - ولايهم كثيراً ما يعني ذلك – .

قالت ايسمه بعد لحظة :

– إن شارل يشعر بالفراغ نتيجة لموت بابا . كان رجلا لطيفاً جداً . كان على قدر كبير من الجمال ايضاً . وليس معنى ذلك اني اهتم كثيرا بالمظهر الجسمي ، ولكن ذلك هو الواقع . كان يملك بالاضافة الى طيبته اللامتناهية فكراً ثاقباً .

فوافقت ، وقلت بان اباها – حسب ما اتصوره – يجب ان يكون على قدر كبير من اتساع الافق ، وغنى اللغة .

قالت ايسمه :

– اوه ، نعم ، على قدر كبير . لقد كان يجمع الوثائق .

– كان من الهواة بالطبع .

وفي تلك الاثناء احسست لكزة ثقيلة من جانب شارل ، اقرب الى اللكمة على ذراعي . كان جالساً في وضع طبيعي الى حد ما على كرسيه ، لولا انه كان يطوي احدى ساقيه تحته .

وسأل بلهجة اقرب الى الصراخ :

ـ ماذا يقول الجدار للجدار الملاصق ؟ إنها أحجية !

وحلقت بعينين مفكرتين في السقف، ورددت السؤال بصوت عال، ثم نظرت الى شارل كمن سدت سبل التفكير في وجهه ، وقلت له باني لم اوفق الى شيء . فصفق لي صارخاً :

ــ اللقاء في الزاوية !

وتركت الكلمات الأثر الأبلغ على شارل نفسه. وبدا له الجواب مضحكاً حتى الموت ، مما اضطر ايسمه الى ان تدور حـول المنضدة ، وان تدق له على ظهره لتحول دون اختناقه . ثم اردفت قائلة :

ــ كفى الآن .

وعادت الى الجلوس .

ـ انه يطرح هـذه الاحجية على كل الأشخاص الذين يلتقي بهم . وفي كل مرة يقع مغشياً عليه من الضحك ، ويسيل لعابه عادة حين يضحك . يكفي ذلك الآن ، ارجوك !

قلت وانا انظر الى شارل الذي اخذ يستعيد وضعه الجدي بالتدريج .

ـ انها على كل حال من احسن الاحاجي التي سمعتها .

وكجواب على هذا الاطراء ثبت نفسه على كرسيه ، وغطى وجهه من جديد بطرف غطاء المائدة ، ثم نظر الي ، وكان في عينيه بقية من الضحك الهستيري مع كل الاعتزاز الذي يحمله من يعرف أحجية او احجيتين جديدتين .

وسألتني ايسمه :

ـ هل لي ان اعرف ماذا كنت تعمل قبل دخولك الجيش ؟

قلت بأني لم اعمل شيئاً حتى الان، واني لم اتخرج من الجامعة الا قبل عام واحد

فقط . ولكني أحب ان انظر الى نفسي على أني كاتب قصة .

ووافقت بأدب ، ثم سالت :

– هل نشرت شيئاً ؟

انه سؤال طبيعي ، ولكنه ابداً محرج . سؤال اجبت عليه آلاف المرات من قبل . ورحت اشرح لها بان أغلب الناشرين الامريكيين ليسوا الا عصابة من...

وقاطعتني ايسمه .

– كان أبي يكتب بطريقة رائعة . اني احتفظ بمجموعة من رسائله للأحفاد .

قلت بان ذلك يبدو لي فكرة ممتازة . ووقع بصري من جديد على ساعتها الضخمة فسألتها عما اذا كانت لأبيها .

فالقت على معصمها نظرة جدية وقالت :

– نعم ، كانت له . لقد اعطاني اياها قبل ان نخرج انا وشارل من المدينة بلحظات ...

وسحبت يدها من على المنضدة بشيء من الضيق ، ثم أضافت :

– لقد أعارني اياها فقط ، بالطبع ، ..

ثم غيرت مجرى الحديث :

– ساكون فخورة اذا ما خطر لك ان تكتب يوماً ما قصة لي وحدي . إني التهم الكتب التهاماً .

قلت لها باني سأفعل ذلك حتماً ، اذا كان بمقدوري ان افعل ؛ واردفت باني لست كاتباً غزير الانتاج .

– ليس من الضروري ان تكون طويلة ! يكفي الا تكون سخيفة ، او شيئاً صبيانياً ..

وفكرت قليلاً .

ـ إن ما احبه هو قصص الدناءة .

قلت وانا أخفض رأسي الى الأمام :

ـ ماذا ؟

ـ الدناءة . إني شديدة الاهتمام بالدناءة .

كنت على وشك ان اسألها مزيداً من التفاصيل ، ولكن شارل قرصني من ذراعي بشدة. فالتفت اليه مذعوراً. كان شديد الدنو مني. قال دون أية رسميات:

ـ ماذا يقول الجدار للجدار المجاور ؟

قالت ايسمه :

ـ سبق لك ان سألت نفس السؤال يكفي ذلك الآن !

ودون ان يبالي بها داس شارل على قدمي وردد السؤال الملحاح . ولاحظت ان ربطة عنقه منحرفة فسويتها له، ثم قلت له وانا انظر اليه، وعيناي في عينيه :

ـ « اللقاء عند الزاوية ؟ »

لم اكد انطق بذلك حتى ندمت على جوابي . فمكث شارل فاغر الفم ، واحسست ان ذلك انما كان من اثر الصدمة ، فنزل عن قدمي بهدوء كمن مست كرامته ، وعاد الى منضدته ، دون ان يلتفت .

قالت ايسمه :

ـ انه مغتاظ. ان طبعه شرس جداً. كانت امي تدلله، أما ابي فكان الوحيد الذي لا يدلله .

واوصلت نظري الى شارل الذي جلس ، وراح يحتسي الشاي وهو يمسك فنجانه بكلتا يديه.

كنت آمل ان يلتفت ، ولكنه لم يفعل .

ثم نهضت ايسمه ، وقالت بالفرنسية وهي تتنهد :

ـ يجب ان أذهب انا ايضاً . هل تتكلم الفرنسية ؟

نهضت وانا مفعم بالخجل والأسف، فمدت لي ايسمه يدها، وكانت، كما توقعت،

عصبية ، رطبة عند الراحة . قلت لها بالانجليزية بأني استمتعت كثيراً برفقتها .. فلمست شعرها مرة اخرى ، وقالت :

ـ لقد خطر لي بأن هـــذه اللحظات قد تحمل اليك شيئاً من السرور . اني قادرة على التحدث اكثر مما توحي به سني .

ولمست شعرها من جديد مرة اخرى ، واردفت :

ـ اني آسفة جداً لشعري المبتل . انني ابدو فظيعة بدون شك ..

ـ لا ، ابداً ، اعتقد بأنه قد بدأ يعود الى تموجاته .

ومرة اخرى لمست شعرها بسرعة والقت هذا السؤال :

ـ هل تظن بأنك قد تعود الى هنا عما قريب؟ إننا نحضر الى هذا المكان كل يوم من أيام السبت بعد التمرين .

أجبت بانه ما من شيء يعدل ذلك في ادخال السرور الى نفسي . ولكني شبه موقن بأني لن استطيع ذلك .

قالت ابسمه .

ـ بتعبير آخر ، انك لا تستطيع ان تبوح بشيء عن تحركات القطعات ..

لم يكن يبدو عليها ما يشير الى انها ستترك المنضدة ، ولكنهـــا على العكس صالبت قدميها ، وحدقت في الأرض ، ووضعت فردتي حذائها على خط واحد . كان ذلك جميلاً يبهج النظر ، فقد كانت ترتدي جـــوارب قصيرة بيضاء ، وكان كاحلاها ، وقدماها رائعي التكوين . ثم رفعت رأسهـــا فجأة وسألت ، ووجهها مضرج بالحمرة :

ـ أتود ان اراسلك؟ إني اكتب رسائل حسنة الترتيب بالنسبة لفتاة في مثل ..

ـ اني اعبد ذلك ..

واخرجت قلماً وورقة ، وكتبت اسمي ، ورتبتي ، ورقمي في السجل ، ورقم قطاعي البريدي ..

قالت وهي تتناول قطعة الورق :

ـ سأبدأ أنا الكتابة . لن ترى نفسك مرغماً بهذه الصورة . .

ووضعت المعلومات في احد جيوب ثوبها ثم أردفت قائلة .

ـ الى اللقاء .

وعادت الى منضدتها .

طلبت قدحاً آخر من الشاي ، ومكثت هناك انظر اليها معاً ، هي واخوها ، حتى نهضا لمغادرة المقهى ، مع الآنسة ماكلي المتعبة . كان شارل يسير في المقدمة، ويعرج بصورة محزنة كمن كانت احدى ساقيه أقصر من الأخرى بعض سنتيمترات . لم يلتفت الي قط . وسارت وراءه الآنسة ماكلي ، ثم تبعتهما إيسمه ، وهي تلوح لي بيدها ، فودعتها ملوحاً بيدى أيضاً ، وانا انهض قليلاً عن مقعدي .

لقد كانت لحظة مؤثرة بالنسبة لي .

وما هي الا دقيقة حتى كانت ايسمه قد عـادت الى المقهى وهي تجر شارل خلفها من كم سترته وابتدرتني قائلة :

ـ بود شارل ان يقبلك قبلة الوداع .

وضعت فنجاني على المنضدة فوراً ، وقلت بأن هذا الشيء لطيف جداً منه ، ولكني سألتها عما اذا كانت على يقين من ذلك !

قالت وهي تزم شفتيها قليلاً :

ـ نعم !

ثم تركت كم شارل، ودفعته نحوي دفعة قوية ، فتقدم شاحب الوجه، وقبلني قبلة رنانة ، رطبة ، تحت أذني اليمنى . وما ان قام بذلك حتى استعد للهرب نحو الباب لينصرف الى مشاغل أقل عاطفية؛ ولكني امسكت به من حزامه واوقفته، ثم سألته :

ـ ماذا يقول الجدار للجدار المجاور ؟

فأشرق وجهه وصرخ .

ــ موعدنا عند الزاوية ..

وانطلق خارج المقهى بضحكة تدنو من الهستيرية .

كانت ايسمه تقف من جديد متصالبة القدمين ، ثم سألتني :

ــ صحيح ، انك لن تنسى أن تكتب لي تلك القصة . لا اشترط ان تكون من اجلي فقط .. يمكنك أن ..

قلت :

ــ ليس هناك أي سبب يجعلني أنسى .

وشرحت لها اني لم اكتب قط قصة لشخص معين ؛ ولكن يبدو ان الوقت قد حان لأبدأ ذلك .

فهزت رأسها موافقة ، ثم اقترحت :

ــ اكتبها دنيئة ، مؤثرة بصورة عنيفة ، هل عرفت يوماً ما هي الدناءة ؟

قلت :

ــ لا اعرفها على وجه التحديد ، ولكني بطريقة او بأخرى كنت اجد كل يوم الفرصة لأزداد بها معرفة ، واني سأبذل جهدي لاحترام تعليماتها .. وتصافحنا .

ــ أليس مؤسفاً أننا التقينا في ظروف اليمة كهذه ؟

قلت لها انها محقة .. إنها مصيبة تماماً ..

قالت ايسمه ،

ــ الى اللقاء . أتمنى ان تعود من الحرب بكامل قواك ، دون أن تصاب بأذى ..

فشكرتها .. وأتبعت الشكر بعدة كلمات تلفظتها ، ثم تبعتها بعيني حتى مدخل المقهى .. ورأيتها تخرج ببطء ، وتفكير عميق .. وهي تتلمس طرف شعرها لتتأكد من جفافه .

* * *

وها هو ذا الآن القسم الدنيء ، او المؤثر من القصة .

وهنا يتغير المشهد .

ويتغير الأشخاص أيضاً .

إني دائماً هنا ..

ولكن لأسباب ، ليس لي الحق في كشف الستار عنها ، اراني اتنكر ببراعة لا يستطيع معها أخبث القراء ان ينجح في التعرف علي .

كانت الساعة تقارب العاشرة والنصف مساء في « غوفورت » في « بافاريا » بعد اعلان النصر بعدة أسابيع .

كان المعاون س .. في غرفته في الطابق الثاني من المنزل الذي عسكر فيه مع تسعة جنود امريكيين آخرين منذ اعلان الهدنة .

كان جالساً على كرسي خشبي قابل للانطواء . امام مكتب صغير انتشرت فيه الفوضى ، وقد فتح أمامه كتيباً خاصاً بالفرق العاملة ما وراء البحار . وكان يجد بعض المشقة في متابعة قراءته ، لعيب في القارىء نفسه اكثر مما هو في الكتاب . ورغم ان رجال الطابق السفلي كانوا الاوائل في التهام الكتب التي ترسلها الخدمات الخاصة في الجيش شهرياً فان س .. كان يقع دائماً على الكتاب الممتاز وكأنما انتقاه بنفسه . ولكنه كان واحد من اولئك الشباب الذين لم يخرجوا من الحرب بكامل قواهم العقلية . وهـــا هو ذا منذ ساعة وبعض الساعة يعيد قراءة كل مقطع ثلاث مرات . ثم انتهى الآن الى ان يعيد الجملة ذاتها ثلاث مرات . وأخيراً اغلق الكتاب فجأة ، دون ان يترك اية اشارة الى المكان الذي توقف عنده . ووضـع يده على عينيه بعض الوقت ليقيهما النور القوي الذي يرسله المصباح العاري فوق المنضدة .

وتناول لفافة من علبة موضوعة أمامه ، وأشعلها باصابع ما تنفك مرتعشة ، ثم تمدد على كرسيه ، وراح يدخن ، دون ان يتذوق طعم الدخان . انه ما فتىء يدخن منذ اسبوعين بصورة مستمرة لفافة إثر أخرى .. حتى باتت لثته تدمى

لدى أقل ضغط يقع عليها من لسانه . لقد اصبح ذلك بالنسبة له اشبه بلعبة يطيب له أن يستمر بها احياناً ساعة كاملة .

وجلس فترة يـدخن ، ويدمي لثته ، ثم شعر فجأة ، ودون ان ينبئه شيء بذلك ، كالعادة ، شعر بذهنه يدور حـول نفسه ، ويهتز كمتاع لم يربط جيداً في شبكة القاطرة ؛ فعمل حالاً ما اعتاد أن يعمله منذ اسابيع ليعيد الأمـــور الى نصابها .. لقد ضغط يديه بقوة على صدغيه ، ومكث على هذه الحال فترة غـــير قليلة ؛ كان شعره بحاجة الى ان يقص ، كما كان متسخاً . لقد غسله مرتين او ثلاثاً طوال الاسبوعين اللذين قضاهما في مستشفى فرانكفورت على الماين ، ولكنه مـا لبث ان اتسخ بالغبار طوال طريق العودة الى غوفورت بسيارة الجيب . وسواء أكانت الهدنة قد وقعت أم لا . فان الرقيب ز .. هو الذي جاء يصطحبه من المستشفى ، وكان ما يزال يقود سيارة الجيب ذات المرآة الأمامية المقلوبة على واجهتها .

لقد كان هناك آلاف من الجنود الأغرار من المانيـــا ، وكان الرقيب ز .. يحرص كل الحرص على الا يبدو وكأنه واحد منهم . كـان يقود سيارة الجيب وهو يدير مرآتها ليفهم الجميع بأنه ليس من اولئك الجنود الأغرار .

وعندما استطاع س .. ان يتوقف عن امساك رأسه بيديه راح يتأمـل سطح المنضدة المزدحم باثنتي عشرة من الرسائل غير المفتوحة ، + وبخمس او ست من الرزم غير المفتوحة أيضاً ، وكلها يحمل عنوانه . ثم دفع بكل ذلك جانباً والتقط كتاباً موضوعاً الى جوار الجدار . كان كتاباً لغوبلز عنوانه : « العصر الذي لامثيل له » . كان الكتاب يخص صاحبة الدار ، وهي فتاة عازبة ، في الثامنة والثلاثين ، كانت تقطن المنزل قبل عدة اسابيع وكانت عضواً عادياً في الحزب النازي ، ولكنها تتمتع بمركز ينتهي بها الى ان تكون ، حسب المبدأ الذي وضعه الجيش ، في الزمرة التي يجب ان توضع بصورة آلية وراء القضبان . لقد كان س .. هو الذي اوقفها ؛ وها هو ذا يفتح الكتاب للمرة الثالثة منذ عودته من المستشفى ، ويقرأ الجملة القصيرة المثبتة على صفحة الغلاف . كانت مكتوبة بالحـبر ، بخط دقيق ،

باللغة الالمانية ، وكانت الكلمات تنم عن اخلاص لا حدود له ، تبرز منها هـــذه العبارة : « يا الهي .. الحياة هي الجحيم ! »

جملة وحيدة في الصفحة ، في سكون الحجرة الموجع ، لا شيء قبلها ولا شيء بعدها ، تحمل اهمية حكمة لا ترد ، كأنها حكمة ازلية ..

وراح س .. يتأملها عدة دقائق ، وهو يقاوم بكل قواه لئلا يستسلم لها . ثم امسك بالقلم بقوة أشد من كل ما استطاع أن يظهر به منذ أسابيع في كل ما قام به من أعمال ، وخط بالانجليزية تحت العبارة الأولى :

« أيها الاباء والمعلمون ! إني لأتساءل : ما هو الجحيم ؟ إني اصر على أنه عذاب من لا يقدر على الحب . »

واخيراً كتب اسم دوستويفسكي تحت العبارة ، ثم ادرك بـــذعر هزه هزةً عنيفة بأن ما كتبه لم يكن مقروءاً ، فاذا هو يغلق الكتاب .

وما لبث أن أمسك بسرعة شيئاً آخر من على المنضدة ؛ كان ذلك رسالة من اخيه الاكبر من « الباني » .

كانت الرسالة هناك قبل دخوله المستشفى بفترة طويلة ، ففضها ، وقرر فيما بينه وبين نفسه أن يقرأها حتى نهايتها ، ولكنه ما كاد يقرأ مطلع الصفحة الاولى حتى توقف بعد هذه الكلمات : « الان ، وقد انتهت هذه الحرب اللعينة ،واصبح لديك قدر من الفراغ بلا ريب ، أرجو أن ترسل للأولاد زوجاً من البنادق او من الصلبان المعقوفة . » فما كان منه الا ان مزقها ، وراح ينظر الى ممزّقها ، في سلة المهملات ، واذا هو يرى في داخل الغلاف صورة لم يلاحظها من قبل . واستطاع ان يميز قدمَيْ شخص ما ، على مرج في مكان ما ، واسند ذراعيه على المنضدة ، ثم القى برأسه فوقها . كان يشعر بألم يجتاحه من رأسه حتى أخمص قدميه . كانت مراكز الألم تبدو كأنها تتشعب . كان ذلك شبيهاً بشجرة عيد الميلاد التي تتوزع فيها الانوار بطريقة الاشتقاق ، فاذا تعطل احد المصابيح انطفأت الانوار جميعها .

وفتح الباب بدفعة قوية دون أن يقرع عليـــه ، وادار س .. رأسه ، فرأى الرقيب ز .. واقفاً عند المدخل . كان الرقيب ز .. يشارك س .. سيارة الجيب، ولم يفارقه منذ اليوم ج.. لقد اشتركا معاً في خمس معارك. كان يسكن في الطابق الأول . ولكنه كان قد اعتاد الصعود لرؤية س .. عندما تكون لديه اخبـــار يقصها عليه ، او متاعب يريد ان ينساها .

كان ز .. رجلاً ضخماً ، في الرابعة والعشرين، يلائم وجهه عدسة التصوير كل المـــلاءمة . ولقد سمح لاحدى المجلات ان تلتقط له بعض الصور أثناء الحرب في غابة « هورتفن » ، كما سمح بتصويره عن رغبة وهو يحمل ديكاً هندياً في كل يد . وسأل س .. :

– هل تقوم بكتابة رسائلك ؟ يا إلهي ! كأنما هي غرفة لحراسة الموتى ..

كان يؤثر الغرف المضاءة عن طريـــق السقف . واستدار س .. في كرسيه ، وطلب اليه ان يدخل وان يحترس من السير فوق الكلب .

– فوق ماذا ؟

– فوق «ألفان» ! انه بالضبط تحت قدميك ، ياكلاي . ارجو ان تشعل هذا الضوء اللعين ..

وضغط كلاي على الزر ، واجتاز غرفـة الخادمة الصغيرة ، وجلس على حافة السرير قبالة زميله .

كان الماء يقطر من شعره الاحمر الممشط حديثاً ، الماء الذي اضطر لوضعه عليه حتى يسهل تصفيفه ، ومن الجيب الأيمن لقميصه الرمادي المخضر ، كان مشط وغطاء قلم يبرزان بصورة مهملة . اما الجيب الايسر فكان يحمـــل شارة الفدائي « التي لم يكن يحق له نظرياً ان يحملها » ، وشريط الخدمة العسكرية مزداناً بخمس نجوم من البرونز تشير الى المعارك التي خاضها . « وكانت نجمة فضية واحدة تكفي لذلك ، » واخيراً وردة الخدمة قبل معركة « بيرل هاربور » .

وتنهد بصوت عال وقال :

ـ يا الهي القادر !

ولم يكن ذلك ليعني شيئاً . انه الجيش . وأخرج علبة سجائر من جيب قميصه ونقر عليها لاخراج لفافة ، ثم اعاد العلبة الى جيبه ، وزرر الجيب ، وراح يجول ببصره في الغرفة وهو يدخن . وتوقفت عيناه اخيراً على المذياع ، فاستتلى قائلا :

ـ هيه ! هناك برنامج هائل في المذياع يبدأ بعد عدة لحظات : بوب هـوب مع مجموعة كبيرة .

واجاب س . وهو يفتح علبة سجائر جديدة ، بانه قد اقفـل المذياع منذ لحظة ودون ان ينزعج كلاي راح ينظر اليه وهو يحاول اشعال لفافة . ثم اردف قائلا بحماسة متفرج :

ـ يا إلهي ؟ لو ترى إلى يديك القذرتين ! انهما ترتعشان .. هل تعرف ذلك؟

واشعل س .. لفافة ، وهز رأسه ، واعلن ان كلاي يتميز برؤية التفاصيل .

ـ اوه . لا بأس . خ . لقد جحظت عيناي حين رأيتك في المستشفى . هل تعلم ماذا كنت تشبه ؟ كنت تشبـه جثة قذرة . كم كيلو غراماً نقص وزنك ؟ هل تعرف ؟

ـ لا ادري . هل تلقيت رسائل أثناء غيابي ؟ وهل عندك أنباء عن لوريتا ؟

كانت لوريتا هذه خطيبة كلاي . وكانا ينويان الزواج متى سنحت لهما الفرصة. كانت تكتب له بانتظام من جنتها ذات اشارات التعجب الثلاث ، والملاحظات الخاطئة . وطوال فترة الحرب كان كلاي يطلع س .. على جميع رسائل لوريتا مهما كانت خاصة. بل انه كان يرغب كل الرغبة في قراءتها له كلما كثرت الامور الخاصة فيها . وما ان تنتهي القراءة حتى يطلب الى س .. أن يضع له مسودة الجواب ، او عناصره على الاقل ، وان يضمنها عدداً من الكلمات الفرنسية والالمانية الـتي

تترك في النفس بعض التأثير .

قال كلاي ساهياً :

ــ نعم ، عندي رسالة منها . وصلتني نهار البارحة وهي في غرفتي ، في الطابق الأسفل . وسأطلعك عليها عما قليل . ثم جلس جلسة مستقيمة على حافة السرير ، والتقط انفاسه ، وتجشأ بصوت عال ، ولكنه لم يصب من هذه الحركة الارتياح المنشود ، ثم قال :

ــ هذا الكلب اخوهـا ترك البحرية بسبب من ردفه . إن له كَسَرِدْفا .. هذا النذل .

وتصلب من جديد . وحاول ان يتجشأ مرة اخرى . ولكن النتيجـة كانت اضعف من سابقتها . وبدت امارات الحيوية على وجهه :

ــ هيه ، قبل أن أنسى ! علينا أن ننهض غداً في الساعه الخامسة صباحـاً . سنقوم بجولةفي هامبورغ او في مكان مماثل لنشتري سترات من طراز سترةآيزنهاور لكل المفرزة .

قال س .. بلهجة غير ودية بانه لا يرغب كثيراً في سترة من هذا الطراز .

وبدا على كلاي كأنما دهش ، او صدم بعض الشيء :

ــ اوه ! انها لجميلة عندما ترتديها . ماذا حل بك ؟

ــ لا شيء . . ولكن لماذا نستيقظ في الخـــامسة ؟ لقد انتهت الحرب ، يا إلهي !

ــ لا ادري . يجب أن نعود قبل الافطار . هناك استمارات جديدة لا بد أن تملأ قبل الافطار .. لقد طلبت من بولينغ أن يوزعها لنتمكن من كتابتها هـذا المساء . انها مكدسة فوق مكتبه . وقد رفض توزيعها . انه لا يريد أن يفتح

الاغلفة الآن .. ابن الحرام .

ومكثا يشتمان بولينغ فترة ، دون ان يتبادلا الحديث .

وفجأة ، نظر كلاي الى س .. باهتمام جديد ، وقال :

ـ هيه ! هل تدري بان جانباً من وجهك القذر لم يعد في مكانه الطبيعي ؟

قال س .. بانه يعرف ذلك حق المعرفة ، واوقف تشنجات وجهه بيده .

وراح كلاي يراقبه فترة من الزمن . ثم قال بشيء من الحماسة ، كما لو كان يزف نبأ فريداً :

ـ لقد كتبت الى لوريتا بانك مصاب بوهن عصبي .

ـ أوَفعلتَ ذلك ؟

ـ نعم ، انها مولعة بمثل هذه الأمور . فهي تتخصص في علم النفس .

وتمدد كلاي على السرير ، دون ان ينزع حذاءه .

ـ أتدري ماذا تقول ؟ انها تقول بان الناس لا يصابون بالوهن العصبي بسبب الحروب فحسب ؛ وتضيف الى ذلك أنك لا بد أن تكون غير متماسك الشخصية منذ ولادتك التعيسة .

ووضع س.. يده على عينيه، وكأن النور المنبعث من فوق السرير كان يبهره، وقال بان الطريقة التي تنظر بها لورتيا الى الامور تشعره بالسرور دائماً .

فحدق فيه كلاي :

ـ اسمع ايها النذل ، انها أكثر منك دراية بأمور علم النفس .

قال س ..

ـ الا تريد ان تكلف نفسك قليلاً من العناء ، وترفع قدميك القذرتين عن

سريري ؟

وأبقى كلاي قدميه حيث كانتا عدة ثوان ، ولسان حاله يقول : أعرف حق المعرفة ماذا استطيع ان افعل بقدمي . ثم تركهما تترنحان على الارض ، واستوى جالساً .

— اني سأنزل على كل حال . هناك مذياع في حجر « ووكر » الحقير .. ولكنه لم ينهض مع ذلك .

— هيه ، لقد كنت لتوي احدث ابن الكلب .. برقشتاين ، ذلك الغر الذي يقطن الطابق الاسفل، هل تذكر اليوم الذي كنا نفر فيه نحو «فالوني» انا وانت؟ يوم مكثنا ساعتين قذرتين نتشاجر ؟ يوم صرعت ذلك الهر القذر الذي قفز فوق مقدمة سيارة الجيب ، بينما كنا منطرحين في حفرة ؟ أتذكر ذلك ؟

— نعم ، اذكر جيداً .. لا تعد بنا الى قصص ذلك الهر ياكلاي ! ليذهب الى الجحيم . لا اريد ان اسمع شيئاً عنه أبدا ..

— لا ، كل ما اريد ان اقوله هو اني ذكرت ذلك للوريتا في احدى رسائلي، وقد ناقشوا الأمر هناك مع جميع طلاب علم النفس اثناء الدرس ، ومع الاستاذ القذر .. مع الناس جميعاً ..

— شيء مذهل .. لم تعد بي أية رغبة لسماع حرف واحد عن ذلك ياكلاي .

— اسمع . اتعرف لماذا رميت الهر برصاصة ؟ أتعرف ماذا تقول لورتيا ؟ انها تجزم بأني كنت مجنوناً بعض الوقت اني لا امزح .. بسبب القنابل و .. الخ ..

ومرر س .. أصابعه مرة واحدة بين خصلات الشعر المتسخ . ثم وضع يديه أمام عينيه من جديد ليقيهما النور .

— لم تكن مجنونـــاً كنتَ تقوم بواجبك ليس إلا .. لقد قتلت ذلك الهر الذي يحمل صفة إنسان ، كما يفعل ذلك كل انسان يمر في الظروف ذاتها .

ونظر اليه كلاي نظرة ارتياب :

ــ ماذا تعني ؟

ــ كان ذلك الهر جاسوساً . كان من واجبك أن ترميه برصاصة . كان المانياً مصغراً ، متنكراً في جلد هر قذر . ولذلك لم يكن هناك أية وحشية او قسوة ، او شيء مقرف .. حتى ولا ..

وأجاب كلاي وهو يزم شفتيه :

ــ بحق السماء ، ألا تستطيع أن تتكلم جاداً ولو مرة واحدة .

وشعر س .. بغتة بألم في معدته ، فهرع الى الامام ، وامسك بسلة المهملات في الوقت المناسب تماما ، وعندما رفع رأسه ، التفت نحو رفيقه . كان رفيقــه واقفا في حيرة شديدة ، في منتصف الطريق ، بين السرير والباب .

وهم س .. بالاعتذار ، ثم غير رأيه ، واخرج لفائفه . قال كلاي :

ــ الا تريد أن تنزل لسماع بوب هوب بالمذياع ؟

كان يتكلم جاداً ، ولكنه بقي محتفظاً بلهجة الصديق .

ــ سيعود ذلك بشيء من الفائدة عليك . اؤكد لك .

ــ اذهب وحدك يا كلاي .. إني سألقي نظرة على مجموعة الطوابع الــتي املكها .

ــ ماذا ؟ أعندك الآن مجموعة طوابع ؟ إنه لنبأ جديد .

ــ اني امزح .

وخطا كلاي خطوتين نحو الباب ، ثم اردف قائلاً :

ــ قد اذهب الى آيشتاد بعد قليل . هناك حفلـة راقصة تقام مساء اليوم .

وربما رقصنا حتى الثانية . ما رأيك ؟

ـ لا، شكرا . اذا ما خطر لي ان ارقص فسوف اجرب عدة خطوات هنا .

ـ حسناً ، مساء الخير ! لا تقلق نفسك كثيرا !

واغلق الباب ، ثم فتحه على التو .

ـ هيه ، أتوافق ، اذا ما دسست تحت باب غرفتك رسالة للوريتا ؟ لقد حشوتها ببضع كلمات المانية . الا تريد ان تصححها لي ؟

ـ نعم ، دعني الان في هدوء !

قال كلاي :

ـ موافق . هل تعرف ماذا كتبت لي امي ! انها كتبت لي بأنها مسرورة لبقائنا طوال فترة الحرب معاً ، في سيارة الجيب ذاتها ، و ... قالت بأن رسائلي اصبحت اكثر ذكاء منذ اجتمعنا معاً .

ورفع س .. رأسه ، ونظر اليه ، وبذل جهدا كبيرا ليقول له :

ـ شكرا ، اشكرها بالنيابة عني .

ـ لن أتأخر عن ذلك . طاب مساؤك .

وصفق وراءه الباب بعد ان خرج .

مكث س .. جالساً يحدق في الباب فترة طويلة ، ثم ادار كرسيه نحو المنضدة ، وتناول الالة الكاتبة من فوق الارض ، وافسح لها مكانا فوق المنضدة المكتظة بالاشياء المختلفة ، ثم ازاح كومة الرسائل والرزم التي لم يشأ ان يفتحها . وخطر له انه ربما شعر بشيء من الراحة اذا ما كتب الى صديق قديم له من نيويورك .

ولكن اصابعه كانت قد عادت الى الارتعاش الى حد انه لم ينجح في ان يدس

الورقة بشكل صحيح في الملف ، فاذا هو يبقي يديه على وركيه دقيقة ، ثم يعاود التجربة من جديد . ولكنه لم يلبث في النهاية ان دعك الورقة بين أصابعه ، ورماها أيضاً وذكر نفسه بان عليه أن يذهب لإفراغ سلة المهملات خارج الغرفة ، ولكنه لم يفعل شيئا ثم صلب ذراعيه فوق الالة الكاتبة ، واسند رأسه فوقها ، واغمض عينيه .

وعندما عاد الى فتحها بعد عدة دقائق، بسبب من ألم مضن ، وقع بصره على رزمة صغيرة مغلقة ، لفت في ورق أخضر ؛ ويبدو أنها سقطت على الاغلب من الكومة حين أفسح مكانا للالة الكاتبة . ورأى ان العنوان قد عدل عدة مرات، واستطاع أن يميز على احد وجهيها فقط ثلاثة من عناوين قطاعاته البريدية السابقة .

ولكي يقوم بعمل ما ، فتح الرزمة دون أن يلقي نظرة على اسم المرسل . فتحها بأن أحرق الخيط الذي يربطها بعود ثقاب . وكان اهتمامه يتركز في النظر الى عود الثقاب اكثر من فتح الرزمة . ولكنه في النهاية فتحها .

وفي داخل علبة ، كانت هناك رقعة صغيرة مكتوبة بالحبر ، وضعت فوق شيء صغير مغلف بورق حريري .

وامسك بالرقعة ، وراح يقرأ :

١٧ شارع ...

دوفون

٧ حزيران ١٩٤٤

عزيزي العريف س ..

ارجو أن تغفر لي اني تاخرت ثمانية وثلاثين يوما ، قبل ان ابدأ المراسلة . ولكني كنت مشغولة جدا . لأن عمتي أصيبت بالتهاب في الحلق كاد يقضي عليها؛ فاضطررت لأن أتحمل التبعة تلو الاخرى . ومع ذلك ، فقد ذكرتك كثيرا ، ولم

تغب عن بالي تلك الفترة اللطيفة التي أمضيناها معا يوم ٣٠ نيسان ١٩٤٤ ما بين الساعة ٣،٤٥ والساعة ٤،١٥ فيما اذا كنت قد نسيت .

لقد تاثرنا جميعا ابلغ التاثير ، واضطربنا كلنا لدى سماع أنباء اليوم ج .. إننا نأمل ان يقرب ذلك اليوم نهاية الحرب بسرعة ، ونهاية اسلوب في الحياة أقل ما يقال عنه إنه سخيف . إننا انا وشارل ، شديدا القلق من اجلك . نرجو ان لا تكون بين الذين قاموا بالهجوم الاول في شبه جزيرة « كوتنتان» هل كنت فيهم؟

ارجو أن تجيني في اسرع وقت ممكن ..

تحياتي ، وودي ، لزوجتك ..

باخلاص

إيسمه

حاشية : اسمح لنفسي بأن ارفق بهذه الرسالة ساعتي . يمكنك أن تحملها طوال مدة الازمة . لم الاحظ أثناء لقائنا الخاطف ما اذا كنت تحمل واحدة . إن هذه الساعة ذات غلاف عازل تماماً . وهي ضد الصدمات . ولها مميزات أخرى كأن تسجل المسافة التي تقطعها سيرا على قدميك اذا ما رغبت في ذلك . إني على يقين من انها تفيدك اكثر مما تفيدني في هذه الايام العسيرة ، وانك ستقبلها ، وتحتفظ بها كتميمة تقيك الأذى .

شارل الذي أعلمه الان القراءة والكتابة ، والذي يبدو لي تلميذا حاد الذكاء. يود ان يضيف الى الرسالة بضع كلمات : رجائي اليك ان تكتب لي حالما يسمح لك الوقت والرغبة بذلك .

هالو ، هالو ، هالو ، هالو ، هالو

هالو ، هالو ، هالو ، هالو ، هالو

حب وقبلات

شارل .

انقضت فترة طويلة قبل ان يقدر س .. على ان يترك الرسالة ، ويخرج ساعة والد ايسمه من العلبة . وعندما استطاع ذلك في النهاية رأى زجاجهـا مكسورا بسبب النقل من مكان الى آخر . وراح يتساءل عما اذا كانت الساعة قد أصيبت بأضرار اخرى ، ولكنه لم يجرؤ على ربطها ليتاكد من ذلك . لقد اكتفى بالبقاء جالسا هناك فترة اخرى غير قصيرة . ثم أحس فجاة بشيء من الغبطة .

وتثاقلت أجفانه ، وراح في سبات عميق .

إنك تتحدثين الى رجل غارق في النوم يا ايسمه !

رجل يعيش أبدا في أمل واحد ..

أن يعود متمتعا بكامل قـ ..

بكامل قواه ..

جميل في ...
وخضراوان عيناي

٧

عندما رن جرس الهاتف سأل الرجل ذو الشعر الرمـــادي المرأة الشابة ، بدونما اهتمام ، ما اذا كانت ترى مانعاً في أن يجيب عليه .

واصغت اليه المرأة الشابة كما لو أنـه كان يتكلم من مكان سحيق ، وادارت وجهها نحوه ، وعينها المعرضة للنور مغلقة. أما العين الاخرى فكانت تحملق بدون دهشة . كانت عميقة الزرقة الى حد جعلها تبدو كأنها بنفسجية .

واستحثها الرجل ذو الشعر الرمادي على الاسراع ، فنهضت متكئة على المرفق الايمن بسرعة تنم عن الامتعاض ، ورفعت شعرها عن جبينها بيدهـــا اليسرى ، وقالت :

ــ يا آلهي ! لا ادري . ما رأيك أنت؟

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

ــ خ .. الأمر سواء على كل حال .

ودس يده اليسرى تحت ذراع المرأة الشابة ، فوق المرفق الذي كان تتكىء عليه . ثم ارتفعت اصابعـــه باحثة عن مكان دافىء تحت الابط . والتقط سماعة الهاتف باليد اليمنى ، واضطر ان يرفع جسمه قليلا للوصول اليه ، فاذا رأسه يرتطم بالمصباح المجاور .

وما هي الا لحظة حتى انسكب ضوء المصبـــاح بقوة على شعره الرمادي ، القريب من البياض ، فبدا جميلا .

كان مشعثاً بعض الشيء في تلك الاثناء ، ولكنه مع ذلك كان يدل على انـه

قد قص حديثاً عند الحلاق .

كان شديد القصر عند العنق والصدغين ، طويلا في أعلى الرأس والجانبين : طراز كلاسيكي ، مع لمسة بسيطة تدل على الاناقة .

وتناول السماعة ، وقال بصوت عال :

ـ آلو ؟

كانت المرأة الشابة تنظر اليه ، وهي ما تزال متكئة علي مرفقها . أما عيناها المتسعتان فلم يكن يبدو عليهما شيء من القلق ولا من التأمل،ولم تكونا تعكسان إلا لونيهما .

ومن الطرف الآخر للسماعة سمع صوت رجـــل ، صوت بارد لا لون له ، استخدم بلهجة سوقية ، تكاد تكون مقذعة ، حتى ليخيل للمرء أنه قد استعير للدعاية .

ـ أهذا أنت يا«لي» ؟ هل أيقظتك ؟

وتبادل الرجل ذو الشعر الرمادي نظرة سريعة مع المرأة الشابة ، ثم اردف :

ـ من هناك ؟ أهذا انت يا ارثور ؟

ـ نعم ! هل أيقظتك !

لا ، لا ، كنت مستلقياً على سريري أقرأ ، هل هناك ما يزعجك ؟

ـ قل لي بربك هل أيقظتك أم لا ؟ بصراحة ، كلمة رجل ؟

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

ـ لا ، لا ، مطلقاً ؛ واذا اردت الصراحة فاني لا أقوى على اغماض عيني اكثر من اربع ساعات طوال ..

ـ اني اتصلت بك يا « لي » ، لأسألك عما اذا كنت قد لاحظت ، عن طريق

المصادفة ، في أية لحظة انسحبت جواني ؟ ألم تلاحظ اتفاقاً انها غادرت المكان مع آ ل ايللنبو غنز . قل بربك !

والقى الرجل ذو الشعر الرمادي نظرة سريعة من جديد الى يساره ، ولكنها كانت تتأمله بعينين زرقاوين اشبه ما تكونان بعيني شرطي ايرلندي :

ـ لا ، لم الاحظ ذلك يا ارثور .

كانت عيناه تحدقان في ركن الغرفة المظلم ، مكان اتصال الجدار بالسقف ، واستطرد قائلا :

ـ ألم تعد معك اذن ؟
ـ لا ، لا ، يا آلهي ! ألم ترها اذاً تخرج ؟
قال الرجل ذو الشعر الرمادي :
ـ أتريد الصراحة ؟ لا ، اني لم الحها يا ارثور . اني لم أرها طوال السهرة . لم اكد اجتاز المدخل حتى وجدتني غارقاً في نقاش محتدم مع ذلك المسعور الفرنسي ، او النمساوي ـ لا يعرف ذلك الا الشيطان ـ . ان كل هؤلاء الاجانب لا هم لهم الا تصيد النصائح الحقوقية المجانية . لماذا تلح بالسؤال ؟ ماذا هناك ؟ هل اختفت جواني ؟

ـ اوه ! يا آلهي ! لا أدري . لا أعرف شيئاً . انت تعرفها عندما يعن لها خاطر ما . ربما كانت قد ..

فسأل الرجل ذو الشعر الرمادي :
ـ هل اتصلت بآ ل ايللنبوغنز ؟

ـ نعم ، لم يعودوا بعد للمنزل . لم أعد أعرف ماذا اعمل؟ يا آلهي ! إني لست واثقاً من أنها خرجت معهم . إني لا اعرف الا شيئاً واحداً : خ .. اعرف ذلك جيداً .. وهو أني قد سئمت من الاهتمام بها . لست هازلا فيما اقول . اني لا اهزل هذه المرة . لقد سئمت . خمس سنوات يا آلهي ! ليست بالشيء القليل .

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

– دع عنك ذلك . حاول ان تنظر الى الموضوع بهدوء يا ارتور . اذا صدقت معرفتي بآل ايللنبوغنز فاني أرجح ان يكونوا اقد قذفوا بأنفسهم في سيارة أجرة، ومروا لحظة بالقرية . ولن يمضي وقت طويل حتى يكون الثلاثة عندك .

– يخيل الي انها قد ذهبت تطارح الغرام أحد الأوباش في المطبخ . هذا ما اتصوره بالضبط . اني اعرفها حق المعرفة عندما تركب رأسها . انها تتعلق بعنق اول نذل يأتي الى المطبخ . لقد سئمت ذلك . يا آلهي . أقسم لك . إني لاأهزل . خمس سنوات ق ..

وقاطعه الرجل ذو الشعر الرمادي :

– أين انت الآن يا ارتور ؟ في المنزل ؟

– نعم ، يا آلهي ، في المنزل ، في العش الهادىء ! ..

– أصغ الي . لا تقلق نفسك هكذا .. ماذا هناك ؟ هل انت ثمل ؟

– لا أدري . ليأخذني الشيطان ان كنت أدرى !

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

– لا بأس . أصغ الي الآن . قليلاً من الهدوء ! انت تعرف آل ايللنبوغنز ، بحق الآله ! كل ما يمكن ان يكون قد وقع هو انهم ربمـــا لم يلحقوا بالقطار الأخير . وقد يحطون عندك هم الثلاثة بعد لحظة ، مرحـــين كالعصافير ، بعد جولة في ..

– لقد كانوا بالسيارة .

– من قال ذلك ؟

– الابنة ، مربية الأطفال . لقد تبادلنا حديثاً طويلاً . وأفضى كل منا للآخر

ما يحمله في صدره . نحن صديقان كخنزيرين . نحن حبتان من البازاليا في قشرة واحـــدة .

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

ـ لا بأس ، لا بأس، الا تستطيع ان تهدأ قليلاً الآن ، وتستريح بعض الشيء؟ سيهبطون على الأغلب ، هم الثلاثة ، فوق ظهرك قبل ان تقول اوف . ثق بي . انت تعرف ليونا ، أليس كذلك ؟ لا يعرف الا الشيطان وحده لماذا يجيئون دائماً الى نيويورك ،والرغبة في التسلية، الرغبة من طراز« صنع في كونكيتكوت » تملأ حقائبهم . تعرف ذلك جيداً ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ؛ اعرف ، اعرف .. أخيراً لم اعد أعرف ..

ـ انت تعرف حتماً. فكر قليلا . ربما كانوا قد حملوا جواني معهم من رأسها، وقدماها الى الأمام .

ـ أصغ الي ، لم يستطع احد قط ان يحمل جواني الى أي مكان ! لاتحاول تهدئتي . بهذه القصة !

قال الرجل ذو الشعر الرمادي بهدوء :

ـ لا احد يحاول تهدئتك يا ارتور ؟

ـ اعرف ! اعرف ! اعذرني . يا آلهي! اني اكاد افقد صوابي . قل لي بربك هل ايقظتك ؟

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

ـ لو كان الامر كذلك لصارحتك به .

وسحب يده اليسرى وهو ساه من تحت إبط المرأة الشابة :

ـ اصغ الي يا ارثور . هل تقبل نصحاً ؟

وامسك بشريط الهاتف القريب من الجهاز بين اصابعه واردف :

ـ اني جاد فيما اقول . هل تقبل نصحاً ؟

ـ نعم ، لا ادري يا آلهي ! اني احول بينك وبين النوم . اني اتساءل بكل بساطة لماذا لا اقطع ..

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

ـ أصغ الي لحظة . اني جاد فيما اقول . ستذهب الى فراشك دونما ابطاء ، وتستسلم للهدوء . اشرب قدحاً أخيراً ، اندس تحت ..

ـ أكأس أخرى ؟ .. هل تمزح ؟ ياللشيطان ! لقد افرغت ليتراً كاملا في هاتين الساعتين ! أكأس اخرى ؟ لقد شربت حتى لم اعد اقدر على ..

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

ـ لا بأس ، لا بأس ؛ اذهب اذاً للنوم ، وهدىء من روعك . أتسمعني ؟ قل اخيراً ماذا يجديك ان تلف وتدور .. وتحطم أعصابك .. ؟

ـ نعم ، اعرف ، لن اهتم بعد الآن . ولكن يا آلهي ! لا يمكن ان يثق المرء بها ! أقسم لك ! لا تستطيع ان تثق بها اذا ما ابتعدت عنك قيد ... لا أدري ماذا؟ ! اوه ! ثم ما قيمة ذلك ؟ ... اني لا أملك زمام أمري على الاطلاق .

قال الرجل ذو الشعر الرمادي .

ـ أصغ الي . انس كل ذلك الآن . لا تعد الى التفكير فيه . أسد الي معروفاً . جرب ان تطرد ذلك من ذهنك . انت تعرف جيداً ، انك الآن تجعل .. اني جاد فيما أقول . انك تصنع من الحبة ..

ـ ما افعل ؟ هل تدري ما افعل ؟ اني أشفق على نفسي من ان أقوله لك .

هل تدري ماذا يخطر لي ان أفعل كل ليلة عندما اعود الى المنزل؟ اتريد ان تعرف؟
ـ أصغ الي ، يا ارثور .. ليس هذا ..

ـ أصغ إلي لحظة ! سأقوله لك . باسم الشيطان ! اني لا أكاد أقوى على ضبط نفسي . اني لا أكاد احبس رغبتي عن التفتيش في كل خزانة من خزانات المنزل اللعينة . اقسم لك . اني انتظر كل ليلة عندما اعود ان اصادف حشداً من الانذال مبعثرين في كل ارجاء المنزل من خـــدم في المصاعد ، الى بائعـين ، الى رجال شرطة ..

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

ـ لا بأس ، لا بأس ، حاول تهدئة نفسك قليلا .

وحانت منه التفاتة الى اليمين فرأى السيجارة التي اشعلها اثناء السهرة قبل قليل ؛ كانت ما تزال تقبع باتزان على حافة منفضة السجائر ولكنها كانت تبدو منطفئة ، فلم يلتقطها ، ثم هتف :

ـ أصغ الي يا ارثور . لقد سبق ان قلت لك مرات عديدة بأن خطأك يكمن بالضبط في ذلك . هل تعرف ماذا تفعل؟ اتريد ان اقول لك ماذا تفعل؟ انك تفتش عن قبعات تحت قدميك . اني اتكلم جاداً . انك تفتش عن أي شيء يمكنك به تعذيب نفسك . الحقيقة هي انك انت الذي توحي الى جواني بالأفكار السيئة .

ثم عدل لهجته ، وأردف :

ـ انت محظوظ لأنها فتاة صغيرة طيبة . اؤكد لك ؛ انك لا تثق بها مطلقاً . انك لا تثق بلطفها ، ولا تثق بتفكيرها ، اني اقول ذلك لأنك فتحت الموضوع ..

ـ التفكير ؟ هل تمزح ؟ انها لم تملك قط غرامين من التفكير في أية لحظة . انها مجرد حيوان ..

وبدا على الرجل ذي الشعر الرمادي ، وقد اتسع منخراه ، انه يلتقط أنفاسه

بعمق ، واستطرد قائلاً :

ـ اننا جميعاً حيوانات ، اذا نظرنا الى صميم الأشياء . اننا جميعاً حيوانات .

ـ ما هذا الهراء ؟ اني لا احمل ذرة من الحيوانية القذرة ! ربما كنت أغبى وانذل ابن حرام في القرن العشرين ، ولكني لست حيواناً ، فلا تتعب نفسك ، ليس في أي أثر من صفات الحيوان .

ـ أصغ الي يا ارثور . ان ذلك لا يوصلنا الى . .

ـ التفكير ! بحق السماء ! لا يمكنك ان تعرف كم يبـــدو ذلك مضحكاً ، انها تحاول الظهور بمظهر المرأة المثقفة !

ليس ذلك مثيراً للضحك فحسب . بل هو شيء يجعلك تنفزر من الضحك . انها تقرأ صفحة التسلية في المجلات ، وتشاهد التلفـــزيون حتى ما تـكاد تبصر بعينيها. تلك هي ثقافتها ! هل تريد ان تعرف ممن تزوجت ؟ لقد تزوجت أحط الممثلات ، والطبيبات النفسانيات ، والروائيات ، والمواهب الاخرى التي يمكن ان تكتشف ، والباقيات على قيد الحياة . . تزوجت أحطهن نمواًونضجاً فكرياً . لقد تزوجت أغبى العبقريات التي يمكن ان تصادفها في نيويورك ، واضألها شأناً . كل هذا كنت تعرفه ، اليس كذلك ! باسم الشيطان ! ان ذلك مضحك لدرجة اني لا ارغب في الحياة يوماً آخر ! انها مدام بوفاري تحضر الدروس المسائية في كولومبيا ! مدام . .

قال الرجل ذو الشعر الرمادي بصوت متعب :

ـ من ؟

ـ مدام بوفاري التي تتابع دروس النقد التلفزيوني ! بحق السماء ! انك لا تستطيـع ان تعرف كيف . .

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

ـ انت على حق .. ولكن الا ترى ان ذلك لا يوصلنا الى نتيجة .

ثم التفت ، ووضع اصبعين على شفتيه مشيراً الى المرأة الشابة ان تنـاوله سيجارة . وتابع هاتفاً :

ـ ثم انك لا تدرك طبيعة الاشياء ولو كنت رجلا شديد الذكاء .

وتحرك قليلا ليمكن المرأة الشابة من التقاط السجائر من وراء ظهره .

ـ اني جاد فيما اقول . يظهر ذلك في حياتك ، يظهر ذلك ..

ـ التفكير ، بحق السماء ! ذلك ما يقتلني ! يا آلهي القادر على كل شيء ! هل سمعتها مرة تتحدث عن شخص ما ، أعني عن رجل ما ! اذا لم يكن لديك ما تفعل يوماً ، فأولني هذا الجميل ، واجعلها تتحدث اليك عن شخص او آخر انها تقول عن كل رجل تصادفه في طريقها بانه (جذاب حتى الجنون) لا فرق بين ان يكون اكبر الناس سناً ، او اشدهم بدانة ، او اكثرهم قذارة

قال الرجل ذو الشعر الرمادي بجفاف :

ـ انت على حق ، ولكن هذا لا يجدي ، لا يجدي شيئاً .

والتقط احدى السجائر المشتعلة التي قدمتها له المرأة الشابة ، وكانت قـد اشعلت اثنتين ثم قال وهو ينفث الدخان من أنفه :

ـ بالمناسبة ، كيف سارت الأمور معك اليوم ؟

ـ ماذا ؟

وردد الرجل ذو الشعر الرمادي :

ـ كيف سارت الامور معك اليوم ؟ كيف كانت نتيجة القضية ؟

ـ اوه ! يا آلهي ! لم اعد اعرف . لقد سارت بصورة سيئة . هل تدري ماذا فعل ليسنبرغ ، محامي الادعاء قبل ان القي دفاعي بدقيقتين ! لقد ادخل خادمة

مجنونة مع الشراشف كدليل اثبات . يا آلهي ! لقد كانت مملوءة باوساخ البق .

وسأل الرجل ذو الشعر الرمادي وهو ينفث كمية اخرى من الدخان :

ـ وماذا جرى بعد ذلك ؟ هل خسرت ؟

ـ أتعرف من كان يجلس في المقعد؟ الأم فيتوريو. لأذهب الى الجحيم اذا كنت اعرف لماذا يقف هذا المخلوق ضدي ؟ لم اكد افتح فمي حتى كان قد سقط علي، لا يمكن ان يناقش المرء مع مخلوق مثله . ذلك مستحيل .

وادار الرجل ذو الشعر الرمادي رأسه ليرى ماذا كانت تفعل المرأة الشابة . كانت تلتقط منفضة سجائر لتضعها بينهما . ثم هتف :

ـ اذاً ، لقد خسرت . أليس كذلك ؟

ـ ماذا ؟

ـ اسألك عما اذا كنت قد خسرت أم لا ؟

ـ نعم ، كنت على وشك ان اذكر لك ذلك . لم يكن امامي اية فرصة للفوز مع كل هؤلاء . قل لي : أتظن بان جونيور سيقفز حتى السقف ؟ لا لأني أبالي بذلك . خ .. بل اريد ان أعرف رأيك . أتظن انه سينفجر من الغيظ ؟

ورمى الرجل الرمادي لفافته بيده اليسرى على حافة المنضدة، وقال بهدوء :

ـ ليس من الضروري أن يقفز الى السقف . ولكن هناك مع ذلك قليل من الحظ في الا يقفز الى عنقك . انك تعلم منذ كم من الوقت يهتمون بهـذه الفنادق الثلاثة القذرة ! انه شانلي العجوز الذي ابتدأ ..

ـ أعرف ، أعرف ، اذا لم يكن جونيور قد شرحها لي خمسين مرة فمعنى ذلك انه لم يذكرها على الاطلاق . انها أجمل قصة سمعتها في حياتي . انا معك ، لقد خسرت هذه الدعوى ، وماذا بعد ذلك ؟ اولا انها ليست غلطتي . اولاً إن رأسي ليس ملكاً خاصاً له . لقد كان فيتوريو طوال الدعوى يرشقني بسهامه . ثم اقبلت

هذه الخادمة الحمقاء تنشر شراشفها الملأى بقذارات البق .

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

ـ انا لا اقول بأنها خطيئتك . لقد سألتني ما اذا كنت اعتقد بـــان جونيور سيقفز الى السقف ، وقد اعطيتك رأيي . .

ـ اعرف ، اعرف جيداً . . لم اعـــد اعرف . . ليأخذني الشيطان ! يمكنني دائماً ان اعود الى الجيش . لقد حدثتك عن ذلك من قبل .

وادار الرجل ذو الشعر الرمادي رأسه من جديد نحو المرأة الشابة ليشهدها على صبره ، او بالاحرى على بطولته ؛ ولكن المرأة الشابة لم تلاحظ تعبير وجهه . كانت قد قلبت منفضة السجائر بركبتها ، فراحت تجمع بأصبعها الرماد المبعثر . ورفعت عينيها اليه بعد لحظة .

وهتف الرجل ذو الشعر الرمادي :

ـ لا ، يا ارثور ! لم تذكر لي شيئاً عن ذلك .

ـ حسناً قد الجأ لذلك . لا اعرف بعد . اني لست شديد الحماسة لهذا الموضوع بالطبع . وما انا بعائد اليه اذا لم اضطر لذلك . ولكن قد ألجأ اليه كحل أخير ، لا أدري . انه يمحو كل شيء ، على الأقل . ولن يكون حلاً سيئاً في الواقع اذا ما اعادوا الي قبعتي العسكرية ، ومكتبي الضخم ، وكليتي الكبيرة . .

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

ـ كم أود أن ادخل شيئاً من الحس السليم الى رأسك !

اني اكون اذ ذاك في غاية السرور . اؤكد لك انك تتكلم كصبي في الثانيـــة عشرة ، أنت الرجل الذكي ، او الذي يدعي الذكاء . انك تعطي لكومـــة من التفاصيل الصغيرة حجوم جبـــال الهملايا ـ اقولها بصراحة ـ ، وانت لست من مستوى . .

ـ كان علي ان اتركها . هل تدري ماذا ؟ كدت انتهي منها هذا الصيف عندما

كانت الرياح مؤاتية لي . هل تعرف ذلك ؟ هل تعرف لماذا لم افعل ذلك ؟ اتريد أن تعرف لماذا ؟

– بحق السماء يا أرثور ! لن يوصلك ذلك الى نتيجة . .

– انتظر لحظة لأقول لك لماذا ؟ اتريد ان تعرف لماذا لم افعل ذلك ؟ اني استطيع ان اقوله لك بدقة الانى اشفقت عليها

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

– حسناً ؛ لا ادري . ذلك شيء يتجاوز ادراكي ،يخيل إلي انالشيء الوحيد الذي تنساه هو أن جواني قد بلغت سن الرشد ، وحصلت على المناعة اللازمة . لا أدري،ولكن يبدو ليذلك ...

– الرشد ! المناعة ! هل انت مخبول ؟ ام ماذا ؟ انها طفلة قد حصلت على اللقاح . نعم، أصغ الي، يكفي أن اكون منهمكاً بالحلاقة – اسمع ذلك، سترى– يكفي ان اكون منهمكاً بالحلاقة ، وألتفت، ها هي ذي تنادي من اقصى المنزل . . فأهرع ،لأرى ماذا حدث، وانا منهمك في الحلاقة ورغوة الصابون تغطي وجهي ! هل تدري ماذا تريد مني وقتئذ ؟ انها تريد ان تسألني ما اذا كنت اعتقد بأنها ذكية .. أقسم ذلك ! انها تستدعي الرثاء . اقول لك ! اني انظر اليها حين تنام ، واعرف ماذا أقول . صدقني !

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

– انك في موضع يسمح لك بمعرفة ذلك اكثر مني . . ليس ذلك من اختصاصي . المضجر هو أنك لا تقوم بأي عمل ايجابي .. لا ..

– نحن غير منسجمين . . هذا كل شيء . . هذه هي المأساة برمتها . نحن متباينان الى حد لا يصدق هل تعرف ماذا يناسبها ؟ إن ما يناسبها هو نذل كبير ،لا يقول شيئاً ، ولكنه يأتيها من حين لآخر ليصب عليها جام غضبه ، ثم يعود لينهي قراءة صحيفته . هذا هو ما يناسبها . إني شديد الليونة معها . لقد فهمتها عندما تزوجنا ،

أقسم لك . انك لداهية كبير لم تتورط في الزواج ، هناك لحظات يتراءى فيها للانسان على صورة لمحات ما سيمر به عندما يتزوج . ولكني لم أشأ ان افهمها . لم أشأ أن أنظر الى هذه الالتماعات وجهاً لوجه . إنني لضعيف كالخرقة . والمأساة كل المأساة تكمن هنا .

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

ــ ولكنك لا تعرف كيف تستعمل عقلك . هذا كل شيء .

وامسك بالسيجارة الجديدة التي أشعلتها له المرأة الشابة ..

ــ كيف تقول إني لست خرقة ! كيف تقول ذلــك ؟ يا إلهي ! إني اعرف حق المعرفة ما اذا كنت ضعيفاً كالخرقة ام لا ؟ ألا تعتقد بأني لو لم اكن خرقــة اتركت كل شيء ورائي كـ ... اوه ! ثم مــاذا يجدي ذلك ؟ اني خرقة بكل تأكيد ...إلهي ! أني أجعل ليلتك هذه ليلة مسهدة ، لمــاذا لا تقفل الخط في وجهي ؟ باسم الآله ! أقفل الخط ...

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

ــ ليست بي رغبة لاقفال الخط يا ارثور !إني اود مساعدتك اذا كان ذلك باستطاعتي . الحقيقة هي انك أسوأ ..

ــ انها لا تكن لي اي احترام . ولم تعد تحمل لي شيئاً من الحب . يا إلهي ! واذا ما حللت نفسي جيداً رأيتني بدوري لا أشعر نحوها بشيء من العاطفة . لم اعد أدري ، أأحبها أم لا ؟ إن مشاعري نحوها تتأرجح بــين الحب والبغضاء . ويختلف ذلك بحسب الأيام ! يا إلهي ! في كل مرة اقرر فيها أن اقطع صلتي بهــا نهائياً يتفق ان نتعشى في المدينة لسبب او لآخر . وهناك ، اصادفها في مكان ما ، قادمة بقفازاتها البيضاء اللعينة ، او شيء من هذا القبيل .. فلا أعود أدري مــا افعل ! وفجأة ، تقفز الى خاطري ذكرى المرة الأولى التي ذهبنا فيهــا معاً في السيارة لنشاهد مباراة « برنستون » في « نيوهافن » . لقد انفجر الدولاب أمام

« باركـ واي » بالضبط . كان البرد شديداً . وكانت تمسك بالمصباح الكهربائي بينما كنت أغير الدولاب .. الابن الحرام .. هل تفهم ما أعني؟ لم اعد ادري ! وربما قفزت الى ذاكراتي – يا إلهي ! كم يصعب علي ان أبوح بذلك ! – اقول : ربما قفزت الى ذاكرتي ايضاً تلك القصيدة السخيفة التي ارسلتها اليها في الفترة الأولى التي تعارفنا فيها :

لوني وردي ، أبيض ..

جميل فمي ، وخضروان عيناي .

يا إلهي !مثل هذه الاشياء لا تقال، ولكنني اتذكرها حينذاك . ليست عيناها خضراوين . انها كالصدفات السخيفة؛ يا إلهي ! ولكن ذلك يذكرني بها .. لا ادري ! ماذا يجدي ذلك ؟ أتراني فقدت صوابي ؟ أقفل الخط بحق السماء !

وتنحنح الرجل ذو الشعر الرمادي . ثم قال :

– ليست بي رغبة لاقفال الخط يا ارثور . ولكن هناك شيئاً ما .. رغم كل ..

– لقد ابتاعت لي مرة بذلة بدراهمها الخاصة . هل ذكرت لك ذلك ؟

– لا ..

– لقد ذهبت بكل بساطة عند .. « تربيليه » على ما اعتقد .. واشترتها . لم اذهب معها . انتبه الى ذلك . أعني أن لها جوانب حسنة . والمضحك أن البذلة كانت تناسبني تقريباً . كل ما هنالك أنني اضطررت لادخال بعض التعديلات الطفيفة كتضييق سرج البنطلون ، والساقين .. وتقصيرها قليلاً . انت تفهم ذلك . ان لها جوانب حسنة جداً .

واصغى الرجل ذو الشعر الرمادي من جديد عدة ثوان ، ثم استدار فجأة نحو الفتاة ؛ وأوحت النظرة الخاطفة التي القاها عليها بما يجري في الطرف الآخر من الخط . وهتف :

– اسمع يا أرثور ،لن يجديك ذلك نفعاً . لن يجديك مطلقاً . اؤكد لك .

أصغ الي . اقول لك ذلك بكل اخـــلاص . هيا ، بدل ثيابك واذهب الى النوم كصبي مطيـع . هديء نفسك قليلاً . ستصل جواني حتماً في ظرف دقيقة ، انت لا ترغب في أن تراك على هذه الحـــال . سيهبط عليك هؤلاء الآل ايللنبوغنز . المهرجون .. سيهبطون عليك معها حتماً . وانت لا ترغب في ان يراك هؤلاء جميعاً على هذه الحال . أليس كذلك ؟

واصغى من جديد .

ـ أرثور ! هل تسمعني .

ـ يا إلهي ! اني امنعك من النوم . كل ما افعله هو أنـ ..

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

ـ انك لا تمنعني من النوم . لا ترعج نفسك من اجل ذلك . لقد قلت لك هذا من قبل،إنني لا اكاد انام اربع ساعات متوالية طوال الليل . كل ما أود ان أعمله هو أن أساعدك يا صغيري ، ان كان ذلك ممكناً بين البشر ..

واصغى من جديد .

ـ ارثور ! أأنت هنا ؟

ـ نعم ، إنني هنا ، أصغ الي . لقد أيقظتك على كل حال حتى آخر الليل . هل أستطيع ان أحضر عندك ، وأتناول كأساً ؟ أيزعجك ذلك ؟

وانتفض الرجل ذو الشعر الرمادي ، وأسند راحة يده الطليقة على نقرته .

ـ أتريد ان تقول حالاً ؟

ـ نعم ، بكل تأكيد . إن لم يكن ذلك يضايقك . سامكث لحظات معدودة فقط ، مجرد أن أستريح في مكان ما .. ولا ادري ماذا أيضاً ! هل تسمح بذلك؟

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

ـ نعم ، ولكن ، في الحقيقة ، أعتقد أنه يجدر بك ألا تفعل ذلك يا ارثور .

ورفع يده عن نقرته .

ـ ارجو أن تفهمني جيداً . انك تعلم اني اسر بزيارتك . ولكنني اعتقد مخلصاً بان ما يناسبك الان هو البقاء في المنزل بهدوء حتى تعود جواني . اقول لك مخلصاً بأن ما ترغب فيه انت هو ان تكون هناك عندما تعود . أليس كذلك ؟

ـ نعم . لم اعد اعرف يا إلهي ! لم اعد اعرف .

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

ـ بلى ، إنك تعرف ؛ إني اعتقد ذلك مخلصاً . أصغ الي . لماذا لا تذهب الآن الى سريرك ؟ فقد تهدأ قليلاً ؛ وبعد ذلك ، تستطيع اذا اردت ان تهتف لي من جديد . اعني اذا كنت ما تزال بحاجة الى التحدث قليلا . وكف عن تعذيب نفسك ؛ هذا هو الأهم . هل تصغي الي ؟ أتفعل ما اقوله لك ؟

ـ موافق .

واحتفظ الرجل ذو الشعر الرمادي بالسماعة بعض الوقت بالقرب من اذنه ، ثم اعادها الى مسندها .

وسألت المرأة الشابة على الفور :

ـ ماذا قال ؟

والتقط سيجارته من المنفضة ، وسط كومة من السجائر الأخرى ، تتفاوت في كمية القسم المستهلك منها ، فعب منها نفساً ، ثم قال :

ـ كان يرغب في الحضور لتناول كأس هنا .

قالت المرأة الشابة :

ـ بحق السماء ! ماذا قلت له ؟

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

ـ لقد سمعت ما قلت . أليس كذلك ؟

وسحق سيجارته .

قالت المرأة الشابة وهي تنظر اليه :

ـ لقد كنت رائعاً ، رائعاً جداً . يا إلهي ! اني اشعر بنفسي حقيرة من الرأس حتى اخمص القدم .

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

ـ هل تعرفين ؟ إنه وضع صعب . لا اعرف ما اذا كنت رائعاً بالدرجة التي تذكرين :

قالت المرأة الشابة :

ـ بلى ، لقد كنت رائعاً . لقد نفد صبري ، لقد نفد صبري تماماً . أنظر الي!

ونظر اليها ذو الشعر الرمادي ، ثم قال :

ـ الواقع أنه وضع عسير . أعني ان كل ما سمعته شيء غير عادي . إنه شيء...

قالت المرأة الشابة بحرارة وهي تنحني نحوه :

ـ اعذرني يا حبيبي . لقد اصابتك النار فيما اظن .

ونفضت له ظهره بلمسات صغيرة من أطراف أصابعها :

ـ ان ذلك مجرد رماد .

وابتعدت قليلا ، ثم قالت :

ـ لقد كنت رائعاً حقاً . يا إلهي ! اني اشعر بالحقارة من الرأس حتى أخمص القدمين .

ـ نعم ، إنه وضع محزن . ان هذا الشاب يخطو نحو ..

ورن جرس الهاتف فجأة ، فشهق الرجل ذو الشعر الرمادي : « يا إلهي ! » ثم أمسك بالسماعة قبل أن يعود الصوت الى الرنين وقال :

ـ آلو !

ـ أهذا انت يا «لي» ؟ هل تنام ؟

ـ لا ، لا .

ـ أسرع . لقد أردت أن أنبئك فقط . لقد عادت جواني لتوها .

قال الرجل ذو الشعر الرمادي :

ـ ماذا ؟

ووضع يده اليسرى كالمروحة أمام عينيه ، رغم ان النور كان خلفه .

ـ نعم ، لقد عادت لتوها بعد أقل من عشرين ثانية من انهاء حديثي في الهاتف وخطر لي بأني أحسن صنعاً اذا ما هتفت لك فيما هي في بيت الخلاء . أصغ الي . إني اشكرك الف مرة يالي . اريد ان اقول .. هل تدرك ما اريد ان اقول ؟ ألم تكن نائماً ؟

قال الرجل ذو الشعر الرمادي ، وهو يتنحنح ، ويده ما تزال أمام عينيه :

ـ لا ، لا ؛ كنت على وشك . لا ، لا .

ـ نعم ، أتريد ان تعرف ماذا حدث ؟ يبدو ان ليونا كانت مزعجة الى حد السماجة ، ثم لم تلبث ان انفجرت في نوبة من البكاء ، فطلب بوب من جواني ان تذهب معهم الى مكان آخر لتناول كأس ، وتناسي الموضوع لا أدري . اخيراً ، أنت ترى . انها أمور شديدة التعقيد . وماذا يهم ؟ لقد عـــادت على كل حال . مجموعة غريبة ! اقول لك جاداً بأني اعتقد ان هذه الابنة الحرام نيويورك هي السبب في كل ما حدث . وأظن ان ما يجب علي ان اعمله اذا ما سارت الأمور على ما يرام هو ان نبحث لأنفسنا عن ركن هادىء في الكونكتيكوت . ليس من الضروري ، بحق الشيطان ، ان يكون في كونكتيكوت بالضبط ، ولكن في اي مكان هو من البعد بحيث نستطيع ان نعيش فيه حياة طبيعية . أتفهم ذلك ؟ انها تحب النبات حباً شديداً ، او ما يشبه ذلك ، وربما جنت من الفرح اذا ما اصبحت تملك حديقة خاصة بها ، بكل ملحقاتها .. هل تفهم ما أريد !

اخيراً ، اذا استثنيناك انت ، فمن هم الأشخاص الذين نعرفهم في نيويورك ؟

أليسوا عصابة من المجانين ؟ وانه لمن الطبيعي أن يحطم هذا الجو ، آجلا او عاجلا ، أي انسان ولو كان سوياً . أتفهم ذلك ؟

لم يجب الرجل ذو الشعر الرمادي . كانت عيناه مغلقتين وراء ستار من يديه .

ـ سافاتحها في الموضوع ، على كل حال فوراً . او ربما غداً صباحاً ، لأنها ما تزال تحت تأثير الجو الخارجي . انت تفهم ! انها فتاة طيبة في الصميم . واذا ما سنحت لنا الفرص للتفاهم معاً فيجب ان نكون سخفاء حقاً اذا لم ننتهزهـا . بالمناسبة ، سأحاول تسوية قضية البق القذرة اذا ما سنحت لي الفرصة أيضاً . لقد فكرت في ذلك . إني لأتساءل بأني – ألا تعتقد ذلك ؟ – بأني اذا ما ذهبت لمقابلة جونيور شخصياً فقد ..

ـ ارثور ! اذا لم يكن في ذلك ما يزعجك ، فأرجو ..

ـ افهمني . أود الا تعتقد بأني إنما هتفت لـك لأنني في ورطة ، او شيء من هذا القبيل . ليس لذلك أية علاقة لأنه الموضوع الوحيد الذي لا احفـل به على الاطلاق . حقاً يا ربي ! انني اقل اهتماماً بمثل هذه الأمور من أي شيء آخر .

كنت افكر فقط بأني اذا ما استطعت تدبير الأمـور مع جونيور دون أن يكلفني ذلك عناء كبيراً ، فقد اكون غبياً ان لم ..

فقاطعه الرجل ذو الشعر الرمادي ، وهو ينحي يده عن وجهه :

ـ أصغ الي، يا ارثور ! اني اشعر فجأة بألم فظيع في رأسي. لا ادري كيف استولى علي . هل يضايقك إن توقفنا الان ؟ سنعود الى الحديث في صباح الغد .. هل توافق ؟

واحتفظ بالسماعة لحظة في يده ، ثم اعادها الى مسندها .

عادت المرأة لمحادثته على الفور . ولكنه لم يجب . التقط من المنفضة سيجارة

مشتعلة، هي سيجارة المرأة الشابة ، واراد أن يحملها حتى شفتيه؛ ولكنها انزلقت من بين أصابعه .

وانحنت المرأة الشابة لتعينه على التقاطها ، قبل أن تحرق شيئاً مـا ، ولكنه قال لها بأن تتركه وشأنه .. بحق السماء !

فسحبت يدها .

دُوميه سميث ...
يـدخل مُعترك الحيَاة

٨

لو كان ـ ما سأقوله على قدر ضئيل جداً من الحس السليم ، ـ وهو في الواقع لا يملك ظلاً له ـ لكنت فيما اعتقد قد استسلمت لغواية إهداء هـذه القصة ، نظراً لما تساويه ، وعلى الاخص لما قد تحويه من الفجور في بعض المواضع ، اقول كنت قد استسلمت الى اهدائها الى روح ذلك الراحل الفاجر زوج أمي روبير آغاد غانيان الابن او بوبي – كما يسميه الجميع بما فيهم أنا – بوبي الذي توفي ١٩٤٧ من جراء علقة في الدم ، وهو يحس بعض الاسف بكل تأكيد ، ولكن دون ان يستطيع التمرد على نهايته المحتومة ،كان رجلا جريئاً ، مغامراً ، على اوفر قسط من الجاذبية والكرم . (لقد امضيت سنوات طويلة وانا اضن عليه بهذه الصفات اللعينة ، ولكني اشعر الآن بان اعطاءه هذه الصفات انما هو قضية حياة او موت) .

انفصل ابي وامي بالطلاق في شتاء ١٩٢٨ وكان عمري اذ ذاك ثماني سنوات ؛ ثم تزوجت امي بوبي آغاد غانيان في الربيع التالي . وما هو الا عام واحد حتى خسر بوبي كل ما يملكه هو ، وما تملكه امي ، في اثناء الازمة الاقتصادية التي هزت « وول ستريت » ، باستثناء ما يمكن ان نسميه « العصا السحرية » التي جعلت بوبي العميل المالي السابق في البورصة ، والذي ما يزال على قيد الحياة ، يتحول خلال ليلة واحدة الى خبير في فن الرسم الحديث ؛ بل الى رجل واسع الاطلاع ، عميق الاختصاص ، يعمل لحساب صالات الرسم الامريكية المستقلة ، وفي متاحف الفنون .

وما هي الا بضعة اسابيع ، في مطلع عام ١٩٣٠ ، حتى انتقل ثلاثتنا غير المتجانس من نيويورك الى باريس ، المكان المثالي بالنسبة لتجارة بوبي الجديدة . ونظراً لاني كنت ما ازال غلاماً في الثالثة عشرة ، بارد الاحساس ، ولا اريد ان اقول

ثلاجة ، فقد نظرت الى الانتقال ، كما اتذكر ، نظرة لا مبالاة ، ولكن عودتنا الى نيويورك ، بعد تسع سنوات من ذلك التاريخ ، وبعد وفاة أمي بثلاثة اشهر ، هي التي أصابتني بصدمة عنيفة .

اني اذكر الان حادثاً طفيفاً ، ولكنه ذو مغزى . حادث وقع في اليوم التالي لعودتنا انا وبوبي الى نيويورك او في اليوم الذي يليه . كنت اقف في احد اتوبوسات شارع لكسنجتون الشديد الازدحام ، وانا ممسك بقضيب معدني مطلي بالمينا بجانب السائق ، ملتصق الردفين تمام الالتصاق بردفي الراكب الذي كان يقف خلفي . كان السائق ما يفتأ يردد منذ عدد غير قليل من المواقف ، بلهجة جافة ، صائحاً بالذين يتراصون في المقدمة ان « يتراجعوا الى مؤخرة السيارة » . ولقد حاول بعضنا ان يجيبوه الى طلبه ، وضرب الآخرون عرض الحائط بصياحه . واخيرا انتهز الرجل ، بعد ان نفد صبره ، وجود الضوء الاحمر ، واستدار على مقعده ورفع عينيه الي ، فقد كنت خلفه تماما ، كنت في التاسعة عشرة ، ارتدي « بيريه » اسبانية سوداء عوضا عن القبعة ، بيريه سوداء مسطحة ، ليست على حظ كبير من النظافة . وكانت تعترض جبيني فوق العينين ، بطريقة ليس فيها شيء من الجمال .

وقاطعني السائق بصوت خفيض ، وبشيء من الاحتراس قائلا :

— هيه ، يا ولد ! ألا تريد ان تحرك مؤخرتك قليلا ؟

كانت « يا ولد » هذه هي التي فجرت غيظي ، على ما اعتقد ، فاندفعت دون ان أكلف نفسي عناء خفض الصوت — أعني دون ان ابقي للحديث الطابع الخاص الذي يتقبله الذوق كما بدأه هو — وقلت بالفرنسية بأنه عامي أبله ، قليل التهذيب ، قليل الادب ، وانه لن يستطيع ان يدرك مطلقا كم يبدو لي ثقيلا . وعند ذلك تراجعت الى الخلف ، وانا مسرور من نجاحي .

ثم ازدادت الامور تعقيدا ذات يوم ، بعد اسبوع او اثنين من تلك المغامرة .

كنت خارجاً من فندق « ريتز » ، بعد الظهر ، حيث نزلت انا وبوبي لمدة غير محددة ، وبغتة أحسست كما لو انهم قد فككوا جميع مقاعد الاتوبوسات في نيويورك ، واخرجوها من امكنتها ، ثم صفوها في الشارع ؛ وان حفلة هائلة للعبة الكراسي الموسيقية قد عقدت هنا . واعتقد بأني لم اكن لامانـــع في الاشتراك باللعب ، لو ان كنيسة مانهاتن خصتني بامتياز يضمن لي ان يبقى اللاعبون الاخرون وقوفاً لا يأتون بحركة حتى أجد مكاناً واجلس . وعندما ايقنت بأن شيئاً من هذا القبيل لن يحدث ، انتقلت الى العمل المباشر ، ورحت أصلي لتتخلص المدينة من قاطنيها قاطبة ، ويتاح لي عندئذ ان انال وحدي نعمة البقـــاء وحيداً و ـ ح ـ ي ـ د ـ اً !!

والشيء الجميل في نيويورك ان مثل هذه الصلاة هي الصلاة الوحيدة التي تملك كل الحظ في ان تستجاب .

وفي لمحة عين وجدتني فريسة لوحدة تحزّني كالموسى .

دأبت في الصباح ، وفي بداية ما بعد الظهيرة ، على ان أحضر ـ وانا موزع الخاطر ـ محاضرات في مدرسة فنية تقع في الزاوية التي يؤلفها الطريق رقم ٤٨ مع شارع لكسنجتون . ولابد ان أحيط القارىء علماً اني كنت قد حزت ، قبل ان اغادر باريس انا وبوبي باسبوع واحد ، على الجوائز الثلاث الاولى في المعرض الوطني لانتاج الشباب الذي أقـــيم في صالة « فريبورغ » . وطوال سفرنا الى امريكا ، لم اكد ابارح مرآة غرفة الاستقبال . لقد امضيت وقتي كله وانا الاحظ الشبه الفريد بيني وبين إل ـ غريكو . وكان علي ان امضي فترة ما بعد الظهيرة ثلاث مرات في الاسبوع في مقعد طبيب للاسنان ، خلع لي خلال عدة اشهر ، ثماني اسنان ، ثلاث منها أمامية . أما الأمسيتان الاخيرتان من الاسبوع فقد كنت اقضيهما بصورة عامة ، متجولا في الصالات الفنية ، وعلى الاخص الصالات الواقعة في الطريق رقم ٥٧ حيث كنت امسك نفسي بصعوبة بالغة عن السخرية بالانتاج الامريكي الجديد .

اما في السهرة فغالباً ما كنت أقرأ . لقد ابتعت مجموعة هارفارد الكاملة للرسامين الكلاسيكيين ؛ - والدافع الاول الذي دفعني لذلك ان بوبي كان ابداً يقول بأنه لا مكان لهم عندنا - ورحت أقرأ الاجزاء الخمسين الواحد تلو الآخر بلذة سادية . كنت في كل ليلة تقريباً أضع حامـــل الصور بين السريرين التوأمين الموضوعين في الغرفة والذين كنـــا نتقاسمها، انا وبوبي ، ثم اشرع في الرسم . وفي خلال شهر واحد رسمت - اذا صدقتني مذكراتي عام ١٩٣٩ - ثماني عشرة لوحة زيتية . ويجدر بي أن اسجل هنا ان سبع عشرة منها كانت تمثلني شخصياً ، وكان يحدث لي ، اذا ما عصتني القريحة - ان اطرح اللوحة الزيتية جانباً واخط رسوماً هزلية ، ما ازال احتفظ باحدها وهو يمثل فماً فاغراً كالكهف لرجل يعالج اسنانه عند طبيب الاسنان . كان لسان الرجل عبارة عن قطعة نقدية من فئة المائه دولار اما الطبيب فقد بدا وهو يقول بالفرنسية بشيء من الأسى : « اعتقد بأننا نستطيع انقاذ الضرس ، ولكني اخشى ان اضطر الى نسف اللسان » . كان هذا الرسم احد رسومي المفضلة .

اما انا وبوبي بوصفنا شركاء في الغرفة فقد كنا اشبه ما نكون بطالبين ، احدهما من طلاب هافارد القدامى الشديدي المسايرة ، والآخر من طلاب كامبريدج الجدد المزعجين الى اقصى الحدود . وعندما اكتشفنا بالتدريج ، بينما كانت الاسابيع تمضي ، بأننا نحب نفس المرأة « التي ماتت » ، لم يكن ذلك كافياً لتسوية الأمور فيما بيننا . لقد كان من نتيجة هذا الاكتشاف في الواقع أن ألقى على علاقاتنا ظلاً قاتماً ، فرحنا نتبادل الابتسامات المفتعلة كلما تلاقينا على عتبة الحمّام .

* * *

في احد اسابيع شهر أيار ١٩٤٠ ، بعد حوالي عشرة اشهر من وصولنا الى فندق ريتز ، رأيت في احدى صحف كيبيك (وهي احدى ست عشرة صحيفة تصدر باللغة الفرنسية كنت قد اشتركت فيها) ، رأيت اعلاناً للدعاية يغطي ربع عمود الصحيفة ، وضعته ادارة مدرسة فنية في مونتريال للدراسة بالمراسلة . كان ينصح

لكل من يحمل المؤهلات - مؤكداً بأنه لن يدخروسعاً في النصح - بالتقدم للعمل في احدث مدرسة للفنون المراسلة واكثرها تطوراً في كندا . وقد اشترط على المرشحين لهذا العمل ان يجيدوا الفرنسية والانجليزية والا يتقدم الا من كان يتمتع بأخلاق وقناعة لاغبار عليها . اما الدورة الصيفية لأصدقاء الفن القديم فقد حدد موعد افتتاحها رسمياً ١٠ حزيران » كما طلب تقديم نماذج فنية واخرى تجارية من عمل المرشحين الى المدير السيد ي.يوشوتو في الاكاديمية الامبراطورية للفنون الجميلة في طوكيو .

ونظراً لشعوري باني اتمتع بالشروط المطلوبة الى ابعد الحدود ، فقد التقطت على الفور آلة بوبي الكاتبة ماركة « هرميس - بيبي » من تحت سريره ، ودبجت بالفرنسية خطاباً طويلاً ، محشواً بالهذيان ، الى السيد يوشوتو ؛ وانقطعت بسبب هذا العمل عن دروسي الصباحية في مدرسة شارع لكسنجتون .

كان المقطع الأول يجري على ثلاث صفحات ويكاد يحرق الورق تقريباً .

قلت باني ابلغ التاسعة والعشرين من العمر ، وقلت بأني ابن الأخ الصغير لأونوريه دوميه ، وأني قدغادرت لتوي مزرعتي الصغيرة في جنوب فرنسا بعد موت زوجتي لأعيش في الولايات المتحدة ، واكدت بأن ذلك سيكون بصورة مؤقتة ، مع قريب مقعد . وذكرت بأني مارست الرسم منذ نعومة أظفاري متتبعاً ارشادات بابلو بيكاسو الذي كان أعز واقدم اصدقاء أسرتي ، وأني لم اعرض رسومي قط ، ولكن عدداً كبيراً من لوحاتي الزيتية والمائية معلقة الان عند اكثر الهواة ذوقاً في باريس ، ولا اقصد الهواة الحديثي الثروة بالطبع ، حيث حظيت هناك بالتقدير السريع لدى اشهر نقاد العصر . وبعد الموت الفاجع الذي غال زوجتي نتيجة سرطان مستشر وهي في عنفوان الشباب ، قررت كما ذكرت في الخطاب ألا أمسك لوحة او فرشاة ، ولكن خسارة مادية جديدة ارغمتني على مخالفة هذا القرار الحازم ؛ واضفت قائلا بأنه سيشرفني كثيراً ان اضع بضع نماذج من اعمالي بين يدي أصدقاء الفن القديم ، حالما تصل الي من عميلي في باريس :

وسأبعث له على الفور ببرقية عاجلة بالطبع ، استحثه فيها على ارسالهـــا ، واني سابقى المخلص الذي يكن لكم اعمق الاحترام

جان دو دوميه سميث

واقتضاني البحث عن الاسم المستعار نفس الوقت الذي صرفتـــه لانشاء الرسالة تقريباً .

كتبت رسالتي على ورق حريري ، ولكني وضعتها مع ذلك داخـل مغلف من مغلفات فندق ريتز . وبعد ان الصقت عليها طابع بريد مستعجل عثرت عليه في في درج يوبي الاعلى نزلت لاودعها علبة بريد الفندق . وتوقفت لحظة لاسأل الموظف المختص بالبريد ــ الذي كان يكرهني حتما ــ ان ينتبه الرسائل التي ستأتي عن قريب بعنوان « دوميه سميث » ثم انزلقت سراً بعـــد الظهر الى صف التشريح لاحضر محاضرتي ، وموعدها الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والاربعون ، في مدرسة الفنون في الطريق رقم ٤٨ . وللمرة الاولى شعرت بأن زملائي في الصف اشخاص طيبون .

وفي الايام الاربعة التي تلت ، رحت أمضي كل اوقات فراغي ، بالاضافة الى عدة ساعات لم تكن بالضرورة جزءاً منها ، في رسم « دزينـــة » من الرسوم : النماذج التي تمثل في رأيي الفن التجاري لامريكي . وبدا لي أن استخدم لالوان المائية على الاخص ، ولكني لجأت الى استعمال الخطوط مرتين او ثلاثاً ، لا لشيء الا لأظهار مقدرتي في هذا الميدان .

رسمت اشخاصاً بلباس السهرة وهم يهبطون من السيارات الفارهة لحضور حفلة من حفلات الافتتاح .. أزواج نحافة منتصبوا القـــامة ، شديدو الاناقة ، لم يعرضوا احداً في حياتهم لرائحة ابطهم المهمل .. أزواج قد لا يكون لهم ابط على الاطلاق ..

رسمت عمالقة شباباً ، قد لوحتهم الشمس ، يرتدون « السمو كينغ » الأبيض

وهم يجلسون على مناضد بيضاء ، حول مسابح زرقاء اللون ، يتبادلون الأنخاب بسرور عظيم ، وهم يرفعون كؤوساً طويـــلة نصف ممتلئة بضرب من الويسكي الرخيص ، ولكنه حتماً آخر زي دارج .

رسمت أطفالاً متوردي الوجوه ، كتلك التي تراها في الاعلانات ، تغمرهم السعادة والصحة ، يمدون أطباقهم الفارغة ويطلبون بحماسة مقداراً جديـــداً من غذاء من نوع معين .

رسمت فتيات ضاحكات ، ذوات صدور مرتفعة ، يمارسون التزلج فوق الماء دون أن يساورهن أدنى خوف ، لأنهن في مأمن من الكوارث التي تحدث للبشر كالنمش ، والشعر الناصل ، وعدم التأمين الكافي على الحياة ...

رسمت ربات منزل كن طوال الفترة التي لم يستعملن فيها ذلك النوع من الصابون المبشور يتعرضن دون أية حمايـــة لقساوة الشعر ، للاوضاع التعيسة ، للاطفال غير المهذبين ، للازواج الذين أهملوهن ، للايدي الخشنة – رغم تكوينها الناعم ، للمطابخ التي لم تلق شيئاً من العناية – رغم اتساعها – ...

وما ان فرغت من هذه الأعمال حتى بادرت بارسالها الى السيد يوشوتو ، مع نصف دزينة من اللوحات غير التجاريـــة كنت قد حملتها معي من فرنسا . ولم يفتني أن ارفقها أيضاً بكلمـــة صغيرة عابرة رحت أقص فيها قصة مترعة بالغنى الانساني ، وكيف أني قد بلغت بجهدي وحدي ، ورغم كل العقبات ، وطبقـــاً لأصفى التقاليد الرومانسية ، قمم هذه المهنة (القمم) الباردة ، النقية ، الوحيدة.

لم تكن الأيام القليلة التي تلت ذلك الا انتظـــاراً مضاً . وما كاد الاسبوع ينصرم حتى وصلتني رسالة من السيد يوشوتو يخبرني فيها بأني قد قبلت معلماً عند اصدقاء الفن القديم . كانت الرسالة باللغـــة الانكليزية ، رغم اني كتبت رسالتي بالفرنسية . وقد علمت بعد ذلك أن السيد يوشوتو الذي كان يعرف الفرنسية ،لا الانكليزية ، قد طلب من زوجته السيدة يوشوتو ، لسبب أجهله ، أن تكتب له الجواب ، وكانت السيدة قد حصلت في المدرسة بعض المعرفة بالانكليزية .

أنبأني السيد يوشوتو بأن الدورة الصيفية ستكون على الأغلب اكثر الدورات أعباء في السنة . وأنها ستبدأ في ٢٤ حزيران . كان ذلك يترك لي خمسة اسابيع كما اوضح لي ، لأعد عدتي . وقد اكد لي أسفه للمصائب الماليـــة والعاطفية التي نزلت بي ، ورجاني أن ابذل جهدي لتقديم نفسي الى أصدقاء الفن القديم يوم ٢٣ حزيران ، لأحاط علماً بالواجب المترتب علي ، ولأتعرف على الاساتذة الآخرين الذين لم يكونوا يتجاوزون - كما علمت بعد ذلك - الشخصين وهما السيد يوشوتو والسيدة قرينته .

ثم وجدته يأسف بالغ الأسف لأنه ليس من عادة المدرسة أن تقـــدم سلفة للاساتذة الجدد تعينهم على السفر . أما الراتب فيبلغ ، عند بداية العمل ، ثمانية وعشرين دولاراً في الاسبوع ، ويعترف السيد يوشوتو بأنه ليس بالمبلغ الكبير ، ولكن بما ان المسكن وقدراً كبيراً من الغذاء سيضافان اليه ، وبما أنه يشعر بأني احترق بنار الموهبة المقدسة ، فانه يرجو ألا يحد ذلك من اندفاعي . واضاف أنه ينتظر بفارغ الصبر برقية مني تؤكد موافقتي ، وانه يشعر بالسرور سلفاً لحضوري وانه سيبقى باخلاص صديقي الجديد ورئيسي في العمل .

ي . يوشوتو

من اكاديمية طوكيو الامبراطورية للفنون الجميلة

ارسلت برقيتي بالموافقه خلال الدقائق الخمس التي تلت وصول الرســـالة . والغريب أني كبحت ميلي الى الاسهاب في الكتابة ، واوجزت برقيتي بكلمات عشر لا غير ، إما بسبب من انفعالي الشديد ، او ربما لاني استخدمت هاتف بوبي لارسال البرقية فاذا احساس بالجريمة يتملكني ، واميل الى الايجاز ما استطعت .

وفي المساء نفسه ، في الساعة السابعة ، عندما قابلت بوبي كالمعتاد في الغرفـــة المتطاولة لتناول العشاء اعتراني شيء من الانزعاج لأنه أحضر معه ضيفة جديدة . لم اكن قد ذكرت له شيئاً عن نشاطي الجديد خارج المدرسة ، وكنت أتحرق شوقاً لالقي اليه بالنبأ ، لأسدد له الضربة القاضية ، في اول لحظة نصبح فيهـــا

وحيدين . كانت الضيفة امرأة شابة على جانب كبير من الجاذبية ، مطلقة منذ مدة لا تتجاوز عدة أشهر. كان بوبي يراها كثيرا ، وكنت قد قابلتهـا عدة مرات . كانت على كل حال امرأة رائعة . كنت افسر الجهود التي تبذلهـا بدراية لتبدو لطيفة معي بانها انما تسعى لأن ألقي السلاح أمامها ، أو على الأقل لألقي قبعتي . كانت تلك الجهود تبدو لي كما لو انها دعوات ضمنية للحاق بها الى السرير عندما استطيع ذلك ، اعني عندما نستطيع ان نترك بوبي الذي كان يكبرها سناً بصورة واضحة . لقد ظهرت طوال العشاء بمظهر العداء والاقتضاب في الحديث . واخـيراً ، رحت ونحن نتناول القهوة أعرض مشاريعي الجديدة للصيف في خطوطها العامة . وعندمـا انتهيت من ذلك وجه الي بوبي عدة أسئلة ذكية ، أجبت عليها ببرودة واقتضاب ، وترفع من كان يرى نفسه سيد الموقف .

قالت ضيفة بوبي :

– اوه ! يبدو ذلك شيئاً مثيراً .

كأنما كانت تنتظر دونما خجل أن أمرر لهـا من تحت المنضدة عنواني في مونتريال .

قال بوبي :

– كنت اعتقد بأنك ستأتي معي الى رود – آيلاند ، فقاطعته مدام س ... قائلة :

– اوه ! يا عزيزي ، لا تضع العراقيل في وجهه .

قال بوبي :

– اني لا اضع العراقيل في وجهه . ولكني اود أن أعرف فقط بعض التفاصيل حول الموضوع .

ومن تعبير وجهـه فقط كنت أستطيع أن اؤكد – دون أن أغرق في

المبالغة – بانه قد بدأ يغير في ذهنه الحجرة التي حجزها في قطار رود – آيلاند بحجرة ذات سرير في الدرجة الثانية .

قالت مدام س ... بحرارة ، وكانت عيناها تشعان كسلا :

ـ انه أجمل خبر .. أروع خبر سمعته في حياتي كلها .

* * *

وفي يوم الأحد الذي قفزت فيه على رصيف محطة وندسور في مونتريال . كنت ارتدي بزة من الجاباردين الترابي اللون . وكانت تبدو لي هائلة ، وقميصاً ازرق غامقاً ، وربطة عنق قطنية صفراء ، فاقعة اللون . وجوارب مخططة باللونين الأبيض والبني ، وقبعة صيفية تخص بوبي - كانت صغيرة القياس بالنسبة لي ، الى شارب أحمر عمره ثلاثة أسابيع . وهناك وجدت السيد يوشوتو في انتظاري . كان رجلا نحيلا ، لا يتجاوز طوله المائة والخمسين سنتيمتراً ، يرتدي بزة من الكتان متسخة بعض الشيء ، تعلو رأسه قبعة سوداء ذات أطراف معكوفة ، وينتعل حذاء أسود . لم يبتسم ، ولم يتلفظ - على ما اذكر – بكلمة واحدة عندما تصافحنا . كان تعبير وجهه – وسأستعير هنا الكلمة التي سأستعملها لوصفه من كتاب فومانشو لساكس رومر « الطبعة الفرنسية » . اقول : كان تعبير وجهه مغلقاً . ولا ادري لماذا رسمت على وجهي ابتسامة عريضة من الأذن الى الأذن الأخرى لم استطع تخفيفها ، بله التخلص منها .

كانت المدرسة تبعد عن محطة وندسور بضعة كيلومترات على الانسان ان يجتازها بالاوتوبوس . واشك في ان يكون السيد يوشوتو قد تلفظ بخمس كلمات طوال الطريق . أما أنا فاني لم انقطع عن الحديث بالرغم من صمته المطبق ، وربما كان هذا الصمت هو الذي دفعني دفعاً الى الكلام . كنت اتحدث وساقاي متصالبتان – كاحل الاولى على ركبة الاخرى – ، وانا اجفف العرق عن راحة يدي باستمرار بمسحهما على جواربي . كان يبدو لي امراً عاجلا جدا لا أن اكتفي بتوكيد اكاذيبي السابقة فقط حول موضوع قرابتي من السيد دوميه ،

ووفـــاة زوجتي ، ومزرعتي الصغيرة في جنوب فرنسا . بل أن أنسج حولهـــا الاحاديث . واخيراً ، ولئلا استقر حول هذه الذكريات الأليمة — وقـد بدأت تصبح أليمة بعض الشيء — رأيتني أنتقل الى شخص اقدم واعز صديق لأسرتي : بابلو بيكاسو ، بيكاسو المسكين كا كنت اسميه .

لقد اخترت بيكاسو ، ويجب ان اعترف بذلك ، لأنه يبدو اكثر الرسامين الفرنسيين شهرة في الولايات المتحدة ، وكنت انظر الى كندا بصورة عامة على انها جزء من الولايات المتحدة ، ورحت اكرر للسيد يوشوتو بموجة من التأثر ألمي لمصير عملاق هوى .

كم من مرة قلت له :

— الى أين تلقي بنفسك يا سيد بيكاسو ؟

أما المعلم الكبير فقد كان سرعان ما يجيب على سؤالي العميق ذاك بأن يذرع الستوديو بخطى بطيئة ، ثقيلة ، ليتوقف أمـــام احدى لوحاته عن « المهرجين » والمجد الذي أضاعه منذ زمن طويل ورحت أشرح له ، ونحن ننزل الاوتوبوس ، مشكلة بيكاسو الكبرى وهي أنه لا يصغي لأحد،حتى ولو كان أخلص أصدقائه .

كان اصدقاء الفن القديم يقيمون عام ١٩٣٩ في الطابق الثاني من بناية صغيرة ، كئيبة المنظر ، تتألف من ثلاثة طوابق ، في حي فردان ، أشد احياء مونتريال كآبة . وكانت المدرسة تقع فوق مخزن يبيع ادوات لتقويم أعضـــاء الجسم ، وتتألف من غرفـــة واسعة ، ومرحاض بدون قفل . هذا هو عالم أصدقاء الفن القديم كله . ومع ذلك فانني ما ان دخلت الغرفة حتى بدت لي فخمة المنظر .. وكان لذلك سبب هام وهو أن جدران غرفة المدرسين كانت تزدان بعدة لوحات رائعة ، مؤطرة ؛ كانت من عمل السيد يوشوتو نفسه . إنني ما ازال حتى الآن أحلم من حين لآخر بتلك الاوزة البرية البيضاء ، تحوم في سمـــاء زرقاء ، شديدة الشحوب . كانت اللوحة تتميز بجرأة ، وكمال فني ينم عن دراية تامة بالمهنة الى حد

لم اشهد له مثيلاً من قبل . وكانت زرقة السماء ، او بالأحرى ، هالة من زرقـــة السماء تنعكس على اجنحة الطائر . كانت اللوحـــة معلقة خلف مكتب السيدة يوشوتو ، مع اثنين او ثلاث أخر تقاربها من حيث النوع والجودة . وكانت هذه اللوحات تضفي على الغرفة طابعاً بديعاً .

وعندما دخلنا – أنا والسيد يوشوتو – غرفة المدرسين كانت السيدة يوشوتو تكنس ارض الغرفة بمكنسة قصيرة اليد ، وهي ترتدي « كيمونو » جميـــلا من الحرير الأسود والأحمر . كانت امرأة ذات شعر رمادي ، أطول من زوجها بمقدار رأس كامل ، وكانت ملامحها تبدو ماليزية اكثر منها يابانية .

وتوقفت عن الكنس ، وتقدمت نحونا ، فقدمنا السيد يوشوتو : الواحد الى الآخر ، باقتضاب ، وسرعان ما بدت لي مغلقة من جميـع الوجوه كالسيد يوشوتو تماماً ، إن لم تكن أشد غموضاً . ثم عرض علي السيد يوشوقو أن يريني غرفتي التي كانت حتى أمد قريب ، كما شرح لي بالفرنسية ، غرفة ابنه الذي ذهب للعمـــل بمزرعة في كولومبيا البريطانية . (كنت كثير الامتنان لتلفظه ،بعد الصمت الطويل داخل الاوتوبوس ، ولو بكلمتين متتابعتـــين وكنت أصغي بشغف) . واندفـــع يعتذر لأنه لم يكن هناك كراسي في غرفة ابنه ، بل وسائد فقط ملقاة على الأرض ، ولكني بادرت لاقناعـــه بان ذلك من حسن حظي . (واعتقد أيضا بانني قلت اني امقت الكراسي . كنت شديد الانفعال لدرجة انه لو اعلن لى بان غرفة ابنه كانت غارقة بالماء الى ارتفاع ثلاثين سنتيمترا ليلا نهارا لما ترددت أن اشهق امامه تعبيرا عن السرور . ولما فاتني ان اذكر له أني مصاب بمرض غريب في رجلي يضطرني الى غطسهما في الماء ثماني ساعات كل يوم .)

وعندئذ قادني الى غرفتي مارا بدرج خشبي يطقطق ، وفي اثناء الطريق اكدت له بشدة أني كنت ادرس البوذية . ثم اكتشفت بعد فـــترة ان السيد يوشوتو والسيدة زوجته كانا ينتميان الى احد المذاهب البروتستانتية . وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة ، بينما كنت متمددا على السرير ، دون ان يجد النوم سبيلا الى عيني ،

(فقد كان عشاء السيدة يوشوتو الياباني ـ المالينيزي يجثم كتلة ضخمة فوق معدتي ويحول عظم القص الى مصعد .) في تلك الساعة راح احد آل يوشوتو يئن في نومه، في الطرف الآخر من الجدار . كان أنيناً حاداً ، ضعيفاً ، متكسراً أقرب الى انين طفل غير طبيعي ، او حيوان صغير هزيل منه الى صوت انسان راشد .

(كان ذلك الفصل المؤثر يتكرر كل ليلة ، ولم استطع مطلقاً ان أحدد من من آل يوشوتو هو الذي يقوم به ، كما لم استطع ان ادرك له سبباً) .

وعندما أصبح ذلك أمراً يصعب عليّ سماعه وانا متمدد كان لابد لي أن اغادر السرير ، وانتعل خفي ، واتخطى في الظلمة ، واقبع على احدى الحشايا وساقاي متصالبتان ـ الواحدة فوق الاخرى . .

مكثت هناك ساعتين ادخن السجائر . واسحق أعقابها على عقب خفّيّ ، ثم اضعها في جيب منامتي . (لم يكن آل يوشوتو يدخنان ، ولهذا السبب لم يكن في المنزل منافض للسجائر ،) ولم استطع أن أغمض عيني الا في حوالي الساعة الخامسة صباحاً .

وفي الساعة السادسة والنصف قرع السيد يوشوتو باب غرفتي ليعلن لي أن الافطار سيكون جاهزاً في الساعة السابعة الا ربعاً . ولم ينس أن يسألني من خلال الباب ما اذا كنت قد نمت بصورة جيدة ، فأجبته بـ « نعم » ثم ارتديت ثيابي . (لبست بزتي الكحلية التي وجدتها انسب ما يكون لمدرس في يوم افتتاح الدروس ، ووضعت معها ربطة عنق حمراء من عند سولكا كانت امي قد قدمتها لي .) ثم اسرعت بالنزول الى مطبخ آل يوشوتو دون أن أغتسل .

كانت السيدة يوشوتو تقلي السمك امام المدفأة ، وتعده لطعام الافطار . أما السيد يوشوتو فقد كان يجلس الى المائدة بالبنطال ، والقميص القطني فقط ، وهو يطالع صحيفة يابانية . وعندما لحني هزّ لي رأسه هزة مجاملة فقط ، فبدا لي الاثنان اكثر غموضاً وانغلاقاً من ذي قبل .

أخذت مكاني من المائدة ، وقدمت لي قطعة من السمك في طبق على حافته

اثر ضئيل من مرق البندورة ، ولكنه ظاهر للعيان .

وسألتني السيدة يوشوتو بالانجليزية - بلهجة ساحرة الى أبعد الحدود لم اكن اتوقعها قط - ما اذا كنت أفضل ان اتناول بيضة . ولكني اجبت بالفرنسية : « شكراً ، يا سيدتي . » وقلت بأني لا اذوق البيض مطلقاً . ودس السيد يوشوتو صحيفته على المائدة ، واسندها على كأسي ، ثم رحنا نأكل ، نحن الثلاثة ، بصمت ، او بصورة ادق كان الاثنان يأكلان ، وكنت انا ازدرد الطعام بجهد في اطار من الصمت المطبق .

وما انتهى طعام الافطار حتى ارتدى السيد يوشوتو قميصاً بلا ياقة دون ان يغادر المطبخ ، وخلعت السيدة يوشوتو صدارها ، ثم نزلنا نحن الثلاثة في قافلة الواحد وراء الآخر ، الى « غرفة المدرسين » . وهناك على مكتب السيد يوشوتو كانت تنتشر بشكل فوضوي عدة دزينات من المغلفات الكبيرة السمراء اللون الثقيلة ، المنتفخة ، قدرت انها لا بد أن تكون اللوحات المرسومة حديثا من قبل التلاميذ الجدد .

ارشدني السيد يوشوتو الى مكتبي الموضوع بشكل منعزل في الجانب الآخر من الحجرة ، ورجاني ان اجلس . ثم أخذ يفتح عــدداً من المغلفات ، والسيدة يوشوتو الى جانبه ، وخيل الي انهما يفحصان محتوياتها بطريقة ما ، وهما يتشاوران من حين لآخر باللغة اليابانية ، بينما بقيت انا هنــاك جالساً في الطرف الآخر من الحجرة ، ببزتي الكحلية ، وربطة عنقي الحمراء ، وانا احاول النظر في حيوية هادئة ، والظهور بمظهر الشخص الضروري لحسن سير المؤسسة . ولم البث ان اخرجت من جيب سترتي قبضة من اقلام الرسم اللينة كنت قد احضرتهــا من نيويورك ، ووضعتها بكل ما استطيع من هــدوء على المكتب . وفي لحظة من اللحظات القى السيد يوشوتو نظرة نحوي ، لسبب او لآخر ، فرميته بابتسامة لا حد لرقتها . وفجأة ، ودون ان ينبسا بكلمة ، او يلقيا بنظرة نحوي ، جلس كل منهما على مكتبه الخاص وشرعا يعملان . كانت الساعة اذ ذاك حوالي السابعة والنصف .

وحوالي الساعة التاسعة خلع السيد يوشوتو نظارتيه ، ثم انتصب واقفـاً ، وتقدم الى مكتبي بخطوات غير مسموعة ، وبيده رزمة من الأوراق . كنت قد امضيت ساعة ونصف الساعة دون أن اعمل شيئاً ، اللهم الا أن احاول ايقـاف معدتي عن القرقرة بصوت عال . فوقفت فوراً لدى اقترابه ؛ وانا احني رأسي لئلا يسيء طول قامتي الى توكيد احترامي له، ومد لي رزمة من الأوراق وطلب الي أن اكون لطيفاً ، واترجم الى الانكليزية التصحيحات المكتوبة التي وضعهـا باللغة الفرنسية . قلت : « نعم ، يا سيدي » ... فانحنى قليلاً ، وعاد الى مكتبه بنفس الخطى غير المسموعة . وازحت قبضة اقلام الرسم اللينة الى زاوية المكتب واخرجت قلم الحبر ، وانصرفت للعمل – وقلبي نصف محطم .

كان السيد يوشوتو ككثير من الرسامين المهرة لا يعلم الرسم خيراً مما يفعل أي رسام عادي يملك موهبة خاصة للتعليم . كان اسلوبه العملي في التصحيح يتلخص في أن يرسم الرسوم على ورق شفاف ، ثم يلصقها فوق رسوم التلاميذ ؛ مشفوعـة بملاحظات يسجلها على ظهر الاوراق .

وهكذا كان السيد يوشوتو يبدو قادراً على ان يبين للرسام المبتدىء الذي يملك شيئاً من موهبة كيف يرسم خنزيراً يمكن التعرف اليه في زريبة للخنازير قريبة من الواقع . وكان قادراً في الوقت ذاته ان يعلمه ايضاً كيف يرسم خنزيراً يستهوي الناظر في زريبة جذابة . ولكنه لن يستطيـع مطلقاً، ولو امضى حياته كلها في ذلك ، ان يبين لشخص ما كيف يرسم خنزيراً جميل ، في زريبة جميلة . (وهذه هي المعضلة الفنية التي كان خيرة تلاميذه يتمنون لو ترسل اليهم بالبريد). وليس معنى ذلك – لا ادري اذا كان من الضروري ان اضيف هذا – أنه يضن بموهبته عن قصد او غير قِصد ، او انه لا يريد ان يجعل الآخرين يفيدون منها ، ولكنه اسلوبه في التعبير فقط . ولم يكن في هذه الحقيقة القاسية مـا يفاجئني : صحيـح انها لم تفاجئني ، ولكنها تركت في اثراً ضاعف من العزلة التي كنت احسها وانا جالس ارقب موعد الغداء الذي يقترب وكان علي ان اضاعف انتباهي

لئلا تتسخ اوراقي لكثرة ما كانت يداي تعرقان . وكان خط السيد يوشوتو لا يكاد يُقرأ وكأنما جاء ذلك ليتوج الضيق الذي اعانيه .

وعندما ازف موعد الغداء لم تكن لدي اية رغبة في الانضمام الى آل يوشوتو أياً كان الثمن ، فاحتججت بالذهاب الى البريد ، وهبطت السلم ، وهرولت الى الخارج ، ورحت أسير حيث تقودني قدماي بخطى سريعة في متاهة من الطرقات القريبة ، القبيحة . وعندما وصلت أمام مشرب يبيع بعض الاطعمة الخفيفة وجدتني ادخل المكان وازدرد على عجل اربع قطع من القديد الحار ، وثلاثة اقداح من القهوة الموحلة .

وفي طريق عودتي الى اصدقاء الفن القديم . رحت أتساءل في شيء من الذعر وفي نوبة من الانهيار المعنوي كانت مألوفة بالنسبة لي الا أن التجربة علمتني كيف اسيطر عليها نوعاً ما ، رحت اتساءل : لماذا استخدمني السيد يوشوتو في الصباح كمجرد مترجم فقط ؟ أترى كان عنده ما يلومني عليه بشكل خاص ؟ هل اكتشف آل - فومانشو - العجوز منذ البداية ، من خلال الأسماء المستعارة ، والصفات الكاذبة ، أنني كنت أحمل شاربي شاب في التاسعة عشرة ؟

لم يكن من السهل علي ان أتصور هذا الاحتمال : ولم يكن من السهل قبوله بالنسبة لي ، بالنسبة لشعوري بالعدالة . استخدم مترجماً ؟...

أنا ؟ الرجل الذي نال الجوائز الثلاث الأولى ؟ انا .. الصديق الحميم لبيكاسو؟ (وقد بدأت حقاً بتصديق ذلك نهائيا .)

لم يكن العقاب يتناسب مع الجريمة كما خيل الي ، لأن الشاربين - على بعثرتهما - كانا شاربي انا ، لم الصقهما الصاقاً . ورحت أتحسسهما لأطمئن على ذلك وانا احث الخطى نحو المدرسة . وكلما فكرت في هذه القضية . برمتها ضاعفت من سرعتي حتى رحت في النهاية أجري جرياً كما لو كنت اتوقع ان تلقى علي في كل لحظة كومة من الحجارة .

لم يأخذ الغداء من وقتي أكثر من أربعين دقيقة . ولكني عندما عدت كان آل يوشوتو قد بدآ العمل . لم يرفعا رأسيهما ، ولم يبدر منهما ما يدل على انهما سمعاني ادخل . قصدت الى مكتبي على التو وانا الهث ، والعرق يتصبب مني ، ومكثت متصلباً ، صامتاً ؛ في الدقائق الخمس عشرة او العشرين التي تلت ، وانا اجتر مجموعة متنوعة من النكت الصغيرة المستحدثة حول بيكاسو استعداداً للحظة التي سيقف فيها السيد يوشوتو بغتة ، ويقترب مني ليكشف زيفي :

وفجأة ، وقف واقترب مني ، فنهضت لاستقباله شاداً قامتي ، رافعاً رأسي ، استعداداً للمفاجآت ، وفي جعبتي نكتة صغيرة ، جديـــدة ، حول بيكاسو ، ولكني نسيت عقدتها من فرط الدهشة اثناء اقترابه ، واضطربت لذلك أيمـــا اضطراب . ولم ألبث أن انتهزت الفرصة لأعبر له عن اعجابي بلوحة الاوزة البرية المعلقة فوق مكتب السيدة يوشوتو ، ورحت اكيل له الثناء فترة طويلة، وقلت : بأني اعرف شخصاً في باريس – وهو رجل ثري مشلول على وجه التحديد – على استعداد لأن يدفع أي ثمن ليظفر بهذه اللوحة . ثم اضفت قائلاً بأني استطيـع الاتصال به حالاً اذا كان الأمر يهم السيد يوشوتو . وكان من حسن الحظ على كل حال أن اعلن السيد يوشوتو أن اللوحة تخص ابن عمه الذي ذهب الى اليابان في زيارة لأقربائه . ودون أن يترك المجال لأعبر عن أسفي لذلك ، سألني وهو يلقبني بالسيد دوميه سميث ما اذا كنت اود أن اتلطف بتصحيـح بعض الوظائف . ثم ذهب الى مكتبه وعاد مع ثلاثة من المغلفات الضخمة ، الهائلة ، ووضعهـــا على منضدتي . ثم راح السيد يوشوتو يشرح لي طرق التدريس في المدرسة . او على الأصح – عدم وجود أية طريقة للتعليم ، بينما كنت انا اهز رأسي بلا انقطاع من الدهشة ، متحسساً اقلام الرسم التي اعدتهـــا الى جيبي من خلال قماش سترتي . واحتجت الى عدة دقائق بعد أن عاد الى مكتبه لأفيق من ذهولي .

كان التلاميذ الثلاثة الذين أوكل الي امرهم يكتبون بالانكليزية . كانت الأولى ربة منزل من تورنتو ؟ تبلغ الثالثة والعشرين من العمر ، ترسل لوحاتهـــا تحت

اسم « بامبي كرامر » وترجو من المدرسة ان تراسلها بهذا الاسم المستعار ذاته .

كانت مدرسة أصدقاء الفن القديم تطلب الى تلاميذها ان يملأوا استمارة ويرفقوا بها صورة من صور الهوية . أما الآنسة كرامر فقد ارسلت صورة مكبرة من قياس ١٨ × ٢٤ ، على ورق صقيل لامع ، تبدو فيها وهي تضع خلخالاً في رسغ قدمها ، ولباس استحمام دون حمالات ، وقبعة بحار بيضاء . وكانت قد سجلت في الاستمارة بأن رساميها المفضلين هم : رامبرنت ، ووالت ديزني ، واضافت أن كل آمالها تنحصر بأن تتمكن من تقليدهما يوماً ما .

كانت رسومها مربوطة تحت صورتها كأنها موضوع ثانوي . وكانت جميعها تلفت النظر . ولكن واحداً منها لم يكن لينسى ابداً . كان النموذج الذي لا يُنسى عبارة عن فوضى من الألوان المائية مذيلة بهذه الأسطورة : « يا آلهي ، اغفر لهم خطاياهم ! » وكان يمثل ثلاثة صبيان يصطادون في ماء غريب المنظر ، وقد علق أحدهم سترته على لافتة كتب عليها « الصيد ممنوع » . وكان اطولهم يبدو في المقدمة وكأن احدى ساقيه مصابة بالخرع ، والساق الثانية مصابة بالتضخم وقد تعمدت ذلك الآنسة كرامر ، كما يبدو بوضوح ، لأن الصبي كان يقف وساقاه منفرجتان قليلاً .

اما تلميذي الثاني فكان مصوراً فوتوغرافياً من وندسور ، اونتاريو . اسمه ر . هوارد ريجفيلد ، يبلغ السادسة والخمسين ، ويقول بأن زوجته تلاحقه منذ سنين ليبدأ اهتمامه بالرسم والتلوين . كان رساموه المفضلون رمبرانت ، وسارجنت وتيتان . ولكنه لا ينسى أن يضيف بأنه لا ينوي أن يزعج نفسه بتقليدهم . ثم يذكر فيما يذكر أنه يهتم بالجانب الساخر للرسم اكثر من الجانب الفني . ولتوكيد هذا الرأي ارفق بالاستمارة عدداً كبيراً من الرسوم الطريفة ، ومن اللوحات الزيتية . وما ازال اذكر احدى لوحاته ؛ تلك التي اعدها احسن ما تلقيت منه . لقد بقيت تتردد في ذاكرتي على مر الزمن كما تتردد كلمات أغنية رقيقة مثل

« يا حبيبي .. انت أملي ! » او « دعني اناديك .. يا حبيبي ! » ، كانت اللوحة تمثل موضوع السخرية المألوف الذي لا يغني : فتـــاة عذراء ، ذات شعر أشقر طويل ، بصدر كصدر البقرة الحلوب ، تفترس بوحشية في الكنيسة ، وفي ظـل المذبح نفسه من قبل كاهنها . كانت ملابس الاثنين – الكاهن والفتاة – في فوضى ظاهرة . والحق أني دهشت لطريقة الرسم اكثر مما دهشت لفكرة النقد . ولو لم اكن على يقين من أن الواحد منهما يقطن على بعد آلاف الكيلو مترات عن الآخر لراهنت بأن ريجفيلد قد تلقى نصائح فنية من بامبي كرامر .

عندما كنت في التاسعة عشرة كانت رغبتي في الضحك تتعرض في اللحظات الحرجة ، ما عدا حالات نادرة ، للشلل جزئياً تارة ، وكلياً تارة اخرى . لقـــد تركني ريجفيلد والآنسة كرامر نهباً لمشاعر عديدة ، ولكنهما لم يبعثا في ، في أية لحظة من اللحظات ، الرغبة في الضحك . لقد خطر لي ثلاث مرات او اربـــع ، بينما كنت ادرس رسومهـــما ان انهض واذهب الى السيد يوشوتو لاحتج احتجاجاً شديداً . ولكني لم اكن اعرف أي اسلوب اعتمد في احتجاجي . لقـــد كنت اخشى على ما اظن ألا اكون قادراً على الذهاب الى مكتبه الا من أجل أن أعلن له بلهجة جافة ، وبصوت حاد : « أن امي ميتة ، وأن علي ان اعيش مع زوجها الرقيق وليس هناك في نيويورك من يتكلم الفرنسية ، وانه ليس هناك حتى كرسي في غرفة ابنك ! اذاً ، فكيف بالله عليك استطيـــع تعليم الرسم لهذين المجنونين ؟» وفي النهاية نجحت بسهولة في البقاء جالساً حيث انا ، نتيجة لمراني الطويـــل على كبت يأسي ، وفتحت مغلف تلميذي الثالث .

لم يكن تلميذي الثالث سوى راهبة من جماعة اخوات القديس يوسف ، اسمها الاخت ايرما ، تقول بانها تعلم الرسم ، والتدبير المنزلي ، في مدرسة دير ابتدائية ، تقع في نهاية مدينة تورنتو . ولا ادري بالضبط كيف ابدأ بوصف ما يحتويه مغلفها . ربما استطعت ان اذكر اولا أن الاخت ايرما استعاضت عن وضع صورة لهـــا بصورة للدير دون ان تقدم تفسيراً لذلك . وما ازال اذكر انهـــا تركت سطر

الاستمارة المخصص لذكر سن التلميذ فارغاً . اما بقية الاستمارة فقد كانت مكتوبة كما تكتب أية استمارة أخرى في العالم : « لقد ولدت في ديترويت – ميشيغان ، ونشأت هناك . كان والدها مراقباً في شركة سيارات فورد . لم تكن دراستها العليا تتعدى السنة الواحدة من الدراسة التكميلية . ولم تكن قد تابعت أي درس في الرسم وقد ذكرت أن السبب الوحيد الذي جعلها تعلم هـــذه المادة هو أن الاخت ... قد ماتت ، وان الأب زيرمان – وقد أثر في هذا الاسم كثيراً لأنه كان كأسم الطبيب الذي اقتلع لي اسناني الثمان – أقول : إن الأب زيرمان هذا قد اختارها لتحل محل الأخت المتوفاة . ثم اضافت تقول بأن في صفها « اربعة وثلاثين كتكوتاً » وفي صف الرسم « ثمانية عشر كتكوتاً » آخرين ، وانهـا تملأ اوقات فراغها بحب الله ، وبكلام الله . وبجمع اوراق الشجر أيضـاً ، ولكن عندما تسقط على الأرض فقط . كان رسامها المفضل دوغلاس بانتينغ ، (وهو اسم لا أخجل ان اقول أني بحثت عما يعنيه طوال هذه السنوات الخمس بلاجدوى) ولم تنس ان تذكر أن فراخها الصغيرة تحب أن ترسم اشخاصاً يركضون ، وأن ذلك بالضبط هو اسوأ ما ترسمه هي . واضافت أنها قد صممت على ان تبذل كل ما في وسعها لتتعلم الرسم ، وترجو ان نتحلى بالصبر معها . »

لم يكن في المغلف الا ستة نماذج من رسمها لا غير ، (ولم يكن اي من رسومها مذيلاً بتوقيعها . وهو موضوع ليس بذي بال . ولكنه بدا لي حينئذ شيئاً يبعث على الارتياح . فقد كان كل أثر من آثار بامبي كرامر وريجفيلد مذيلاً بتوقيـع صريح واضح . ولعل الذي كان أشد ازعاجـاً لي وجود الحرفين الأولين من اسميهما كما يفعل اعلام الرسم) .

والآن ، وبعد ثلاث عشرة سنة ، فأني لا اذكر بوضوح لوحات الأخت ايرما الست فحسب ، بل يبدو لي احياناً اني اذكر اربعاً منها بجلاء ما يزال يبعث في نفسي هزة عميقة حتى الساعة . كان احسن رسومها رسماً مائياً على ورق بـني اللون ، (والورق البني ، ولا سيما ورق التغليف ، هو ورق جيد ، طري ، يعين

كثيرا على الرسم ، وقد استخدمه اكثر من رسام مجرب عندما لم تكن عنده النية لرسم شيء هام جداً ، او شيء ضخم .) كان الرسم المائي بالرغم من مساحته المحدودة ، (وهي عشرون سنتيمتراً بخمسة وعشرين تقريباً .) يمثل في تفاصيله الدقيقة نقل السيد المسيح الى الضريح المقدس في حديقة يوسف الأريماطي .كان في المقدمة في أقصى اليمين رجلان هما من خدم يوسف كما يبدو يحملان المسيح بطريقة سيئة ، ويتبعهما يوسف الأريماطي بقامة منتصبة اكثر مما ينبغي نظرا للظروف . ثم يأتي وراء يوسف ، وعلى بعد مناسب ، نساء الجليل وقد اختلطن مع حشد مبرقش ، غير منظم من النائحات المسكينات والأولاد ، وعدد لا يقل عن الثلاثة من نافخي البوق يقفزون بنفاق . كانت أهم شخصية في تلك اللوحة ، في رأيي ، شخصية امرأة رسمت من الوجه ، في مقدمة اللوحة ، الى الجانب الأيسر . كانت ذراعها اليمنى فوق رأسها . وكانت تلوح باشارات عجلى الى شخص ما ، ربما كان ابنها او زوجها او الشخص الذي ينظر الى اللوحة تدعوه لكي يدع كل شيء جانباً ، ويأتي اليها على الفور . كانت هناك امرأتان تحيط برأس كل منهما هالة من النور ، وقد تعذر علي معرفتهما على وجه اليقين لأني لم يكن في حوزتي إنجيل هناك . ومع ذلك فقد تعرفت فوراً على ماري مادلين، او كنت على الأقل لا اشك في معرفتها كانت في الوسط ، في مقدمة اللوحة، تسير كما يبدو دون أن تكترث بالحشد وذراعاها متدليتان على جانبيها . لم تكن تحمل أي اثر للحزن . وفي الحقيقة ، لم يكن فيها شيء على الاطلاق يمكن ان يذكر بعلاقتها الحديثة مع المتوفى ، تلك العلاقة التي كانت مثار حسد الكثيرات . كان وجهها ككل الوجوه في اللوحة ، ملوناً بلون البشرة الرخيص الجاهز . وكان يبدو واضحاً بمرارة أن الأخت ايرما نفسها لم تكن مرتاحة الى هذا اللون الذي حصلت عليه ، وانها بذلت جهدها لتخفف منه قليلا . لم يكن هناك من أخطاء أخرى هامة في اللوحة ، اذا لم نشأ أن نطيل المماحكة والنقد . كانت في جملتها عملا فنياً

تطلب موهبة منظمة . والله وحده يعلم كم من الساعات اللأى بالجهـــد المرير اقتضاها هذا العمل .

كان أول ما دار في خاطري ، في الحقيقة ، أن أهرول نحو السيد – يوشوتو مع مغلف الأخت إيرما . ولكني مكثت جالساً مرة أخرى . لم اكن ارغب في ان اجازف واری نفسي محروماً من الأخت ايرما ، فاذا أنا أغلق المغلف بعناية ، وأضعه على زاوية من المكتب ، وانا شديد الحماسة لفكرة العمل به في الليلة التالية في اوقات فراغي .

امضيت بقية ما بعد الظهيرة بصبر لم اكن أصدق أني أمتلكه في تصحيح صور عادية لرجال ونساء (من دون عضو جنسي) ، رسمها ر . هوارد ريجفيلد على درجة لا بأس بها من البذاءة . ولما أزفت ساعة العشاء فككت ثلاثة من ازرار قميصي ، ودسست مغلف الاخت ايرما حيث لا يستطيع اللصوص ، حتى ولا آل يوشوتو انفسهم أن يعثروا عليه ، زيادة في الحرص والاطمئنان .

كان هناك طقوس ضمنية ، ولكنهـــا صلبة لا تقبل التعديل ، تتقدم طعام العشاء كل يوم عند اصدقـــاء الفن القديم . كانت السيدة يوشوتو تنهـــض فجأة من مكتبهـــا في تمـــام الساعـــة الخامسة والنصف وتصعد لاعداد الطعام . وكنا نتبعها انا والسيد يوشوتو الواحد تلو الآخر في تمام السادسة . ولم نكن لنشذ عن هـــذه القاعدة ولو كان ذلك لسبب صحي قاهر . ولكني في هذا المساء بالذات شعرت وانا أحمل مغلف الأخت ايرما ملتصقاً بي ، يبعث الدفء في صدري ، براحة لم اشعر بمثلها من قبل مطلقاً . وفي الواقع بدوت طوال فترة العشاء منشرحاً بشكل ليس له نظير . ولم أنس ان اقص قصة صغيرة حول بيكاسو مرت بذهني في حينها ؛ قصة كنت استطيـع ارجاء سردها الى يوم ماطر . ولم يخفض السيد يوشوتو صحيفته الا بمقدار بسيط للاصغاء اليها . ولكن السيدة يوشوتو بدت اكثر انبساطاً ، او بالأحرى اقل انطواء . وعلى كل فقـــد

رأيتها توجه الي الحديث عندما انتهيت لأول مرة منـــذ الصباح ، وذلك عندما طلبت الي ما اذا كنت افضل أن اتناول بيضة . ثم سألتني عما اذا كنت ما ازال غير راغب حقاً في وجود كرسي بغرفتي . فأجبت بحرارة : لا . لا داعي لذلك. شكرا يا سيدتي . وقلت بأن الطريقة التي ركزت فيها الوسائد على الجدار تهيء لي فرصة طيبة لأروض نفسي على الجلوس بشكل مستقيم ، ونهضت لأبين لها الى اي حد كنت اعاني من تقويس الظهر . وبينما كان آل يوشوتو يتجادلان باليابانية بعد العشاء في احد المواضيـع الغامضة استأذنت منهما بأدب، وهممت بالانصراف. فنظر الي السيد يوشوتو نظرة من يتساءل : كيف اجد نفسي في منزلهم . وهل تراني اتذوق طعامهم ؟ ولم يلبث ان وافق على طلبي ، فاتجهت مسرعاً الى الممر المفضي الى غرفتي .

وما ان اضأت الغرفة ، واوصدت الباب من ورائي ، حتى اخرجت اقلام الرسم من جيبي ، وخلعت سترتي ، ثم فككت قميصي ، وجلست على وسادة ومغلف الأخت ايرما بين يدي ، ومضيت حتى ما بعـــد الساعة الرابعة صباحاً ، وقد بعثرت كل ما احتاجه حولي على الأرض ، اجهد في ان ارضي كل ما كنت اعتقده الحاجات الفنية المباشرة للأخت ايرما . .

كان اول ما فعلته هو أن رسمت عشرة ، او اثني عشر نموذجاً بالقلم . وبدلا من أن انزل لأحضر ورقاً للرسم من « غرفة المدرسين » رحت ارسم النماذج على دفتري الخاص ، مستخدماً كل ورقة على الوجهين وعندما انجزت ذلك دبجت رسالة طويلة دونما نهاية . لقد دأبت طوال حياتي على ان احتفظ بالأشياء كغراب ممسوس ، لذلك فاني ما ازال احتفظ بالمسودة الأخيرة للرسالة الـتي كتبتها للأخت ايرما في تلك الليلة من حزيران عام ١٩٣٩ ؛ وباستطاعتي الآن ان انقلها كلها هنا . . كلمة . . كلمة . . ولكني لا أرى ذلك ضرورياً .

في القسم الاكبر من رسالتي اللامتناهية ـ وهي لا متناهية فعلاً ـ جهدت في

ان اشرح لها كيف وجدت في لوحتها الرئيسية بعض الصعوبات ، واين وجدتها ، ولا سيما بالنسبة للألوان . وكتبت لها قائمة ببعض اللوازم التي تحتاجها . واضفتُ اليها اثمانها التقريبية . وسألت عن دوغلاس بونتينغ واين استطيع ان أرى بعضاً من انتاجه . وسألتها (وكنت اعرف سلفاً ان ذلك غير ممكن) ما اذا كانت قد شاهدت في يوم من الأيام بعض اللوحات الزيتية لأنتونيللو ، او مسينا . ثم رجوتها ان تذكر لي عمرها ، وأكدت لها في طوفان من الجمل انها اذا ما ذكرته لي فان ذلك سيبقى سراً فيما بيننا . وشرحت لها بأن الدافع الوحيد الذي يدفعني لهذا السؤال هو ان معرفتي لسنها تساعدني على تعليمها بصورة اجدى . ودون ان التقط انفاسي سألتها ايضاً ما اذا كان يسمح لها باستقبال بعض الزائرين في الدير .

اما الأسطر الأخيرة ، او بالأحرى « الديسيمترات المكعبة » الباقية من الرسالة كما اذكر فيجب ان تنقل هنا بحذافيرها ؛ بنفس التراكيب والفواصل ، و .. كل شيء ...

« اذا كنت تتكلمين الفرنسية فسأكون معترفاً لك بالجميل اذا ذكرت ذلك لي ، لأني استطيع التعبير عن نفسي بوضوح في تلك اللغة نظراً لأني أمضيت الجانب الاكبر من شبابي في باريس بفرنسا .

وبما انك مهتمة كما ارى بتمثيل الأشخاص اثناء الحركة ، وبما انك مضطرة لتعليم هذا الضرب من الرسوم لتلاميذك في الدير فاني ارفق بهذه الرسالة عدة نماذج صنعتها بنفسي ارجو ان تكون ذات فائدة لك . سترين باني رسمتها بسرعة كبيرة ، وانها ليست كاملة تماماً . وليست حتى نماذج للاقتداء ، ولكني اعتقد بانها قد تبين لك المبادىء التي تحتاجين اليها . ويؤسفني ان اصارحك بان مدير هذه المؤسسة لا يملك طريقة معينة للتعليم . اني لسعيد بانك قد خطوت خطوات واسعة في هذا الميدان ، ولكني لا ادري ماذا يريد المدير ان افعل بتلاميذي الآخرين الذين لا اراهم مختلفين فحسب ، بل اغبياء قبل كل شيء . اني من اصحاب الأفكار المتحررة — لسوء الحظ — ولكني اعجب كثيراً مع

ذلك بالقديس فرانسوا الآسيزي - على البعد بالطبـع - واني اتساءل مـــا اذا كنت قد قرأت على سبيل الاتفاق بعض ما قاله (القديس فرانسوا الآسيزي) عندما كانوا على وشك أن يحرقوا احدى عينيه بالحديد المحمى ؟ لقد قال ما يلي :

« ايتها النار ، يا شقيقتي ! لقد خلقك الله جميلة ، قوية . نافعة ، فهلا رأفت بي ! » اني اجد في رسمك ما يشبه كلمات هذا القديس بعض الشبه من عدة وجوه أراها لذيذة ممتعة . وبالمناسبة ، هل استطيع ان اسألك ما اذا كانت المرأة الشابة باللون الأزرق ، في مقدمة اللوحة ، هي مريم المجدليـــة . اني اتحدث عن اللوحة التي تكلمنا عنها بالطبع . اذا لم تكن هي فاني اكون قد خدعت نفسي خدعة كبيرة . ولكنها لن تكون المرة الأولى .

أرجو ان تتأكدي بأني تحت تصرفك ما دمت تلميذة عند اصدقاء الفن القديم . اقول لك مخلصاً بأني اعتقد انك تملكين موهبة فذة ، ولن يدهشني ابداً اذا ما ظهر عما قريب انك عبقرية . ثقي بأني لا اشجعك تشجيعاً كاذباً في هذا المضمار . وذلك هو احد الأسباب التي تدفعني لسؤالك عن حقيقة المرأة الشابة ذات الثوب الأزرق ، الموجودة في مقدمة الصورة ، اهي مريم المجدلية نفسها ؟ إني اخشى ان تكوني قد اطلقت العنان لعبقريتك الناشئة اكثر مما اعطيت لميولك الدينية . على كل حال ، ليس هناك ما يخشى منه في رأيي .

.. مع تمنياتي الصادقة بأن تكوني في صحة جيدة ، سأبقى بكل احـــترام تحت تصرفك .

التوقيـع

جان دو دوميه سميث

استاذ في « اصدقاء الفن القديم »

حاشية :

« لقد كدت أنسى ان اخبرك بأن على التلاميذ ان يرسلوا أعمالهم الى المدرسة يوم الاثنين ، في كل خمسة عشر يوماً . هـــل ترغبين في ان ترسلي الي في المرة القادمة رسوماً خارجية ؟

ارسميها بحرية تامة ، ولا ترغمي نفسك على شيء . لا ادري بالطبـــع كم من الوقت يترك لك في الدير لرسومك الخاصة . إني ارجو ان تذكري ذلك لي ارجوك ايضاً ان تقتني اللوازم الضرورية التي سمحت لنفسي بأن اشير عليك بهـا لأني احب ان تبدئي في اقرب فرصة ممكنة التصوير الزيتي . اغفري لي هـــذا التعبير . ولكني ارى انك مندفعة اكثر مما يجب في اهتمامك بالتلوين المائي دون اللوحات الزيتية .. اني اتكلم بصورة موضوعية تمامـــاً ، ولا انوي مطلقاً ان اكون مصدر ازعاج لك . بل بالعكس . إن في ذلك مزيداً من التقدير لك . ارجو ان ترسلي الي ايضاً كل انتاجك القديم الذي تحتفظين به لأني احترق شوقاً لرؤيته . ستبدو لي الأيام طويلة لا تطاق حتى تصل الي مغلفاتك الجديدة . ذلك بديهي وسأكون شاكراً لك أن تخبريني ـ اذا لم يكن في ذلك تدخـــل في شؤونك الخاصة ـ : هل انت مسرورة كل السرور لكونك راهبـــة ، على المستوى الروحي بالطبـــع ؟!

لقد درست في الواقع ؛ لمجرد التسلية ، عدداً لا بأس به من الديانات . ذلك انني قد قرأت مجلدات هارفارد الكلاسيكية التي تحمل الارقام ٣٦ ، ٤٤ ، ٤٥ وربما كنت تعرفينها . لقد كنت مشغوفاً بمارتن لوثر الذي كان بروتستانتياً بالطبع ارجو الا تجدي في ذلك اية محـــاولة للتجريح . إني لا ادعو الى اي مذهب . فليس ذلك في طبعي . واخيراً ما دمنا في صدد هذا الموضوع فلا تنسي ان تذكري لي ساعات الزيارات عندك . لاني حر في نهاية كل اسبوع كما اعرف . وربما مررت بجوار الدير في احد ايام السبت على سبيل المصادفة . لا تنسي ايضا أن تذكري لي ما اذا كنت تتكلمـــين الفرنسية بصورة صحيحة ، لأنني ضعيف

التعبير باللغة الانكليزية من كل النواحي اذا ما قورنت باللغة الفرنسية بسبب من تربيتي المتنوعة غير المتجانسة الى حد خطير . »

خرجت الى الشارع في حوالي الساعة الرابعة صباحاً لأضع رسالتي ورسومي في صندوق البريد . ثم خلعت ثيابي وانا ثمـل من الفرح واستلقيت على سريري واصابعي متصلبة من الكتابة .

كنت على اهبة النوم عندما قرع سمعي من جديد انين ينبعث من خلال حاجز غرفة آل يوشوتو . وتصورت آل يوشوتو قادمين نحوي في صبيحة اليوم التالي وهما يسألانني ، ويتضرعان بالحاح لأصغي حتى الى ابشع التفاصيل لسرهما المحير . ورحت اتخيل كيف سيجري ذلك تماماً . ساكون جالساً بينهـما امام منضدة المطبخ . وساصغي .. ساصغي .. ساصغي .. ورأسي بـين يدي . حتى اذا أصبحت في النهاية غير قادر على سمع اكثر مما سمعت غصت بيدي في حلق السيدة يوشوتو والتقطت قلبها بين أصابعي ورحت ادفئه كطائر . فاذا ما عادت الأمور الى مجاريها اطلعت آل يوشوتو على لوحات الأخت ايرما وسيقاسمانني فرحي بلا ريب .

تظهر لنا الاشياء البديهية دائمـاً بصورة متأخرة .

ولكن الفرق الوحيد بين السعادة والفرح هـو ان السعادة جسم صلب ، في حين ان الفرح جسم سائل . لقد اخذ فرحي ينسكب من وعائه منذ صباح الغد عندما ترك السيد يوشوتو على مكتبي مغلفات تلميذين جديدين . كنت حينئـذ منهمكاً في تصحيح رسوم بامبي كرامر ، وانا بادي الانشراح لثقتي بأن رسالتي للاخت ايرما قد اصبحت بامان في البريد . ولكني لم اكن قد اعددت نفسي مطلقاً لأواجه هذا الاحتمال الرهيب وهو ان يكون على وجه الأرض شخصان أقـل موهبة واستعداداً للرسم من بامبي كرامر ور . هوارد ريجفليد . واحسست ان كل شجاعتي تخونني ، فأشعلت سيجارة في « غرفة المدرسين » لأول مرة منذ ان اصبحت في عداد الموظفين . ولم ألبث ان استشعرت قليلاً من الراحـة ، ثم عدت

الى وظائف بامبي . ولكنني ماكدت انتهي من سحب ثلاثة او اربعة انفاس من سيجارتي حتى شعرت ، دون ان ارفع رأسي ، بان السيد يوشوتو ينظر الي . ثم تأكدت ظنوني عندما سمعته يدفع كرسيه . فبادرت الاقاته كالمعتاد ، واذا هو يشرح لي بهمس مزعج بانه لا يمانع ابداً في ان ادخن ، ولكن تعليمات المدرسة ، مع الأسف ، تمنع التدخين في « غرفة المدرسين » . وقطع سيل اعتذارتي بحركة وقورة من يده ، وعاد الى زاوية الحجرة التي يتقاسمها مع السيدة يوشوتو . ورحت أتساءل . وقد انتابتني موجة من الذعر ، ماذا علي ان اعمل لأستطيع الاستمرار في البقاء دون ان اصاب بالجنون طوال الايام الثلاثة عشرة القادمة ، حتى يحين يوم الاثنين الذي سترسل فيه الأخت ايرما مغلفها المنتظر .

كان اليوم صباح الثلاثاء . امضيت بقيه ساعات العمل في ذلك النهار ، والنهارين الكاملين التاليين في جهد متواصل . هدمت كل رسوم بامبي كرامر . ور هوارد ريجفيلد واعدت بناءها بعناصر جديدة . ووضعت لكل منهما عشرات وعشرات من التمارين للرسم اعترف انها كانت ظالمة مرهقة ولكنها مفيدة . وكتبت لهما رسائل طويلة فتوسلت الى ر . هوارد ريجفيلد ، او ما يقرب من ذلك ، ان يتجنب النقد والتهكم فترة من الزمن . كما طلبت الى بامبي بكثير من المداراة ان تتفضل بألا ترسل الينا ولو لفترة من الزمن رسوماً مرفقة بأساطير من طراز « اغفر لهم خطاياهم ! » ثم تناولت بعد ظهر الخميس ، وانا احس بانني في حال جيدة ، رسوم احد التلميذين الجديدين ، وهو امريكي من بانجور في الماين ، يقول في استمارته . بتلك الاستقامة الثرثارة التي يتصف بها صبي « في غاية الصراحة » بان رسامه المفضل هو نفسه . كان يتكلم عن نفسه كفنان من المدرسة الواقعية التجريدية .

خرجت مساء الثلاثاء ، بعد انتهاء الدوام ، واستقللت الاوتوبوس الذي يقودني الى وسط مونتريال ، وجلست في صالة من الدرجة الثالثة امام معرض للرسوم المتحركة ، ومضيت اشاهد موكباً من الهررة تطاردها عصابة من الفئران بسدادات

زجاجات الشامبانيا . وفي مساء الاربعاء جمعت وسائد غرفتي ونضدتها ثلاثة ثلاثة وحاولت ان ارسم من الذاكرة لوحة الاخت ايرما : « الدفن »

كنت احب ان اقول إن مساء الخميس كان غريباً اذا لم اقل كئيباً الى اقصى حد . ولكنني في الحقيقة لا اجد صفة مناسبة لهذا المساء . فقد تركت اصدقاء الفن القديم بعد العشاء ، وخرجت لا الوي على شيء .ولا ادري الى اين اتجهت.. للسينما أم للنزهة فقط ؟ لم اعد اذكر ، فمذكراتي عام ١٩٣٩ تخونني بدورها للمرة الاولى لان الصفحة التي احتاجها بيضاء تماماً .

ولكنني مع ذلك ؛ ما ازال اذكر لماذا بقيت الصفحة بيضاء ؟ ما ازال اذكر ان الظلام كان مخيماً عندما عدت من المكان الذي قضيت فيه السهرة ، اياً كان الموقع الذي سهرت فيه ، وفي طريق العودة توقفت عند رصيف المدرسة والقيت نظرة خاطفة على واجهة المخزن المضاءة بخزن لوازم تقويم الجسم واذ ذاك حدث شيء رهيب جداً . لقد حاصرتني فكرة بانه قد لا يكون من المهم كثيراً ان اتعلم يوماً ما كيف اعيش حياتي بلا مبالاة ، او بحس سليم ، او بنوع من الرفاه ، فلن اكون مطلقاً في احسن الأحوال الا عابراً في حديقة من المباول والمراحيض المطلية بالميناء حيث ينتصب تمثال انسان الخشب واقفاً دونما نظرة ، يشد في وسطه رباطاً من اربطة الفتق بقصد الدعاية . لم استطع حتما احتمال هذه الفكرة اكثر من عدة ثوان . واذكر اني هرولت الى غرفتي على اربع ونزعت ثيابي ، وتسللت الى السرير ، دون ان افتح مذكراتي ، ودون ان اخط فيها حرفاً واحداً بطبيعة الحال .

مكثت ساعات .. وانا مستيقظ ارتعش ، وانصت الى الأنين في الحجرة المجاورة ، واقسر نفسي على التفكير في تلميذتي المثالية . كنت احاول ان اتخيل اليوم الذي ساذهب فيه لزيارتها في الدير . كنت اراها قادمة للقائي – امام سياج عال من الحديد – فتاة جميلة نقية ، في الثامنة عشرة لم تنذر نفسها نهائياً بعد . كانت ما تزال حرة في العودة الى العالم مع آل « بيير آبيلارد » الذي اختارته . وكنت اراني الى جانبها نمشي بخطى بطيئة ، هادئة ، في حديقة الدير نحو مكان

منعزل مخضوضر . وفجأة الف ذراعـــي ببراءة حول خصرها . كان الصورة اشد عذوبة من ان تبقى ثابتة . لذلـــك تركتها اخيراً تختفي . ورحت في سبات عميق .

أمضيت صباح يوم الجمعة كله ، والجانب الاكبر من فـــترة ما بعد الظهيرة في العمل كمحكوم بالأشغال الشاقة لأحول الى اشجار واضحة ، وعلى ورق شفاف ، غابة الرموز الجنسية التي رسمها صبي بانفور في الماين بجد على ورق صقيل ثمين .

وفي حوالي الساعة الرابعة والنصف شعرت بخدر شديد يلفني روحاً وجسداً . وكنت في طريقي الى النهوض عندما وافاني السيد يوشوتو لحظة ومـــد لي شيئاً ما بحركة جامدة كحركة صبي في مطعم يمد لك قائمـــة الطعام . كانت رسالة من الأم الرئيسة لدير الأخت ايرما تنبىء فيها السيد يوشوتو بأن الأب زيرمان ، نتيجة لظروف خارجة عن ارادته ، يرى نفسه مضطراً للعدول عن الاذن الذي اعطاه للاخت ايرما بمتابعة الدروس في مدرسة اصدقاء الفن القديم .

واضافت الأم الرئيسة بأنها تأسف بحرارة للازعاج والمضايقات التي قد يسببها هذا القرار للمدرسة . وهي ترجو مخلصة ان يعاد الى الأبرشية القسط الاول الذي دفع للدراسة ويبلغ اربعة عشر دولاراً .

إني واثق منذ أمد بعيد من ان الجرذ الذي يخرج من الفخ وهو يعرج قليلاً يعود الى جحره وفي رأسه مخطط مكيافيلي جديد لقتل الهر . فبعد أن قرأت ، واعدت قراءة رسالة الام الرئيسة ، وتأملتها ، تحولت عنهـــا فجأة ، ورحت أخط رسائل للتلاميذ الاربعـــة الذين بقوا لي أنصح لهم فيهـــا ان يستبعدوا من اذهانهم فكرة ان يصبحوا رسامين . وصرحت لكل منهم على حدة بأنه لا يملك ذرة من موهبة جديرة بالتنمية . وانهم جميعاً يضيعون وقتهم عبثاً ، كما يضيعون وقت المدرسة .

كتبت الرسائل الاربـــع بالفرنسية . وعندمـــا فرغت من ذلك خرجت على

الفور لاضعها في البريد . لم يدم سروري بذلك طويـــلا ، ولكنه كان في تلك اللحظات التي دامها عنيفاً طاغياً .

وعندما حان وقت الانضمام الى موكب العشاء في المطبخ . اعتذرت ، وقلت بأني اشعر بشيء من التوعك . (كنت في عام ١٩٣٩ اقول الكذب بقناعة تفوق قناعتي عندما اقول الحقيقة . ومع هذا فقـــد كنت مقتنعاً بان السيد يوشوتو لم يصدقني حين ذكرت باني متوعك المزاج)

صعدت الى غرفتي ، وجلست على وسادة ، ومكثت هناك زهاء ساعـــة وعيناي مشبتتان على ثقب في الزجاج يعبر النور من خلاله ، دون أن أحل ربطة عنقي . ثم نهضت فجأة ، وامسكت بصفحة من الورق ، وتمددت على الارض ، ورحت اخط رسالتي الثانية الى الاخت ايرما .

لم توضع تلك الرسالة في البريد قط . ولذلك فالنسخة التالية هي صورة طبق الاصل عنها :

مونتريال — كندا
٢٨ حزيران ١٩٣٩

عزيزتي الاخت ايرما

هل اتفق أن ذكرت في رسالتي السابقة شيئاً في غير محله ، او شيئاً يسيء الى مقامك في عين الاب زيرمان او عبارة ما سببت لك ازعاجاً بصورة او بأخرى . اذا كان قد حدث شيء من ذلك فاني التمس منك أن تتركي لي فرصة لاسحب ما قد اكون قلته دون ارادة مني ، اثناء رغبتي الحارة في أن تنشأ بيننا صداقة من ذلك الضرب الذي يكون بين التلميذ واستاذه لا اكثر . أتراني في طلبي هـــذا أتجاوز الحدود ؟ لا أظن ذلك !

ان الحقيقة المجردة هي ما يلي :
اذا لم تتعمقي دراسة اصول الرسم فقد تبقين طوال حياتك فنانة لا بأس بها ،

ولكنك لن تصبحي فنانة كبيرة . وهذا مخيف في رأيي .

أتدركين خطورة الموقف ؟

ربما كان الأب زيرمان قد أكرهك على الغاء تسجيلك في المدرسة ، لان ذلك لا يتلاءم مع حياتك كراهبة ، اذا كان ذلك هو الواقع فاني لا استطيع الا أن اقول بأني أرى هذه الفكرة خاطئة من عدة نواح . ليس في الفن ما يتنافى مع الرهبنة . انا نفسي أعيش حياة نصف راهب .

ان أسوأ ما يمكن أن يعود به عليك الفن هو أن يجعل منك ابداً شقية بعض الشيء . ولكن ذلك لا يبلغ حد الفاجعة في رأيي . لقد عرفت اسعد يوم في حياتي منذ عدة سنوات . كان عمري سبعة عشر عاماً ، وكنت ذاهباً للغداء مع والدتي التي كانت تخرج المرة الاولى بعد مرض طويل . وقد شعرت بسعادة لا توصف عندما اصطدمت بغتة في مدخل شارع فكتور هوجو (احد شوارع باريس) بشخص ليس له انف ، اني اسألك أن تفكري في ذلك . بل ألح في الرجاء . ان وراءه معنى ضخماً . وربما كان هناك احتمال بأن الأب زيرمان قد جعلك تلغين تسجيلك لان ديركم لا يملك المال الكافي لنفقات الدروس . إني ارجو مخلصاً ان يكون ذلك هو الواقع ، لا لأنه يزيح عبئاً عن ضميري فحسب ، ولكن لان هناك حلاً عملياً لهذا الاشكال . اذا كان هو الواقع فما عليك الا أن تكتبي لي كلمة ، وانا على استعداد لتقديم كل خدماتي مجاناً ما دمت راغبة في هذه الخدمات . هل نستطيع مناقشة هذا الموضوع بصورة ادق ؟ هل استطيع ان اسأل مرة أخرى ما هي الايام التي يسمح لك فيها بقبول الزيارات في الدير ؟ هل استطيع ان اسمح لنفسي بالتفكير بزيارتك في الدير يوم السبت القادم ـ السادس من تموز ـ فيما بين الساعة الثالثة والخامسة من بعد الظهر حسب مواعيد القطار بين مونتريال وتورينو ؟ اني انتظر جوابك بقلق شديد مع احترامي واعجابي

المخلص

جان دو دوميه سميث

استاذ في مدرسة اصدقاء الفن القديم .

حاشية : لقد سألتك في الرسالة السابقة بصورة عرضية عما اذا كانت المرأة الشابة ذات الثوب الازرق ، في مقدمة لوحتك الدينية ، هي ماري – مادلين الخاطئة بعينها ! اذا لم تكوني قد اجبت بعد على رسالتي فارجوك ألا تفعلي .

ربما كنت قد اخطأت . وليست لدي الرغبة وانا في هذه الحالة أن اجر على نفسي إخفاقاً جديداً .

اريد ان ابقى في الظلمة .

ورغم مرور السنين ، فاني ما ازال حتى الآن اكبح بصعوبة جماح ارتعاشه كلما تذكرت بأني حملت معي ذات يوم الى مدرسة أصدقاء الفن القديم بزة « سموكينغ » . ولكني في الواقع حملت واحدة بالتأكيد . وقد ارتديتها بعد ان انهيت رسالتي للاخت إيرما لقد بدا لي أن مثل هذا الموضوع جدير بسكرة عنيفة . وقررت ان اسكر انا الذي لم تحمل يده الكأس من قبل ، (خوفاً من أن يجعل الكحول هذه اليد، مبدعة، اللوحات التي حصلت على الجوائز الثلاث الاولى تضطرب) . وشعرت بأني مضطر الى ارتداء البزة الرسمية في هذه المناسبة الخطيره . وبينما كان آل يوشوتو ما يزالان في المطبخ انسللت الى الطابق الاول ؛ وهتفت لفندق وندسور الذي حدثتني عنه السيدة س ... صديقة بوبي قبل مغادرتي نيويورك ، وحجزت منضدة لشخص واحد في الساعة الثامنة .

وفي حوالي السابعة والنصف كنت قد ارتديت ثيابي وحلقت ذقني ، وعندئذ مددت رأسي خارج غرفتي لأتأكد من أنه ليس هناك أحد من آل يوشوتو يحوم في الممر . فلم اكن ارغب ، باي ثمن ، في أن يروني مرتدياً « السموكينغ » . لم يقع نظري على أي منهما فهرعت الى الشارع ، ورحت أفتش عن سيارة أجرة كانت رسالتي للاخت ايرما في جيبي . وكنت انوي اعادة قراءتها أثناء العشاء . وكنت افضل أن يكون ذلك على ضوء الشموع .

تجاوزت مجموعة المنازل ؛ الواحد تلو الآخر،دون أن اعثر على سيارة واحدة

للاجرة ، فكيف بسيارة فارغة ؟ كان اجتياز المسافة شاقاً علي . لم يكن حي « فردان » في مونتريال من تلك الاحيـــاء التي يلبس الناس فيها بزة رسمية . وكنت احس كما لو ان جميع المارة يرمونني بنظرات الاستنكار . وحين وصلت اخيراً امام المطعم الذي طلبت منه اللحم المقدد الحار يوم الاثنين الفائت قررت ان الغي المنضدة المحجوزة في فندق وندسور .

دخلت المطعم واتخذت مكاني في أقصاه ، في جناح ذي مقاعد طويـــلة ، وابقيت يدي اليسرى على ربطـــة عنقي وانا اطلب حساء مع بعض الشطائر ، والقهوة السوداء . كنت ارجو أن يخالني بقية الزبائن نادل مشرب في طريقه الى عمله .

واخرجت رسالتي الى الاخت ايرما ، الرسالة التي لم أضعهـــا في صندوق البريد ، وانا اتجرع فنجان القهوة الثاني ، واعدت قراءتها فبدت لي مادتهـــا هزيلة . وقررت ان اعود على عجل الى منزل اصدقاء الفن القديم ، لاحشوها بمادة أغزر قليلاً . ثم اعددت في الوقت ذاتـــه خطة زيارتي المقبـــلة للاخت ايرما . ورحت اتساءل ما اذا كان من الاصوب أن احجز مكاناً لي في القطار في المساء نفسه : ولكن هاتين الفكرتين لم تستطيعا كلتاهما أن تعيـــدا الى نفسي الهدوء الذي انشده . فغادرت المطعم واتجهت بخطى كبيرة نحو المدرسة .

وما كادت تنقضي خمس عشرة دقيقة بعد ذلك حتى حدث لي حادث غريب جداً . كانت مغامرة تجلت فيها لي وانا بكامل شعوري — كل الظواهر المزعجة لحادث مصطنع ، ولكنه مع ذلك حقيقة واقعة . اني بهذا المح الى تجربة خارقة ، تجربة ما تزال تدهشني حتى الان كرؤيا ميتافيزيكية . ولكني أود مع هذا ألا يبدو علي أني أنظر اليها كأعجوبة اذا امكن ، او حتى في حدود الأعجوبة . ولأوضح الموضوع بشكل آخر : اني أضع هذا التحذير لكي لا يظن احـد ، أو لا أوحي الى احد بأن الفرق بين رؤيا القديس فرانسوا ، ورؤيا الرجل العامي الذي يقبل المجذومين يوم الاحد ليس سوى فرق بالدرجة فقط .

في غسق الساعة التاسعة ، بينما كنت اقترب من بناء المدرسة ، على الرصيف المقابل ، رأيت نوراً في مخزن اللوازم الطبية لتقويم الجسم . وتملكتني الدهشة اذ تبينت أيضاً أن هناك شخصاً حياً في الواجهة : فتــاة سليمة الجسم ، تناهز الثلاثين من العمر ، ترتدي ثوباً مشجراً بالأخضر والأصفر والازرق . كانت تقوم بتبديل حزام الفتق الموضوع على التمثال الخشبي . وفي اللحظة التي كنت اقترب فيها من الواجهة كانت قد انتهت من سحب الحزام القديم ، ووضعته تحت ذراعها اليسرى . (كان جانب وجهها الايسر الى جهتي .) وكانت قد شرعت تضع الحزام الجديد على التمثال . مكثت واقفاً اراقبها بدهشه ، حتى شعرتْ فجأة بأن هناك من يلاحظها ، وتأكدت من ذلك عندما وقع بصرهــا علي ، فسارعت بالابتسام لأظهر لها أن امامها في العتمة ، في الجانب الآخر من الزجاج ، شخصاً يرتــدي « السموكينغ » ولا يحمل لها أي شيء من العداء . ولكن ذلك لم يصلح الموقف.

كان انفعال الفتاة شديداً ، فاحمرّت ، وتركت الحزام القــديم يسقط من يدها ، ثم راحت تمشي القهقرى على كومة من الاحواض التي تستعمل للاغتسال ولم تلبث ان فقدت توازنها ، فمددت يدي بصوره لا شعورية لأوقفهــا ، واصطدمت اطراف اصابعي بالزجاج ، فسقطت على مؤخرتها سقطة ثقيلة كمن ينزلق على الجليد . ثم استندت من جديد على قدميهــا دون أن تنظر الي ، ثم رمت بشعرها الى الوراء بحركة من يدها ، ووجهها ما يزال مخضباً بحمرة الخجل ، وأتمت ربط الحزام على تمثال جسم الانسان .

في تلك اللحظة بالذات حدثت لي التجربة ؛ لقد اشرقت الشمس فجأة (واني لأتكلم على ما اعتقد بكل صفاء الذهن المطلوب) وسقطت اشعتها على ارنبة انفي بسرعة ٩٣ مليون كيلو متر في الثانية ، فغشيت عيناي ، وامتلأت بالذعر ، ووضعت يدي على الزجاج لاحفظ توازني . لم يطل هذا المشهد اكثر من ثانية . وعندما عدت الى رشدي كانت الفتاة قد اختفت من الواجهه تاركة وراءها حقلاً يلتمع من ازهار الميناء البيضاء .

ابتعدت عن المكان ، ودرت مرتين حول مجموعة المباني ، حتى توقفت ركبتاي عن الاصطكاك . ودون أن تخالفني الجرأة لإلقاء نظرة أخرى على واجهة المخزن ، صعدت الى غرفتي ، وتمددت على سريري . وبعد دقائق ، او بعد ساعات – لا أدري – كنت احمّل دفتر مذكراتي هذه الملاحظة باللغة الفرنسية :

« إني أعطي للاخت ايرما ملء الحرية بأن تتبع قدرها المحتوم . كل انسان راهب في صميمه .. »

وقبل ان انام تلك الليلة ، كتبت رسالة لكل من تلامذتي الأربعة أعيدهم فيها الى الدروس التي كنت قد طردتهم منها قائلا بأن هناك خطيئة ما قد وقعت في الشعبة الادارية . كانت الرسائل تبدو كأنها تكتب من تلقاء ذاتها . وقد يكون لذلك علاقة بأني ، قبل ان اجلس للكتابة ، ذهبت واحضرت كرسياً من الطابق الاسفل .

ربما وجدتم بأني قد افسدت الموضوع بذكر ذلك . ولكن مدرسة اصدقاء الفن القديم اغلقت ابوابها بعد أقل من اسبوع ، لان رخصتها لم تكن قانونيـة . (وفي الحقيقة لم تكن لديها رخصة على الاطلاق) فجمعت حقائبي ، والتحقت بزوج أمي في رود – آيلاند حيث أمضيت ستة او ثمانية أسابيـع ، بانتظار بدء الدروس في مدرسة الفنون ، في دراســة اكثر حيوانات الصيف اثارة للاهتمام وهو ؟ الفتاة الامريكية بالبنطال القصير .

وقد اكون مصيباً او مخطئاً . ولكني لم اكتب بعد ذلك للاخت ايرمــا البتة .

وبالمقابل ، فاني ما زلت أتلقى من حين لآخر اخباراً من بامبي كرامر .

وفي المرة الاخيرة كانت قد وضعت في رأسها فكـرة ان ترسم هي بنفسها بطاقات عيد الميلاد . سيكون ذلك شيئاً يسر النظر .. اذا لم تكن قد نسيت الرسم الى الابد .

تِيدي

٩

قال السيد ماك آردل :

ـ سأجعل من يومك هذا يوماً لا تنساه ، اذا لم تنزل أيها الخنزير عن هـذه الحقيبة حالاً . واني جاد فيما اقول .

كان يتكلم وهو متمدد في احد السريرين التوأمين ؛ السرير الذي كان اكثر بعداً عن كوة الباخرة ، ثم يشفع كلامه بتنهدة أقرب الى النحيب . وما لبث أن دفع اللحاف عنه بقدمه غاضباً ، واخرج قدميه حتى الكاحل ، كما لو أن جسمه الهزيل الذي لوحته الشمس قد أصبح بغتة لا يطيق الغطاء مهما كان رقيقاً .

كان مستلقياً على ظهره ، ليس عليـــه من رداء الا بنطال منامة ، يمسك بيده اليمنى لفافة مشتعلة ، ويسند رأسه على حافـــة خشب السرير كمن يستطيب تعذيب نفسه . كانت وسادته ومنفضة سجائره تقبعان على الأرض بين سريره وسرير السيدة ماك آردل . ومن دون أن يتزحزح مد ذراعه اليمنى العارية ، الملتهبة حتى الاحمرار ، ونفض الرماد في اتجاه منضدة النوم . ثم قال :

ـ أهذا هو تشرين الأول ، يا إله السماء ؟ اذا كان هذا هو جو تشرين الاول، فمرحباً بحرّ آب .

وادار رأسه من جديد نحو تيدي ، وهو يحاول اختلاق شجار ، واستطرد قائلاً :

ـ لماذا تظن اذاً أنني اتكلم بحق الشيطان ؟ ألأسمع صوتي ؟ انزل من هناك حالاً !

كان تيدي قد صعد على حقيبة من جلد البقر من طراز حديث ليسهل عليه النظر من كوة الباخرة في حجرة ذويــه . كان يلبس خفين ابيضين ، شديدي الاتساخ ، بلا جوارب ، مما يلبس لاعبو كرة السلة ، ويرتدي فوقهـا بنطالا قصيراً ، أطول مما يجب بالنسبة لجسمه ، شديد الاتساع من الوراء ، الى قميص من القطن قد غسل بشكل سريع ، يزين كتفه اليمنى ثقب كبير كقطعة الـ ١٠٠ فلس . ويفاجئك مع هذا الخليط حزام رائع من جلد التمساح الاسود . كان شعره الذي يغطي عنقه بحاجة شديدة الى ان يقص ، كما يحتاج الى ذلك أحياناً بصورة فظيعة ، الصبية ذوو الرؤوس الكبيرة والاعناق النحيلة .

– أتسمعني يا تيدي ؟

لم يكن تيدي يتدلى خارج الكوة بصورة خطرة كما يحب الاطفال الصغار أن يفعلو بصورة عامة . كانت قدماه في الواقع ترتكزان على حقيبة السفر ، ولكن وقفته لم تكن مع ذلك وقفة ثابتة مطمئنة . كان رأسه خارج الحجرة اكثر مما هو داخلها . ولكنه كان يستطيع مع ذلك أن يسمع صوت والده بصورة جيدة – صوت أبيه الذي يتوجه اليه وحده هذه المرة فقط – ولم يكن السيد ماك آردل يذيـع أقل من ثلاثة برامج يومية من محطة الاذاعـة عندما كان في نيويورك . كان يملك ما يسمى صوت مذيع من الفئة الثالثة : صوت عميق ، حاد ، تتجلى فيـــه النارسيسية ، كأنما أعد للقيام بوظيفة امرأة ، أية إمرأة يمكن ان توجـــد في نفس الغرفة معه ، او حتى أي صبي صغير . فاذا ما وجد خارج العمل أصبح ولوعاً بأخذ لهجة حادة تارة ، ومسرحية متراخية تارة أخرى . وقد كانت اللهجة الحادة في تلك الأثناء هي التي تظهر على المسرح .

– تيدي ! بحق السماء ، هل تسمعني ؟

ودون أن يغير وضع رجليه الحذر ، أدار تيدي جذعـــه ، والقى الى والده نظرة ممتلئة باستفسار ساذج . كانت عيناه الصغيرتان جداً ، ذات اللون البني الفاتح تتجهان قليلاً الى مركز واحد . وكان الحَوَل واضحاً في العين اليسرى اكثر منه

في اليمنى . لم يكن حوله من النوع الذي يشوه منظر الوجه ، بل انه لم يكن ملحوظاً بصورة ظاهرة . ولكنه من النوع الذي يلاحظ بعد أن يكون المرء قد فكر طويلاً ، وبصورة جدية ، في مثل هاتين العينين ، وتمنى لو انهما كانتا اكثر عمقاً ، او اغبق لوناً ، او اشد اتساعاً . كان وجهه كما يبدو يلفت النظر لجماله الذي لم يتفتح جيداً بعد ، ولكنه جمال حقيقي مع ذلك .

قال السيد ماك آردل :

– إني آمرك بالنزول حالا من فوق هذه الحقيبة . كم مرة يجب أن اردد ذلك على مسمعك !

وتدخلت السيدة ماك آردل قائلة :

– إبق حيث أنت ، يا حبيبي .

كان واضحاً بصورة لا تقبل الجدل أن زوائدها الانفية تزعجها الى حد ما منذ الصباح الباكر ، وكانت عيناها نصف مغلقتين .

– لا تتحرك قيد أنملة .

كانت مستلقية على جانبها الايمن وقد ادارت ظهرها لزوجها ، واراحت وجهها على الوسادة لترى تيدي أمام كوة الباخرة . كان الغطاء مسحوباً بصورة تجعله يشد على جسمها الذي ربما كان عارياً ، ويغطي ذراعيها وجسدها حتى ذقنها . قالت له وهي تغمض عينيها :

– هيا ، اقفز كما تشاء . اسحق حقيبة ابيك !

قال السيد ماك آردل بصوته الذي اتخذ طابع الفتور وهو ينظر الى زوجته :

– آه ! هذا عمل ينطوي على الخبث . إني ادفع اثنتين وعشرين ليرة ثمناً للحقيبة ، ثم اطلب من الصغير بلطف أن ينزل عنها ، وتقترحين انت عليه أن يقفز فوقها ! ماذا يعني ذلك بالضبط ؟ أتجدين في هذا تسليةً لك ؟

قالت السيدة ماك آردل دون أن تفتح عينيها :

ـ اذا لم تكن هذه الحقيبة من الصلابة بحيث تتحمل صبياً في العاشره من عمره ، ينقص وزنه ستة كيلو غرامات عن وزن أقرانه فاني لا أريدها هنا في حجرتي .

قال السيد ماك آردل :

ـ أتعرفين ماذا اشتهي أن أفعل ؟ أن احطم لك هذا « البوز » القذر بركلة من قدمي .

ـ وماذا تنتظر ؟

واشتد السيد ماك آردل فجأة على مرفقه واطفأ سيجارته على سطح منضدة الليل الزجاجي ، وراح يتكلم بلهجة قاتمة :

ـ في يوم ما ..

وقاطعته السيدة ماك آردل بأقل مقدار ممكن من الجهد :

ـ ستصاب في يوم ما ، باذن الله ، بنوبة ماحقة . ودون أن تخرج ذراعيها من الغطاء زادت في لفه حول جسمها :

ـ ستكون هناك جنازة لطيفة جداً . وسوف يتساءل الجميع عمن تكون تلك المرأة الشابة الجذابة التي ترتدي ثوباً أحمر ، في الصيف الاول ، تلك المرأة التي تغازل عازف الأرغن ، وتعمل ...

قال السيد ماك آردل وهو ما برح ساكناً مستلقياً على ظهره :

ـ انك غريبة جدا ، غريبة لدرجة أن كل ما يصدر عنك من حماقات قد اصبح شيئاً مألوفاً .

كان تيدي ، أثناء تبادل وجهات النظر هذه قد استدار من جديد ، وعاد

ينظر الى البحر من كوة الباخرة . ثم قال ببطء :

– اذا كان هناك من يهمه الأمر – وانا اشك في ذلك – فاننا قد قابلنا الباخرة « الملكة ماري » في الساعة الثالثة ، والدقيقة الثانية والثلاثين تماماً، وهي تشق طريقها في الاتجاه المضاد .

كان لصوته لهجة غريبة ، ذات جمال خشن ، كما يلاحظ عند بعض الصبية الصغار . كانت كل جملة يقولها تبدو أشبه بجزيرة صغيرة ضائعة ، يحيط بها بحر مصغر من الويسكي .

– لقد سجل هذه الملاحظة النادل الذي يقف على السطح ، ذلك النادل الذي تكرهه بوبر .

قال أبوه :

– سألقي بك ، أيها الخنزير ، في ... أنت والملكة ماري اذا لم تنزل حالاً من فوق الحقيبة .

وكان قد ادار رأسه نحو تيدي :

– انزل من هناك . أتسمعني ؟ اذهب فقص شعرك او قم بعمل ما ...

وراح ينظر من جديد الى نقرة زوجته .

– يا إلهي ! اذا كان هناك صبي ذو نضج مبكر فهو هذا الصبي نفسه .

قال تيدي :

– ليس لدي نقود .

وثبت يديه على حافة الكوة ، ثم ركز ذقنه على أصابعه :

– ماما ، هل تعرفين الشخص الذي يجلس الى جوارنا في صالة الطعام ؟ ليس

الشخص الضعيف بل الآخر الذي يجلس الى المنضدة ذاتها حيث يضع النادل صينية الطعام .

أجابت السيدة ماك آردل :

– مم .. مممم ! .. تيدي ، يا حبيبي ، اترك ماما تنام خمس دقائق أخرى. كن صبياً لطيفاً .

قال تيدي دون أن يرفع ذقنه عن أصابعه او يحول بصره عن مياه المحيط :

– انتظري لحظة فقط . سأخبرك بشيء هام جداً . لقد كان في صالة الرياضة منذ لحظة ، بينما كان «سفين» يقوم بوزني. واقترب مني وتحدث الي ، لقد سمع الشريط الذي سجلته . لا اقصد شريط شهر نيسان ، بل شريط شهر أيار .

كان في حفلة كوكتيل في بوسطن ، قبيل سفره الى اوروبا . وكان احد الذين حضروا حفلة الكوكتيل يعرف شخصاً من لجنة « ليديكر » الفاحصة ، لم يذكر لي اسمه . وقد استعاروا الشريط الأخير الذي سجلته ، وسمعوه في الحفلة . كان يبدو شديد الاهتمام بالموضوع . انه صديق الاستاذ بابكوك . ويبدو أنه هو أيضاً مدرس . لقد ذكر لي انه امضى الصيف كله في معهد الثالوث المقدس في دوبلن .

قالت السيدة ماك آردل :

– اوه ! لقد اذاعوا التسجيل اذاً في حفلة كوكتيل

وحدقت بنظرة ناعسة في ربلة ساقي تيدي .

قال تيدي :

– اعتقد ذلك . لقد تحدث عني طويلاً الى سفين ، بينما كنت واقفاً هناك . وقد كان ذلك مربكاً الى حد ما .

– ولماذا هو مربك ؟

وتردد تيدي قليلاً :

ـ لقد قلت مربكاً « بعض الشيء » .. لقد استعملت صيغه للتقليل .

قال السيد ماك آردل :

ـ سأقذفك بصيغة للتقليل تليق بك ، أيها الخنزير ، اذا لم تنزل من فوق هذه الحقيبة .

كان قد اشعل لفافة جديدة .

ـ سأعد حتى الثلاثة . واحد .. بحق الشيطان ! اثنان ...

وفجأة سألت السيدة ماك آردل ، وهي تحدق في ربلات ساقي تيدي :

ـ كم هي الساعة الآن ؟ ألم يحن موعد درس السباحة الذي تتلقاه في العاشرة والنصف مع بوپر ؟

قال تيدي :

ـ ما يزال الوقت مبكراً .. فلوم ..

ومرر رأسه فجأة من خلال الكوة واستبقاه كذلك عدة لحظات ، ثم ادخله فترة كانت كافية ليقذف بالجملة التالية :

ـ هناك من رمى سلة مملوءة بقشور البرتقال من النافذة

قال السيد ماك آردل بصوت ساخر وهو ينفض رماد لفافته :

ـ من النافذة .. من النافذة .. قل من الكوة ؛ هيه ، أيهـــا العبيط ! من الكوة ..

والقى نظرة الى زوجته :

ـ اهتفي لبوسطن ، واطلبي لجنة « ليديكر » الفاحصة بالهاتف .

قالت السيدة ماك آردل :

ـ مـــا هذه الدعابة التي تنتابك منذ الصباح ؟ لمـــاذا لا تجرب ذلك بنفسك ؟

وادخل تيدي رأسه في الحجرة ، وقال دون أن يلتفت :

ـ اوه ! انها تطفو . ما أجمل ذلك ! لشد ما يثيرني هذا المنظر !

ـ تيدي ! أقول ذلك للمرة الاخيرة . إني سأعد حتى الثلاثة ، و ...

قال تيدي :

ـ لا اعني أن ما يثير الاهتمام هو أن تطفو القشور على سطح الماء . ولكن ما يثير الاهتمام هو أن أعرف أنها موجودة هناك . لو لم ارها لما عرفت أنهـــا هنا واذا لم اكن اعرف انها هناك فلن استطيع حتى ان أقول بأنها موجودة . انها مثال حسن جداً . انهـا مثال نموذجي لا ....

وقاطعته السيدة ماك آردل دون أن تتحرك من تحت غطائها :

ـ تيدي ، اذهب وفتش لي عن بوپر ، أين هي الآن ؟ لا أريد ان تجرجر نفسها طوال النهار تحت الشمس ، في هذه الحرارة اللاهبة . قال تيدي :

ـ لقد ارقدت ما يناسب الطقس . جعلتها ترتدي صداراً... لقد أخذ بعضها يغطس في الماء الان . وبعد دقائق معدودة سيكون فكري هو المكان الوحيد الذي تبقى طافية فيه . ان ذلك شديد الاثارة . لانه اذا ما نظر المرء الى الامور من زاوية معينة فانـه سيجد ان القشور قد بدأت تطفو اول مـا بدأت هناك في الفكر . لو لم اكن هنا ، او اذا ما جاء احدهم وبتر لي رأسي في اللحظة التي كنت ...

قالت السيده ماك آردل :

ـ أين هي الان ؟ انظر الى ماما لحظة يا تيدي

قال :

ـ ماذا ؟

ـ أين بوير ؟ لا اريد أن تتجول بين المقاعـــد وتزعج الناس ، اذا كان ذلك الرجل الخيف ...

ـ انها عاقلة . لقد اعطيتها آ لة التصوير .

ورفع السيد ماك آردل جسمه فجأة على ذراعه ، وصرخ :

ـ هل أعطيتها آ لة التصوير ؟ يا لها من فكرة رائعة ! يا لمصيرك الأسود يا آ لتي العزيزة ماركة ـ ليكا ! لا استطيع احتمال فكرة أن تجرجرهـــا بنت في السادسة من مكان الى ...

قال تيدي :

ـ لقد علمتها كيف تحملها ؟ لن تتركها تسقط . وقد نزعت الفلم منها بالطبع .

ـ اريد هذه الالة يا تيدي ! أتسمعني ؟ ستنزل عن هذه الحقيبة حالاً . اريد أن تعاد هذه الآ لة في الدقائق الخمس التالية ؟ والا فإن العالم سينقص عبقرية صغيرة . هل هذا واضح ؟

وادار تيدي عقبيه على الحقيبة ، ونزل ، ثم انحنى ، وراح يربط شريط خفه الأيسر ، بينما كان والده يراقبه بعينين فاحصتين .

قالت السيدة ماك آردل :

ـ قل لبوير .. إني اريد رؤيتها حالاً . تعال قبل أمك يا تيدي !

وما ان ربط تيدي شريط خفه حتى أقبل يضع قبلة سريعـــة على خد أمه . فأخرجت ذراعها اليسرى خارج الغطـــاء ، وحنته لتطوق به خصر الصبي . ولكنها ما ان أنهت ذلك حتى كان تيدي قد ابتعد الى الجانب الآخر واجتـــاز

المسافة بين السريرين . وما لبث أن انحنى ثم انتصب يحمل وسادة أبيــه تحت ذراعه اليسرى . ومنفضة سجاير منضدة الليل باليــد اليمنى . ثم مرر منفضة السجاير الى اليد اليسرى ، واقترب من منضدة الليل ، وجعل يدفع بيده اليمنى اعقاب سجائر والده ورمادها نحو المنفضة . وقبل أن يضع المنفضة في مكانها مسح بقفا ذراعه طبقة الرماد الخفيفة التي بقيت على زجاج المنضدة ، ثم مسح بعد ذلك ذراعه ببنطاله ، ثم وضع المنفضة على اللوح الزجاجي بعناية فائقة ، كما لو انــه كان يرى بأن المنفضة يجب أن توضع تماماً في وسط سطح المنضدة ، والا فالاجدر ألا توضع هناك على الاطلاق . وفي تلك الأثناء تزحزح والده الذي كان ما يزال يلاحظه وادار عينيه فجأة عنه .

وسأله تيدي :

– ألا تريد وسادتك ؟

– ان ما أريد يا بني هو آلة التصوير .

قال تيدي :

– لست في وضع مريح . يستحيل عليك أن تبقى هكذا . ساتركهــا لك هنا . ها هي ذي !

والقى بالوسادة على حافة السرير بالقرب من خدّي والده ، ثم اتجه نحو باب الحجرة .

ونادته أمه دون أن تلتفت :

– تيدي ! قل لبوبر بأني ارغب في رؤيتها قبل درس السباحة .

وسأل السيد ماك آردل زوجته :

– لماذا لا تتركين هذه الصغيرة وشأنها ؟ يخيل الي انك ستحقدين عليها تلك الدقائق القليلة التي تستمتع فيها بحريتها . أتدرين كيف تعاملينها ؟ سأقول لك ذلك

بدقة . انك تعاملينها كمجرمة بكل ما في الكلمة من معنى .

– مجرمة ؟ أوه ! هذا رائع ! هل تدري يا حبيبي انك تصبح انجليزياً اكثر مما يجب .

ومكث تيدي لحظة على عتبة الحجرة ، وهو يدير مقبض الباب بكثير من التفكير . ثم استطرد قائلاً :

– عندما اجتاز هذا الباب فلن اكون موجوداً الا في ذهن الأشخاص الذين أعرفهم . ربما كنت قشرة برتقال .

وسألت السيدة ماك آردل ، وهي مـــا تزال مستلقية على جنبها الأيمن في الركن الاخر من الحجرة :

– ماذا تقول يا حبيبي ؟

– هيا أيها العبيط . اسرع . أحضر هذه « الليكا » الي .

– تعال ، قبل امك يا حبيبي قبلة كبيرة .

قال تيدي بلهجة شاردة :

– ليس الان . إني متعب .

وصفق الباب وراءه

* * *

كانت نشرة الباخرة اليومية موضوعة أمام الباب ، ولم تكن سوى صفحة من الورق اللماع مطبوعة على وجه واحد فالتقطها تيدي وراح يقرأ فيها وهو يهبط ببطء على طول الممر الذي يقود الى مؤخرة الباخرة . وفي الطرف الاخر للممر كانت امرأة شقراء سمينة ترتدي زياً أبيض منشى تتقدم نحوه . كانت تحمـــل آنية من الأوراد الحمر ذات السوق الطويلة . وعندمـــا لاقت تيدي مدت يدها

اليسرى وحكت له أعلى رأسه وهي تقول : « هناك شخص بحاجة الى أن يقص شعره . » .

رفع تيدي عن صحيفته عينين ساهمتين ، ولكن المرأة كانت قد ابتعدت ، فواصل قراءته ولم يلتفت .وفي نهاية الممر أمام اللوحة الجدارية الضخمة التي كانت تمثل القديس جورج يسحق التنين ، والتي كانت تمتد على مدخـــل السلم ، طوى صحيفته الى اربع ، ودسها في جيبه الخلفي الأيسر . ثم صعد الدرجات القصيرة العريضة المغطاة بالمخمل والتي تقود الى السطح الرئيسي في الطابق الأعلى ، قفزها مثنى مثنى ولكن ببطء . وهو يتكىء على الدرابزين بكل جسمه . كما لو أن صعود السلم كان بالنسبة اليه ، كما هو بالنسبة لكثير من الأطفال ، موضوعاً للهو والتسلية . ثم توجه نحو مكتب مراقب السطح . كانت فتاة جميلة برداء البحر الرسمي تشغله في تلك الفترة . وكانت في تلك الاثناء تربط مجموعة من الاوراق في المصنف فابتدرها تيدي بهذا السؤال :

— ارجوك ، هل تستطيعين أن تخبريني في أية ساعة يبتدىء اللعب اليوم ؟

— عفواً . ماذا تقول ؟

— أيمكنك أن تخبريني في أية ساعة يبتدىء اللعب اليوم ؟

فابتسمت له الفتاة ابتسـامة عريضة لاحت بين خطين من حمرة الشفاه :

— أي لعب يا صغيري ؟

— انت تعرفين جيداً . ذلك اللعب الذي جرى امس ، واول أمس ، اللعب الذي يشتمل على ايجاد الكلمات الناقصة . ان ما يجب البدء به هو وضع الاشياء مع قرائنها .

واضطرت الفتاة التي كانت تدخل ثلاث صفحات دفعة واحدة في مصنفها الى التوقف عن العمل ثم قالت :

ـ اوه ، لا أعتقد أن ذلك سيجري قبل الساعة الرابعة مساء . أليس ذلك صعباً بالنسبة لك يا صغيري ؟

قال تيدي :

ـ اوه ! لا ، شكراً .

ثم ابتعد عن المكتب .

ـ انتظر لحظة ايها الصغير ! ما اسمك ؟

قال تيدي :

ـ تيودور ماك آردل . وانت ما اسمك ؟

قالت الفتاة وهي تبتسم :

ـ اسمي انا ؟ انني الرقيبة ماتيوسن .

ونظر اليها تيدي ، وهي تضغط على سحّاب المصنف واردف قائلاً :

ـ أعرف انك رقيبة ، ولكني أظن ـ ولست متأكداً من ذلك ـ أظن فقط أنه عندما يسألك شخص ما عن اسمك فعليك ان تذكريه كاملا . كأن تقولي : جين ماتيوسن ، او فيليس ماتيوسن او ما شابه ذلك ...

ـ اوه ! أحقاً ما تقول ؟

قال تيدي :

ـ قلت : أظن فقط . ولست واثقاً من ذلك ، وقد يختلف الأمر عندما يحمل الانسان البزة الرسمية . أشكرك على كل حال على المعلومات التي زودتني بها .. الى اللقاء .

وادار عقبيه ، واتجه نحو السلم الذي يفضي الى سطح الباخرة ، وهو يقفز

الدرجات مثنى مثنى من جديد ، ولكن بصورة أسرع هذه المرة .

ولمح بوبر بعد أن بحثت عيناه عنها فترة من الزمن ، لمحها في الأعلى ، على سطح الألعاب الرياضية . كانت تقبع في زاوية تلفحها الشمس كما تلفح الأرض البلقع ، بين ملعبين خاليين للتنس . كانت تجلس القرفصاء . والشمس في ظهرها ، ونسمة خفيفه تعبث بشعرها الاشقر الحريري . وكانت تجهد نفسها في تطبيق كومتين من قطع الخشب المستديرة الواحدة فوق الأخرى .. تضع قطعة فوق الكومة الحمراء ، واخرى فوق الكومة السوداء . وكان صبي صغير يرتدي لباس الاستحمام ، يقبع بجانبها عن اليمين ، وقد اتخذ موقف المتفرج فقط .

قالت بوبر لأخيها الذي أخذ يدنو منها :

ـ انظر !

وزحفت نحو كومتي القطع المستديرة واحاطتها بذراعيها لتريه أعمالها الخارقة وكأنها تريد أن تعزلها عن سائر الباخرة . ثم قالت لزميلها بلهجة عدائية :

ـ مايرون . ! ان ظلك يخفي القطع . حرك جسمك قليلاً بحيث يستطيع اخي ان يراها .

ثم اغلقت اجفانها ، وراحت تنتظر بما يشبه الحرد أن يتحرك مايرون من مكانه .

وانحنى تيدي على الكومتين ، والقى عليهما نظرة شاملة تنطوي على التقدير . ثم قال :

ـ هذا هائل ! كم هي منتظمة .

قالت بوبر وهي تشير الى مايرون .

ـ لم يسمع هذا الصبي في حياته بلعبة التريك ـ تراك . تصور أنهم لا يعرفونها عندهم على الاطلاق .

والقى تيدي على مايرون نظرة مقتضبة ، موضوعية ، ثم سأل بوبر :

– اين آلة التصوير . بابا يريدها حالاً . قالت بوبر لتيدي :

– تصور أنه لا يسكن نيويورك أيضاً . ان اباه ميت . لقد قتل في كوريا .

ثم التفتت الى مايرون وسألته :

– أليس كذلك ؟

ولكنها اردفت دون ان تنتظر جواباً :

– واذا ماتت امه الآن فسيصبح يتيماً . انه لا يدرك حتى ذلك .

ونظرت الى مايرون :

– أليس كذلك ؟

فما كان من مايرون الذي كان يقبع هناك باحتراس الا ان صالب ذراعيه .

قالت بوبر ؟

– انك اغبى شخص شاهدته في حياتي . انك اغبى انسان في هذا المحيط كله. هل كنت تعرف ذلك ؟

قال تيدي :

– انك على خطأ . انها على خطأ يا مايرون .

ثم توجه الى شقيقته :

– أصغي الي لحظة . اين آلة التصوير هذه ؟ يجب ان احصل عليها حالا . أين هي

قالت بوبر:

ـ هناك .

دون ان تشير الى اتجاه معين . وقربت منهـــا كومتي القطع المستديرة . واردفت قائلة :

ـ لا ينقصني الآن الا عملا فان . باستطاعتهما ان يلعبا ، ثم يمكنهما أن يتسلقا هذه المدخنة ويقذفا بهذه القطع كلها على الناس فيقتلانهم جميعاً . ثم نظرت الى مايرون وقالت له بلهجة من يعرف كثيراً :

ـ قد يستطيعان قتل ذويك . واذا لم يقتلوا فهل تدري ماذا يمكنك ان تفعل؟ تستطيع ان تدس سماً في عجينة الخمية وتدعهم يأكلونها .

كانت ال « ليكا » على بعد ثلاث خطوات منها ، بجـــوار متراس الباخرة الأبيض الذي يحيط بسطح الألعاب . كانت تقبع على جنبها في مجرى البالوعة . واقترب تيدي منها والتقطها من حمولتها الجلدية . وعلقها في عنقه ، ثم سحبهـــا حالاً ، وقدمها الى بوپر . وقال لها :

ـ ارجوك يا بوپر . خذيها من فضلك الى أبي . انها الساعة العاشرة . وعلي ان اكتب مذكراتي .

ـ اني مشغولة .

قال تيدي :

ـ على كل حال ، ماما تصر على رؤيتك حالا .

ـ انت كاذب .

قال تيدي :

ـ لست كاذباً . انها تريد ان تراك . خذي الآلة في طريقك . هيا يا بوپر .

وسألت بوپر :

ـ لماذا تريد ان تراني ؟ اني لا ارغب ابداً في رؤيتها .

ثم ضربت مايرون على يده بقوة بينما كان يتأهب لأخذ القطعة الأولى من الكومة الحمراء . وصاحت :

ـ ابعد قوائمك !

ومرر تيدي حمالة الآلة في عنق شقيقته واردف :

ـ اقول لك جاداً . احملي هذه الالة معك الى بابا حالا . وسألقاك في حوض السباحة بعد قليل . وسألقاك في الساعة العاشرة والنصف امام الحوض ، او عند المدخل تماماً ، في المكان الذي تخلعين فيه ثيابك . كوني هناك في الوقت المحدد . انه يقع في موضع نزولك الى السطح هـ . لا تنسي ذلـــك . احسبي الوقت الذي تحتاجينه للوصول اليه .

وعوت بوبر من ورائه :

ـ إني اكرهك . إني اكره كل انسان على هذا المحيط !

* * *

تحت سطح الألعاب ، وعلى الأطراف الخلفية الواسعة لسطح « السولاريوم » كان هناك اكثر من خمسة وستين كرسياً مطوياً ، منضداً في سبعة صفوف او ثمانية كان بين هذه الصفوف من المقاعد المطوية ما يكفي على التحديد ليسمح للمراقب بالمرور بينها دون أن يضطر لوضع اقدامه فوق متـــاع المسافرين الذين كانوا يستمتعون بحمام الشمس ، ذلك المتاع الذي كان يتألف من اكياس لشغل الصوف وروايات في حافظات جلدية ، وزجاجات زيت للتدليـــك ، وآلات للتصوير . وعندما وصل تيدي كان هناك حشد كبير من الناس ، فاذا الصبي يبدأ بالصف الأخير ، ويتوقف أمـــام كل كرسي ، سواء أكان مشغولاً أم لا ، ليقرأ اسم المسافر المسجل على ذراع الكرسي .لم يكن هناك الا مسافر او مسافران يتحدثان

اليه ، بل قل يلقيان اليه بنكتة من تلك النكات العامية التي يميل الراشدون في الغالب الى القائها أمام صبي في العاشرة ليس في رأسه الا فكرة واحدة وهي أن يجد الكرسي الذي يخصه . كان صغر سنه ، وفكرته الثابتة واضحين جـداً ، ولكن شكله لم يكن ليوحي بتلك الجدية المحببة عند الاطفال، التي تجتذب كثيراً من الراشدين للتحدث معهم بشيء من التنازل، اوبالعكس بشيء من المراعاة والتقدير، ربما كانت ملابسه العامل الأساسي في ذلك . فان الثقب الكبير في كتف قميصه لم يكن على شيء من الجمال ، والعرض الزائد عن الحد لسرج بنطـاله ، وطول البنطال القصير ، كل هذه الاشياء لم تكن لتؤلف مبالغات مستحبة على الاطلاق .

كانت الكراسي الأربعـة المخصصة لآل ماك آردل ، المجهزة بوسائد معدة للاستعمال تقع في منتصف الصف الثاني من الأمام . فجلس تيدي عن سابق قصد اولاً في الكرسي الذي يتيح له ألا يكون أحد بجواره ، والصق قدميه بعضهما ببعض ، ثم مدد على الكرسي ساقيه العاريتين اللتين ما تزالان بيضاوين ، ثم اخرج في الوقت ذاته من جيبه الخلفي الايمن دفتراً صغيراً من النوع الذي لا يتعدى ثمنه الفلسين ، ثم بدا وكأنه قد استقطب جميع افكاره فجأة ؛ وانقطـع عن العالم وحيداً مع دفتره، بلا شمس ، ولا ركاب ،ولا باخرة...وراح يقلب الصفحات...

كان كل ما في المفكرة ، ما عدا بعض ملاحظات بقلم الرصاص ، يبدو مكتوباً بقلم حبر جاف . وكان الخط نفسه من ذلـك الضرب الذي يعلمونه بصورة عامة في المدارس الامريكية مستعيضين به عن الطريقة القديمة الجيدة ، طريقة بالمر . كان مقروءاً دون أن يكون جميـلاً . ولعل ما يلفت النظر فيه هو السهولة التي يكتب بها ، فلا وجود للصفة فيه البتة . ولا وجود لما يدفع للافتراض بأن هـذه الكلمات والجمل من كتابة طفل .

وامضى تيدي وقتاً لا بأس به في قراءة ما يظهر أنه ملاحظاته الأخـيرة . وكانت تغطي اكثر من ثلاث صفحات على وجه التقريب .

يوميات ٢٧ تشرين الاول ١٩٥٢ الخاصـة بتيودور – ماك آردل – ٤١٢

جسر آ . مكافأة عادلة ، جميلة ، لمن يعيد هـــذه المفكرة لتيودور ماك آردل على الفور .

يترتب عليك ما يلي :

أن تبحث عن القطع المعدنية التي تحمل تحقيق الشخصية لبابا عندما كان في الخدمة العسكرية ، وتحملها انت في اقرب فرصة ممكنة .

لن تموت من جراء ذلك . بل ستبعث في نفسه السرور .

☆ ☆ ☆

أن تجيب على رسالة الاستاذ مندل ،عندما تتاح لك الفرصة والصبر اللازمان، وان تطلب اليه ألا يعود الى ارسال الدواوين الشعرية ، فعندي منها ما يكفي لعام كامل . واني لأشعر بالقرف منها على كل حال . . رجل يتمشى على طول الشط ، ويتلقى المسكين قطعة من جوز الهند على رأسه ، فيشجُ رأسه – يا للتعاسة ! – نصفين ، وتأتي زوجته عندئذ الى الشاطىء وهي تغني ، فتشاهد نصفي الرأس ، وتتعرفهما ، وتلتقطهما ، فيستولي عليها الحزن الشديد ، ثم تبـــكي بكاء يفتت الاكباد .

هذا هو السبب الذي جعلني اتعب من الشعر لنفرض أن السيدة اكتفت بالتقاط نصفي الرأس ؛ ثم راحت تصرخ داخلهما بغضب :

« كفى » . .

عليك ألا تذكر شيئاً من هذا عندما تجيب على رسالته . فقد يؤدي ذلك الى مناظرة ؛ لا سيا اذا علمت أن زوجه السيدة مندل هي بدورها شاعرة أيضاً .

☆ ☆ ☆

يجب ان احصل على عنوان سفين في اليزابيت نيو – جرسي من المهم أن

اقابل زوجته، وكلبه «لاندي» ايضاً . اني لا احب على كل حال ان يكون لي كلب .

* * *

علي ان اكتب رسالة تعزية للدكتور «ووكاوارا» حول موضوع التهـــاب كليته ، وان اسأل ابي عن عنوانه .

* * *

ان اجرب سطح الألعاب للتأمل غداً صباحاً قبل الافطار ؛ على ان ابقى صافي الذهن ، والا يغمى علي مرة أخرى في غرفة الطعام اذا ما اسقط النادل المغرفة من يده .. لقد اغتاظ أبي كثيراً من ذلك ..

* * *

كلمات واصطلاحات علي ان ابحث عنهـــا غداً في القاموس ... في المكتبة عندما اعيد الكتب :

Nephritis (١)
Myriad (٢)
Gipt horse (٣)
Cunning (٤)
Trium virate (٥)

* * *

علي ان اكون اكثر لطفاً مع امين المكتبة ، كأن اناقش بعض الأمور العامة معه عندما يمهد لي الطريق لذلك .

* * *

آثرنا ايراد هذه الكلمات بلغتها الأصلية ومعناها .
(١) التهاب الكلية . (٢) عشرة آلاف متر .
(٣) منحة . (٤) مكر . (٥) حاكم .

« المترجمة »

واخرج تيدي قلماً صغيراً للحبر الجاف من جيب بنطاله القصير ، ورفع غطاءه ثم راح يكتب ، متخذاً من فخذه الايمن متكأ بدلاً من ذراع الكرسي :

مذكرات يوم ٢٨ تشرين الاول ١٩٥٢

نفس العنوان ...

ونفس الجائزة المسجلة أعلاه في الصفحات ٢٦ و ٢٧ تشرين الثاني ١٩٥٢

بعد أن فرغت من تأملاتي كتبت اليوم رسائل الى الاشخاص الآتية أسماؤهم:

الدكتور ووكاوارا .
الاستاذ مَندِل .
الاستاذ بيت .
بورغيس هايك الابن .
روبرتا هايك .
سانفورد هايك .
الجدة هايك .
السيدة غراهام .
الاستاذ والتن .

* * *

كان بودي أن أسأل أمي عن القطع المعدنية التي تحمل هوية بابا . ولكنها ربما أجابتني بأني لست مضطراً أن احملها . أعرف أن بابا حملها معه في سفره لانني رأيته يضعها في حقائبه .

* * *

الحياة ضربٌ من المنحة في رأيي .

أرى أن الاستاذ والتن يعوزه الكثير من اللباقة لانتقاده أهلي . انه يود ان يكون الناس كلهم من طراز معين .

* * *

قد يحدث ذلك الشيء اليوم ، او في ١٤ شباط ١٩٥٨ ، عندما اكون في السادسة عشرة من عمري . من السخف أن اسجل هذا .

* * *

بعد كتابة هذا المقطع الأخير بقيت عينا تيدي مثبتتين على الصفحة ، وقلم الحبر الجاف مرفوع كما لو ان شيئاً آخر سيتبع .

لم يكن يشعر ، على ما يبدو ، بأن هناك شخصاً وحيداً يراقبه . فعلى بعد خمسة او ستة امتار من صف الكراسي الأول ، نحو الأمام ، على أعلى منه بعدة أمتار في الشمس اللاهبة ، كان هناك شخص لا يتجاوز الثلاثين ، يستند الى حاجز سطح الالعاب ، ولا يحول عينيه عنه .

كان هناك منذ ما يقرب من عشر دقائق . لقد بدا عليه الآن أنه يتخذ قراراً معيناً ، لانه سحب فجأة قدمه التي كان قد ركزها على قضيب من قضبان الحاجز ، ومكث عدة ثوان واقفاً ينظر في اتجاه تيدي ، ثم ابتعد ، وتوارى .

وما ان مضت دقيقة حتى كان قد عاد من جديد بنفس القامة المستقيمة وسط صفوف الكراسي ، وشق لنفسه طريقاً مستقيماً نحو كرسي تيدي ، وهو يلقي على صفحات الروايات ظلالا مزعجة ، ويدوس بثقة شديدة(اذا لم ننس أنه كان الشخص الوحيد الحي الذي يقف في تلك الناحيـة) اكياس شغل الصوف ، والأدوات الشخصية الأخرى .

لم يبد على تيدي أنه لاحظ وجود شخص بجانب كرسيه ، او حتى وجود ظل على مفكرته ، بينما ظهر على عـدد من ركاب الباخرة في نفس الصف ، وفي

الصفين التاليين انهم اكثر اهتماماً منه براحتهم ، فرفعوا نحو الشاب نظرات لا تصدر عادة الا عن اشخاص مثلهم متمددين على كراسي البحر . ولكن الشاب لم يفقد ثقته بنفسه ، كان يبدو عليه أنه يستطيع البقاء في مكانه حتى نهاية الزمن بشرط واحد لا معنى له : أن يستطيع الاحتفاظ باحدى يديه في جيبه . وما لبث أن توجه بالحديث الى تيدي :

— هالو .

ورفع تيدي عينيه واجاب :

— هالو .

وأغلقت المفكرة برغبة منه من جهة ، ومن تلقاء نفسها من جهة أخرى .

وسأل الشاب بحفاوة لا حد لها :

— هل يزعجك أن أجلس قليلاً هنا ؟ هل يخص هذا المقعد أحداً ؟

قال تيدي :

— هذه المقاعد الأربعة تخص أهلي . ولكنهم لم يستيقظوا بعد .

قال الشاب :

— لم يستيقظوا بعد ؟ في نهار كهذا ؟

كان قد اندس في المقعد ، على يمين تيدي ، وكانت الكراسي شديدة القرب بعضها من البعض الآخر لدرجة أن ذراعيها كانتا تتلاصقان ..

قال الشاب :

— انه كفر . كفر حقيقي .

ومدد ساقيه ذواتي الفخذين الضخمتين بصورة شاذة ، حتى أن فخذاً كهذه كانت وحدها توحي للمرء باكثر من جسم بشري . لم يكن منظره العام ليختلف

عن المنظر المألوف لأي مصطاف على الشاطىء: شعر مقصوص على مستوى واحد. تبدو قمة رأسه كالفرشاة ، واسفل جسمه كالخف المثني الى الداخل، وبينهما ضرب من اللباس المتنافر الغريب : جوارب صوفية بلون بني ، وبنطال رمادي غابق، وقميص بياقة مفتوحة بلا ربطة للعنق، وسترة تحمل شارات على اكمامها ابتاعها بلا ريب من احـــدى دور أزياء الطلبة المعروفة في « ييل » او « هارفارد » ، او « برنستون » .

قال وهو يتنهد تنهدة ارتياح ، ويغمز بعينيه نحو الشمس :

– يا آلهي ! يا له من يوم إلهي ! إن الطقس يتصرف بي كما يشاء .

ثم وضع ساقيه الواحدة فوق الأخرى على مستوى رسغ القدمين .

– لقد اتفق لي حقاً أن نظرت الى اليوم الممطر بصورة طبيعية كسبة شخصية موجهة لي . ولذلك انظر الى اليوم الجميل، كهذا اليوم ، على انه منحة من الآلهة لي وحدي .

وبالرغم من أن صوته كان من ذلك الضرب الذي يعتبر عادة صوتاً مهذباً ، فقد كان يضغط عليه اكثر مما ينبغي ، كما لو انه يتخيل أن كل ما يقوله سيبدو بهذا التشديد اكثر صواباً ، واشد ذكاء ، واعمق ثقافة . وربما كان أيضاً اكـــثر تسلية او اثارة – سواء كان ذلك في أذني تيدي او في آذان الأشخاص الجالسين وراءه ، هذا اذا افترضنا أنهم كانوا يصغون اليه . والقى على تيدي نظرة مائلة ، وابتسم ، ثم سأله :

– وانت ؟ كيف حالك مع الطقس ؟

لم تكن ابتسامته من ذلك الضرب الذي تعوزه قوة الشخصية ، ولكنهـــا كانت ابتسامة مصطنعة ، ابتسامة من النوع الذي يستعمل في أثناء الحديث . وربما كانت تعبر الى حد ما عن حقيقته وأضاف وهو يبتسم :

– ألا يؤثر فيك الطقس بصورة ظاهرة ؟

قال تيدي :

ــ إني لا انظر اليه كموضوع شخصي ، اذا كان ذلك هو ما تستفسر عنه .

وضحك الشاب ، وهو يرد رأسه الى الوراء ثم اردف قائلا :

ــ هذا رائع . اسمي في الواقع هو بوب نيكلسون . لا أدري اذا ما كنا قد تعارفنا في صالة الرياضة من قبل . اني اعرف اسمك بالطبع .

وانقلب تيدي على أحد جنبيه ، وادخل مفكرته في جيب بنطاله القصير . وراح نيكلسون يتحدث ، وهو يشير بيده الى المكان :

ــ كنت انظر اليك من هناك . وانت تكتب . يا آلهي ! كان يبدو عليك أنك تعمل كسجين صغير ، كمحكوم بالأشغال الشاقة .

وحدجه تيدي بنظرة :

ــ كنت اخط بعض الملاحظات في مفكرتي .

فهز نيكلسون رأسه وهو يبتسم ، ثم سأل لئلا يقطع الحديث :

ــ ما رأيك في اوروبا ؟ أأنت مسرور من رحلتك ؟

ــ نعم ، كثيراً ، شكراً .

ــ واين ذهبت على وجه التحديد ؟

وانحنى تيدي فجأة الى الأمام وراح يحك ربلة ساقه .

ــ سيستغرق ذلك وقتاً طويلا اذا ما رحت أعدد لك كل الأماكن التي زرناها لقد اصطحبنا سيارتنا معنا ، وقطعنا عدداً كبيراً من الكيلو مترات (واستند من جديد الى الوسائد) .

لقد زرت أنا ووالدتي ، على الأخص ، اونبرغ في ايكوسيا ، واوكسفورد في انكلترا ، واذكر أني حدثتك في صالة الرياضة عن المقابـــلة التي أجريت معي في هاتين المدينتين ولا سيا في جامعة اونبرغ .

– لا ، لا اظنك ذكرت لي شيئاً من ذلك . اني أتساءل بالضبط اذا ما قمت بشيء من هذا القبيل ، وكيف حدث ذلك ؟ هل احرجوك بالأسئلة ؟

قال تيدي :

– عفواً ؟

– إني أسألك كيف حدث ذلك ؟ هل كانت المقابلة شيقة ؟

قال تيدي :

– احياناً نعم ، واخرى لا ؛ لقد مكثنا هناك اكثر مما يجب . كان والدي يود العودة الى نيويورك في الباخرة التي سبقت هذه ولكن كان هناك أشخاص يأتون الى رؤيتي من استكهولم في السويد ، ومن انز بروك في النمسا . وهكذا اضطررنا للانتظار .

– ان الأمور تجري دائما على هذا النحو .

ونظر اليه تيدي للمرة الأولى وجهاً لوجه وسألته :

– أأنت شاعر ؟

قال نيكلسون :

– شاعر ؟ لا ، يا آلهي ، مع الأسف . لماذا تسألني ذلك ؟

– لا ادري . ربما دفعني الى هذا السؤال أن الشعراء يجعلون أبداً من أحوال المناخ شيئاً شخصياً . انهم يحملون مشاعرهم اشياء خالية من كل شعور .

ووضع نيكلسون يده في جيبه وهو يبتسم ، واخرج علبة سجائر وثقاباً ، وقال :

– كنت أعتقد بأن ذلك هو اختصاصهم ؛ المشاعر والانفعالات .. أليست اهم شيء في نظر الشعراء ؟

لم يبد على تيدي أنه سمعه ، وربما لم يكن يصغي اليه . فقد كان يوجه نظرة

شاردة الى ما وراء المدخنتين التوأمين القائمتين على سطح الألعاب .

واشعل نيكلسون لفافته بشيء من الصعوبة . فقد كانت نسمة خفيفة تهب من الشمال ، وعدل من جلسته داخل الكرسي ، ثم اضاف :

ـ اذا كنت قد فهمت الأمور جيداً فأنك قد تركت عدداً من الناس في حيرة واضطراب شديدين .

قال تيدي فجأة :

ـ « ليس في صوت الصرصار ما يكشف عن أنه سيموت عما قريب . » « على طول هذا الدرب لا يسير أحد في هذا المساء الخريفي . »

وسأل نيكلسون وهو يبتسم :

ـ ماذا تقول ؟ أعده من فضلك !

قال تيدي :

ـ انهما قصيدتان يابانيتان ، لم تنتفخا بكومة من « السلطات » العاطفية .

وعدل قامته فجأة ، وحنى رأسه جانباً ، وضرب أذنه اليمنى ضربة خفيفة بيده ، ثم قال :

ـ ما يزال في أذني شيء من الماء منذ درس السباحة الذي تلقيته بالأمس .

ثم لكم أذنه لكمتين أخريين . ثم عاد الى الجلوس ، وهو يستند على ظهر الكرسي ، ويريح يديه على ذراعي المقعد . لقد كانت المقاعد على حجم الكبار بالضبط ، فبدا ضئيلاً جداً داخل مقعده . ولكنه كان في الوقت نفسه يبدو شديد الارتياح ، صافي الذهن .

قال نيكلسون ، وهو يراقبه :

ـ اذا كنت قد وعيت الأمر جيداً ، فانك قد تركت وراءك عدداً من البلداء في بوسطن في حيرة شديدة ، بعد الجلسة الصغيرة التي عقدتها هناك . ومنهم جميع

افراد لجنة ليديكر الفاحصة على الأقل ، اذا صح ما فهمته . اظن أني قد ذكرت لك بأني تحدثت مطولاً مع آل بابكوك في شهر حزيران في نفس المساء — اذا اردت الصراحة — ، في نفس المساء الذي سمعت فيه الشريط الذي سجلته .

— نعم ، حقاً ؟ لقد ذكرت لي ذلك .

وأضاف نيكلسون :

— لقد فهمت انهم قد اضطربوا أيما اضطراب . ولقد قام بينكم — بحسب ما روى آل — ذات ليلة حفلة أشبه بحفلات المصارعة الشهيرة ، تلك الليلة التي سجلت فيها ذلك الشريط ، على ما اذكر .

وسحب نفساً من لفافته :

— وبناء على ما قيل لي فقد جرى على لسانك عدد من التنبؤات التي ملأتهم رعباً وهلعاً . أليس كذلك ؟

قال تيدي :

— اود ان أعرف لماذا يعتقد الناس بأن من المهم جداً أن يكون الانسان عاطفياً . ان والدي لا يرى الشخص كائناً بشرياً اذا لم يكن في رأسه كومة من الأشياء الكئيبة جداً ، المملة جداً ، بل قل الخاطئة الى ابعد الحدود . ان أبي شديد الانفعال حتى عندما يقرأ صحيفة ، انه يعتقد بأني قاسي القلب ، بعيد عن الانسانية .

واسقط نيكلسون رماد لفافته جانباً ، ثم قال :

— هل أستطيع أن استخلص النتيجة الآتية : وهي أنك غير قادر على أن تحمل عاطفة .

وفكر تيدي قبل أن يجيب ، ثم أردف قائلا :

— هَبْ أني كنت قادرا على ذلك ، فاني لا اذكر أن الفرصة قد سنحت لي

في يوم من الأيام لأعرف ذلك . واني لا ارى ما جدوى العاطفة؟ ولم عساهاتنفع؟

وسأل نيكلسون بكثير من الهدوء :

ـ أنك تحب الله ، أليس كذلك ؟ أليس ذلك ـ واعذر التعبير ـ هو سر قوتك ، حسب ما سمعته على ذلك الشريط ، وبناء على أقوال أل بابكوك ؟ ...

قال تيدي :

ـ نعم ، إني أحب الله من دون شك ، ولكني لا احبه عاطفياً . انه لم يقل بأن على المرء أن يحبه عاطفياً . لو كنت إلهاً لما رغبت الى البشر أن يحبوني بعاطفتهم . ان العواطف متقلبة .

ـ انك تحب اهلك ، أليس كذلك ؟

قال تيدي :

ـ نعم ، احبهم كثيراً . ولكنك تريد أن اعطي لهذه الكلمة المعنى الذي تمطونه انتم لها . أنا واثق من ذلك .

ـ موافق . ولكن ما هو المعنى الذي تعطيه انت لها ؟

واطرق تيدي مفكراً ثم سأل وهو يلتفت نحو نيكلسون :

ـ أتعرف معنى كلمة قربى ؟

قال نيكلسون بجفاف :

ـ عندي فكرة غامضة عنها .

قال تيدي :

ـ ان ما يربطنا هو نوع من القربى ، انهم اهلي ؛ أعني أن احدنا مرتبط بالآخر وبذلك يتم انسجامنا ... إني اود من صميم قلبي ان يعيشوا حياة سعيدة

لانهم يحبون ذلك ، ولكنهم لا يحبوننا كما نحن . يبدو انهم لا يستطيعون أن يحبونا اذا لم يستطيعوا أن يبدلوا فينا قليلا ، أعني بالقدر الذي يحبوننا ، او اكثر مما يحبوننا ، في اكثر الاحيان . وهذا ما يسؤني في هذا الموضوع .

والتفت من جديد نحو نيكلسون ، وهو يعدل من جلسته في مقعده ، وسأله :

ـ هل تعرف كم الساعة الآن ، أرجوك ؟ فموعـــد درسي في السباحة هو العاشرة والنصف .

قال نيكلسون قبل أن ينظر الى ساعته :

ـ أمامك متسع من الوقت .

ثم قلب كم قميصه واردف :

ـ الساعة الآن العاشرة وعشر دقائق .

قال تيدي :

ـ شكرا . ثم تمدد من جديد . يمكننا الاستفادة من هذا الحديث عشر دقائق أخرى .

واخرج نيكلسون احدى قدميه من المقعد ، وانحنى الى الأمام . ثم سحق بها عقب لفافته ، وقال وهو يتمدد من جديد :

ـ اذا كنت قد فهمت أراءك جيدا فانك من الأنصار الأشداء لنظرية تناسخ الأرواح .

ـ ليست بنظرية .. انها على الأصح ...

قال نيكلسون بسرعة :

ـ موافق .

وابتسم ، ورفع راحتي يديه قليلا كاشارة مباركة ساخرة :

ـ ارجو ألا نتجادل الآن حول هذه النقطة . دعني اتم حديثي .

ولف من جديد ساقيه الضخمتين الواحدة فوق الأخرى :

ـ لقد فهمت من تسجيلك أنك قد توصلت بالتأمل الى اليقين بأنك كنت في حياتك الأولى قديساً هندياً « فقد النعمة » ..

قال تيدي :

ـ لم اكن قديساً ، وانما كنت رجلا متقدماً على المستوى الروحي فقط .

قال نيكلسون :

ـ حسناً ، ليس هذا هو المهم . المهم أنك تشعر بأنك قد سقطت في حياتك الأولى الى حد ما قبل أن تصل الى الرؤيا المطلقة . أليس الأمر كذلك ؟ أم تراني ؟ ...

قال تيدي :

ـ هو كذلك . لقد صادفت سيدة وانقطعت على الأثر عن التأمل .

وسحب ذراعيه من على ذراعي المقعد ، ووضع يديه على فخذيه كانما يريد تدفئتهما :

ـ لقد كان علي ، على كل حال ، أن أتخذ جسماً جديدا ، وان اعود الى الارض ، أعني أني لم اكن قد بلغت قمة التأمل الروحي ، (حتى لو لم اكن قد قابلت تلك السيدة) ، لأموت والتحق مباشرة « ببراهما » وعندئذ فقط يمكنني ان انعم بالابدية ولا اعود الى هذه الارض من جديد . ولكني لو لم اقابل تلك السيدة لما كنت قد مسخت متقمصاً جسد امريكي . افهم ما اقوله : إن من الصعب جدا أن يتأمل المرء ، او يحيا حياة روحية في امريكا . ان الناس هنا لا يرون فيك الا مهرجاً اذا ما حاولت ذلك . ان أبي ينظر الي كمهرج الى حد ما أما أمي فانها ترى بأنه ليس من الخير لي أن أتأمل طوال الوقت في الله . انها تعتقد بأن ذلك يضر بصحتي .

كان نيكلسون يحدد فيه النظر ويدرسه بامعان :

– اظن انك ذكرت في الشريط الاخير بانك كنت في السادسة عندما مررت بتجربتك الصوفية الاولى . أليس كذلك ؟

قال تيدي :

– كنت في السادسة حين رأيت بأن كل شيء في العالم هو الله . وانتصب شعري حينئذ على رأسي و ... كان اليوم يوم أحد ، كما اذكر ، وكانت أختي ما تزال رضيعاً في تلك الأثناء . كانت تشرب حليبها ، وفجأة رأيت أنها كانت جزءاً من الله ، وكان الحليب جزءاً من الله ايضاً ، أعني أنها لم تكن تعمل اكثر من أن تصب الله في الله . أتفهم ما أعني !

لم يحر نيكلسون جواباً .

واردف تيدي كما لو أنه يفكر بعد فترة :

– ولكني في الرابعة ، كنت استطيع الخروج غالباً من الأبعاد المحددة . كان يحدث ذلك غالباً بالطبع ، ولكن ليس بصورة دائمة .

وهز نيكلسون رأسه وقال :

– حقاً . هل كنت تستطيع ذلك ؟

قال تيدي :

– نعم ، ان ذلك مسجل على الشريط ، او انه كان موجودا في الشريط الذي سجلته في نيسان . لم اعد اذكر .

وتناول نيكلسون لفائفه من جيبه دون أن يتحول بنظراته عن تيدي . ثم سأل وهو يرسل ضحكة مقتضبة :

– وكيف يخرج الانسان من الأبعاد المحددة . أعني اذا كنا نضع الأشياء كأساس فكتلة من الخشب هي كتلة من الخشب مثلاً ، لها طول ولها عرض ..

قال تيدي :

ـ أبداً ، انكم تخطئون هنا . الناس جميعاً يعتقدون بأن الأشياء تنتهي في مكان ما . ولكن ذلك خطأ . هذا ما حاولت أن أشرحه للاستاذ بيت .

وتحرك داخل مقعده ، واخرج منديلًا يصعب النظر اليه، شيئاً رمادياً مكوماً وتمخط .

ثم أردف قائلا :

ـ اذا كانت الأشياء تنتهي في مكان ما فذلك لأن اكثر الناس لا يعرفون كيف ينظرون اليها بشكل آخر . ولكن ذلك لا يعني انها تنتهي .

واعاد منديله ثم نظر الى نيكلسون وسأله :

ـ ارفع ذراعك لحظة من فضلك .

ـ ذراعي ؟ لماذا ؟

ـ ارفعها فقط ، لحظة واحدة .

ورفع نيكلسون ذراعه عدة سنتيمترات عن ذراع الكرسي الذي يجلس عليه ، وسأل :

ـ هذه الذراع ؟

فوافق تيدي ، وسأله :

ـ ماذا تسمي هذه ؟

ـ ماذا ؟ هذه ؟ انها ذراعي . انها ذراع ..

وقاطعه :

ـ وكيف تعرف ذلك ؟ انك تعرف أنهم يسمونها كذلك . ولكن كيف تعرف انهم يسمونها كذلك . ولكن كيف تعرف أنها ذراع فعلا ؟ هل لديك برهان واحد على ذلك ؟

واخرج نيكلسون لفافة من علبته واشعلها ثم قال وهو ينفث الدخان منها :

ـ اذا اردت الصراحة فليس ذلك سوى مجرد سفسطة . انها ذراع يا إله السماء ، لأنها ذراع . ويجب بادىء ذي بدء أن يطلق عليها اسم معين لتتميز عن سواها . واخيراً لا يمكن بكل بساطة أن ...

قال تيدي ببرودة :

ـ انك لا تفعل الآن اكثر من أن تبدأ النقاش بصورة منطقية .

وسأل نيكلسون بلهجة فيها كثير من التهذيب :

ـ ماذا افعل ؟

قال تيدي :

ـ تحاكم منطقياً . لقد أجبتني جواباً عادياً ، ذكيـاً فقط . كنت احاول مساعدتك . لقد سألتني كيف أستطيع الخروج من الأبعاد المحددة عندما ارغب في ذلك . إني لا اصل الى ذلك عن طريق المنطق بكل توكيد . إن المنطـق هو اول ما يجب التخلي عنه .

ورفع نيكلسون باصابعه نتفة من التبغ لصقت بلسانه .

وسأله تيدي :

ـ هل تعرف آدم ؟

ـ هل اعرف من ؟

ـ آدم .. الذي تتحدث عنه التوراة . فابتسم نيكلسون وقال بلهجة لاتنم عن شيء :

ـ لا اعرفه شخصياً .

وتردد تيدي ثم قال :

ـ لا تغضب . لقد سألتني سؤالا وأنا الآن ...

– لستُ غاضباً ، يا رب السماء .

قال تيدي وقد استوى في مقعده وادار رأسه الى نيكلسون .

– اوكي . انت تعرف تفاحة آدم ، تلك التي اكلها في جنات عدن كما تقول التوراة . هل تعرف ماذا كان ضمن هذه التفاحـة ؟ منطق .. منطق وسخافات فكرية .. هذا كل ما كان فيها . فاذا ما اراد احدنا أن يرى الأشياء على حقيقتها فعليه ان يتقيأها . وعندما تكون قد تقيأتها ستزول عنك كل المشاكل التي تتعلق بكتل الخشب التي ذكرتها ، وما اشبه ذلك . ولن ترى الأشياء ، اذ ذاك تنتهي عند حدود ... وسترى اذ ذاك ما هي ذراعك ، اذا كان هذا يهمك بالطبع . هل ترى ما اعني ؟ هل تتابعني ؟

قال نيكلسون بلهجة فيها شيء من الجفاف :

– إني اتابعك .

واستانف تيدي :

– ان جوهر المشكلة يتلخص في ان اكثر الناس لا يريدون ان يروا الأشياء كما هي .

انهم لا يريدون حتى أن يتوقفوا عن الولادة والموت دون انقطاع . انهـم يريدون دائماً اجساداً جديدة بدلا من أن يوقفوا هذا التناسخ ، ويستقروا بقرب الله ، حيث كل شيء رائع .

وفكر قليلا ثم أضاف :

– إني لم ار مطلقاً مثل هذا العدد الضخم من أكلة التفاح .

وهز رأسه ملياً .

وفي تلك الأثناء مر نادل بسترته البيضاء بين المقاعد . وتوقف امـام تيدي ونكلسون ، وسألهما فيما اذا كانا يرغبان ان في حساء الصباح .

فلم يكلف نيكلسون نفسه عناء الجواب .

أما تيدي فقد قال :

ــ لا ، شكراً .

وابتعد النادل .

قال نيكلسون بلهجة مذعورة وبشيء من العنف :

ــ اذا كنت لا تريد أن تجيبني على سؤالي التالي فلا تزعج نفسك ، (ونفض رماد سيجارته) . اصحيح انك قلت لأعضاء لجنــة « ليديكر » الذين كانوا يمتحنونك : والتون ، بيت ، لارسن ، صاموئيل ، وبقية المجموعة متى سيموتون؛ واين والطريقة التي سيموتون بها ؟ اصحيح ذلك ام لا ؟ لست مضطراً للاجابة اذا لم ترغب في ذلك . ولكن اذا صدقنا الشائعات التي تدور في بوسطن ...

قال تيدي بجلاء :

ــ كلا ، ليس ذلك صحيحاً . لقد نبهتهم الى الاماكن والأزمنة التي عليهم ان يحتاطوا لها . ودللتهم على بعض الأشياء التي قد يفيدهم القيام بها ... ولكني لم اقل ما ذكرته لي . لم اقل بان هذه الأشياء لا بد ان تقع لهم .

واخرج منديله من جديد ، وتمخط .

كان نيكلسون ينتظر وعيناه لا تفارقان الصبي .

لم اقل للاستاذ بيت شيئاً من هذا القبيل لأنه لم يكن اصلاً بين الذين تحلقوا حولي يتندرون ، ويسألون مئات الأسئلة . وكل ما قلته له هو ان عليه ان يتوقف عن التدريس بعد شهر كانون الثاني ، هذا كل ما قلته له ..

وتمدد تيدي في كرسيه ، ومكث فترة لا يتفوه .

ــ اما الاساتذة الآخرون فقد ارغموني تقريباً على أن اذكر لهم ما ذكرت . كان ذلك بعد المقابلة ؛ عندما سجل ذلك الشريط . كان ذلك الوقت قد تأخر وكانوا قد مكثوا جميعاً حولي يدخنون ويحدجونني بنظراتهم الغريبة .

فألح نيكلسون :

ـ ولكن ، ألم تقل لوالتون مثلا ، او للارسن أين ؟ ومتى؟ وكيف ستكون منيتهم ؟

قال تيدي بحزم :

ـ لا ، ابداً . ولم اكن أود أن أتحدث اليهم عن شيءمن هذا القبيل .ولكنهم لم يتوقفوا عن السؤال حول هذا الموضوع . لقد فتح الاستاذ والتون الموضوع . قال انه يرغب كل الرغبة ان يعرف متى سيموت ، لأنه سيستطيع تحديد العمل الذي يمكنه القيام به قبل موته . والعمل الذي يجب أن ينصرف عنه ، وانه يستطيع بذلك استخدام عمره على الوجه الأمثل ... والح الجميع على ذلك . فتكلمت عندئذ قليلا بهذا الصدد ...

وصمت نيكلسون ، واضاف تيدي :

ـ ولكني لم اذكر لهم بالضبط متى سيموتون تماماً . انها مجرد أقاويل . كنت أستطيع ان افعل ذلك . ولكني كنت اعرف بانهم في اعماقهم لم يكونوا يرغبون في معرفة تلك الأشياء اعني كنت اعرف انهم وان كانوا يعلمون الدين والفلسفة ... ولكنهم يخشون الموت بشكل ...

ونهض تيدى ومكث لحظة صامتاً ثم اردف .

ـ ان ذلك جد سخيف . فليس الموت الا أن يخرج الانسان من جسده . لقد اعاد الناس هذه العملية آلاف وآلاف المرات ، ولكنهم لا يعرفون ذلك لأن ذاكرتهم تخونهم في هذا الموضوع بالذات .

ان ذلك لمنتهى الغباء .

قال نيكلسون :

ـ ربما .. ربما . ولكن يبقى هناك موضوع منطقي : هو أنه لا يهم مقدار الذكاء الذي ...

وردد تيدي .

ـ ذلك منتهى الغباء . إنني سأذهب مثلا الى درس السباحة بعد خمس دقائق. قد اقفز في الحوض ، وقد يكون الحوض فارغــاً ، قد يكون هو اليوم الذي يغيرون فيه ماء الحوض ؛ او ما أشبه ذلك .. واذ ذاك ماذا يمكن ان يحدث ؟ قد اقترب من الحافة لأرى قاعه مثلا . وقد تتبعني أختي ، واذا اردت ، قد تدفعني اليه ، وقد اصاب بكسر في جمجمتي ، واموت في الحال .

وحدق تيدي في نيكلسون ، ثم قال :

ـ قد يحدث ذلك . فأختي لها من العمر ست سنوات . انها لم تعد كائنــاً بشرياً منذ عدد كبير من الحيَوَات؛ وهي لا تحبني كثيراً . هناك احتمال كبير في أن يحدث ذلك . فاذا ما حدث فماذا عسى أن تكون المأساة في ذلك ؟ أعني ، ما هو السبب الذي يستدعي الخوف ؟ ان علي أن أعمل فقط ما ينتظر مني عمله .. هذا هو كل شيء . ألا تعتقد ذلك ؟

وضحك نيكلسون ضحكة تسامح وقال :

ـ ربما لن يكون ذلك مأساة من وجهة نظرك . ولكنه سيكون امراً محزناً حتماً بالنسبة لأمك وأبيك . هل فكرت في ذلك ؟

قال تيدي .

ـ نعم ، بالطبع ، ولكن سبب ذلك هو أنهم يخلعون الأسماء والعواطف على كل ما يحدث .

كان قد أعاد وضع يديه فوق فخذيه ؛ فرفعها ، ثم وضع ذراعيه على ذراعي الكرسي ، ونظر الى نيكلسون ، وسأله .

ـ هل تعرف سفين ؟ الرجل الذي يهتم بالرياضة ...

وانتظر حتى أومأ نيكلسون برأسه علامة التأكيد .

ـ حسناً فاذا حلم سفين في الليلة القادمة بأن كلبه قد مات ، فسيمضي ليلة تعيسة جداً لأنه يحب كلبه كثيراً . ولكنه عندما سيستيقظ غداً صباحاً فانه سيرى بأن

الأمور تسير سيرها الطبيعي . وسيعرف بأن ذلك لم يكن الا حلماً .

واومأ نيكلسون موافقاً .

ـ اذاً ، الى أين تريد أن تصل بالضبط ؟

ـ اريد أن أصل الى ذلك : اذا كان كلبه قد مات بالفعل فلن يكون هناك فرق ، لانه لن يعرفه . أعني انه لن يستيقظ قبل ان يكون قد مات هو نفسه .

وراح نيكلسون يدلك رقبته بحركة لا مبالية مستخدماً يــده اليمنى ببطء وتلذذ . أما يده اليسرى فقد كانت مستندة بلا حراك الى ذراع المقعد ، ولفافته غير مشعلة بين أصابعه . كان يبدو شاحباً بصورة مخيفة ، جامداً ، تحت الشمس اللاهبة .

ونهض تيدي فجأة وهو يقول :

ـ يجب أن أذهب الآن ، أخشى أنني ...

ثم جلس بحذر على مؤخرة الكرسي ، وجهاً لوجه أمام نيكلسون ، وأدخل قميصه في حزام بنطاله ، واردف :

ـ لم يعد أمامي سوى دقيقة ونصف على ما اعتقد للوصول في الوقت المناسب الى درس السباحة . انه في نهاية السطح د .

وقاطعه نيكلسون بصوت أقرب الى الخشونة :

ـ هل استطيـع ان أسألك لماذا ذكرت للاستاذ بيت أن عليه أن يتوقف عن التدريس بعد اول شهر كانون الثاني ؟ إني اعرف بوب بيت ، ولذلك اوجه لك هذا السؤال .

وشد تيدي حزامه من جلد التمساح .

ـ لقد قلت ذلك ، لأنه قد بلغ مرحلة متقدمة على المستوى الروحي . وانه الآن ليعلم اشياء ليس فيها أية فائدة له اذا ما اراد المضي في التقدم الروحي . ان

ذلك يشغله كثيرا . لقد آن لمثله ان ينزع كل ذلك من رأسه . بدلا من أن يحشوه من جديد . انه يستطيع الآن ان يتخلص من قسم كبير من التفاحة في هذه الحياة ، اذا اراد . انه ليمتلك قدرة هائلة على التأمل .

ونهض تيدي :

ـ علي أن أذهب . لا أريد ان اصل متأخراً .

ورفع نيكلسون عينيه نحوه ، وثبت بصره عليه ، وسأله :

ـ ماذا تعمل فيما لو وُكل اليك امر تغيير اسلوب التدريس . هل سبق لك ان فكرت في ذلك ؟

قال تيدي :

ـ يجب ان اذهب على الفور .

قال نيكلسون :

ـ اجب فقط على هذا السؤال ، إن التربية هي كل ما اهتم به ، وهي ماأعلمه . لذلك اوجه اليك هذا السؤال .

قال تيدي :

ـ حسناً ... لست واثقاً مما افعله . ولكني واثق تقريباً من انني لن ابدأ بالاشياء التي تعلم عادة في المدارس .

وصالب ذراعيه ثم اطرق برهة يفكر :

ـ اظن اني قد اجمع اولا كل الاطفال ، واعلمهم كيف يمارسون التأمل ؟ اجرب ان اعلمهم كيف يكشفون عن ذواتهم ، بدلا من ان يتعلموا اسماءهم وما اشبه ذلك ...

اظن اني ساحملهم قبل ذلك على نسيان كل ما علمهم اياه آباؤهم ومن يحيطبهم ،

اعني حتى اذا كان آباؤهم قد علموهم ان الفيل ضخم فاني ساجعلهم ينسون ذلك ليس الفيل ضخماً إلا اذا قارناه باشياء اخرى ككلب او سيدة مثلا .

وفكر تيدي لحظة :

ـ لن اقول لهم حتى ان الفيل له خرطوم . قد اريهم فيلا ، اذا كان هناك فيل في متناول يدي ، ولكني اتركهم يقتربون منه فقط ، دون ان يعرفوا عنه اكثر مما يعرفه الفيل عنهم ، واتبع نفس الطريقة مع العشب ، ومع الاشياء الاخرى ، لن اقول لهم حتى أن العشب أخضر . ليست الألوان ، الا أسماء . أعني أنني اذا قلت لهم بأن العشب أخضر فذلك سيقودهم حتماً الى أن يتصوروا بأن للعشب مظهراً معيناً ، هو المظهر الذي نسقطه عليه ، بدلاً من أن يكون هناك مظهر آخر يمكن ألا يقل صحة عنه ، وربما كان اكثر صحة ... لا ادري .

سأجعلهم يتقيأون كل جزء من التفاحة مهما ضؤل ، كل جزء يمكن أن يكون آباؤهم او المحيط الذي يعيشون فيه قد حملوهم على قضمه .

ـ ألا تخشى أن تنشىء بذلك جيلًا من الجهلة ؟

قال تيدي :

ـ لماذا ؟ انهم لن يكونوا أشد جهلاً من الفيل ، او العصفور ، او الشجرة مثلاً . لا يمكن أن نسمي الأشياء جاهلة لأنها موجودة على نحو ما ، بدلا من أن توجد على نحو آخر .

ـ هذا ما تراه اذاً ؟ ألا تسمي هذا جهلا ؟

قال تيدي :

ـ لا ، واذا ما رغب هؤلاء الأطفال في تعلم الأشياء الأخرى كالأسماء ، والألوان ، والأشياء فليتعلموها فيما بعد ، اذا كان الأمر يهمهم ، عندما يكونون قد بلغوا سناً معينة . ولكني أفضل أن يبدأوا النظر للاشياء كما يجب أن يُنظَر

اليها حقاً ، لا كما يراها أكلة التفاح الآخرون .

هذا ما أريد قوله .

واقترب من نيكلسون ومد له يده :

– يجب أن أذهب الآن . لقد سررت فعلا من ...

قال نيكلسون :

– لحظة من فضلك ... اجلس لحظة ألم تفكر يوماً بأنك قد تقوم ببعض الأبحاث العلمية عندما تكبر ؟ أبحاث طبية مثلا ؟ او شيء من هذا القبيل . يبدو لي أنك بهذا الذهن الذي تملكه قد . .

اجاب تيدي دون أن يجلس قائلا :

– لقد خطرت لي هذه الفكرة منذ عامين ، وتحدثت عنها الى عدد كبير من الاطباء .

ثم هز رأسه وأضاف :

– لن يثير ذلك فيّ اهتماماً كبيراً ، لان الاطباء لا يرون من الاشياء الا ظواهرها فقط . انهم يبقون أبداً على السطح . انهم يتحدثون ابداً عن الخلايا و . .

– اوه ؟ ألا تعطي أهمية لتكوين الخلايا ؟

– نعم ، بالطبع . ولكن الاطباء يتكلمون عن الخلايا كما لو انها لا تخص حقاً الشخص الذي يحملها .

ورد تيدي شعره بيديه الى الوراء ، وقال :

– لقد كبرت . لم يقم أحد بذلك بدلا مني ، فاذا ما كنت قد كبرت فمعنى ذلك أني عرفت كيف اصل وحدي الى هذا بصورة لا شعورية على الاقل . ربما كنت قد فقدت المعرفة الشعورية باسلوب النمو في فترة ما ؛ او في اخرى ، خلال مئات ملايين السنين الاخيرة التي مررت بها ، ولكن ذلك لا يقلل من صحة ان

هذه المعرفة تبقى فطرية ، لانني استخدمتها بشكل واضح .

اننا نحتاج الى كثير من التأمل ومن التفريغ لنعرف من جديد سبب هـذه الكيفية التي يتم بها نمونا ، اعني لتصبح هذه المعرفة شعورية .ولكن المرء يستطيع ذلك اذا ما رغب فيه ، اذا ما فتح الانسان ذاته على مصراعيها .

وأمسك فجأة بيد نيكلسون اليمنى المتكئة على ذراع الكرسي ؛ وهزهـا مرة واحدة بجفاوة وقال :

« الى اللقاء ، يجب أن اذهب . »

ولم يستطع نيكلسون هذه المرة ان يوقفه للسرعة التي شق بهـا طريقه بين الكراسي .

مكث نيكلسون جالساً عدة دقائق بعد ذهاب تيدي ، ويداه مرتكزتان على ذراعي الكرسي ، وكانت لفافته التي لم يشعلها بعد ما تزال بـين أصابع يده اليسرى .

واخيراً ، رفع يده اليمنى ، وتأكد من أن ياقته ما تزال مفتوحة ، ثم اشعل لفافته ، واستوى في مكانه بين الوسائد .

ودخن لفافته حتى نهايتها . ثم رفع قدمه بعنف عن الكرسي ، وسحق عقبها ، وانتصب واقفاً ، وترك السطح الاعلى مسرعاً .

هبط السلم الذي يقود نحو المقدمة بسرعة شديدة نحو سطح النزهة . ودون ان يتوقف هناك تابع الهبوط بنفس السرعة نحو السطح الرئيسي ، ثم نحو السطح آ . ثم نحو السطح ب . ثم السطح حـ . ثم السطح د :

وعند السطح د . كانت نهاية الممرات نحو المقدمة .

وبقي نيكلسون هناك لحظة ، كما لو انه أضاع الطريق ، ثم لاحظ شخصاً بدا له أنه يستطيع أن يدله عليه .

كانت في الممر ، عند مدخل المطابخ ، مضيفة تقرأ مجلة وهي تدخن لفافة .

اقترب منها نيكلسون ، واستفسر عن الطريق بايجاز ، ثم شكرها . ثم خطا عدة خطوات الى الامام ، وفتح باباً معدنياً ثقيلا كتب عليه « حوض الاستحمام » كان وراءه سلم ضيق لم يفرش بالسجاد . كان نيكلسون قد هبط اكثر من نصف السلم عندما سمع صراخاً حاداً ، طويلا مبعثه فتـــاة صغيرة من دون شك . كان يرن في الاذنين . رنيناً حاداً ، كما لو ان اربعة جدران من الآجر تردده كصوت رصاصة .

تمت

فهرس

١ – يوم مثالي لسمكة الموز .

٢ – العم المرضوض في كونكتيكوت .

٣ – عشية الحرب مع الاسكيمو .

٤ – الرجل الضاحك .

٥ – تحت .. في المركب .

٦ – من اجل ايسمه .. مع الحب والدناءة

٧ – جميل فمي ، وخضراوان عيناي .

٨ – دوميه سميث يدخل معترك الحياة .

٩ – تيدي .

اعني حتى اذا كان آباؤهم قد علموهم ان الفيل ضخم فاني ساجعلهم ينسون ذلك ليس الفيل ضخماً إلا اذا قارناه باشياء اخرى ككلب او سيدة مثلا .

وفكر تيدي لحظة :

ـ لن اقول لهم حتى ان الفيل له خرطوم . قد اريهم فيلا ، اذا كان هناك فيل في متناول يدى ، ولكني اتركهم يقتربون منه فقط ، دون ان يعرفوا عنه اكثر مما يعرفه الفيل عنهم ، واتبـع نفس الطريقة مع العشب ، ومع الاشيـاء الاخرى ، لن اقول لهم حتى أن العشب أخضر . ليست الألوان ، الا أسماء . أعني أنني اذا قلت لهم بأن العشب أخضر فذلك سيقودهم حتماً الى أن يتصوروا بأن للعشب مظهراً معيناً ، هو المظهر الذي نسقطه عليه ، بدلاً من أن يكون هناك مظهر آخر يمكن ألا يقل صحة عنه ، وربما كان اكثر صحة ... لا ادري .

سأجعلهم يتقيأون كل جزء من التفاحة مهما ضؤل ، كل جزء يمكن أن يكون آباؤهم او المحيط الذي يعيشون فيه قد حملوهم على قضمه .

ـ ألا تخشى أن تنشيء بذلك جيلاً من الجهلة ؟

قال تيدي :

ـ لماذا ؟ انهم لن يكونوا أشد جهلاً من الفيـل ، او العصفور ، او الشجرة مثلاً . لا يمكن أن نسمي الأشياء جاهلة لأنها موجودة على نحو ما ، بدلا من أن توجد على نحو آخر .

ـ هذا ما تراه اذاً ؟ ألا تسمي هذا جهلا ؟

قال تيدي :

ـ لا ، واذا ما رغب هؤلاء الأطفال في تعلم الأشياء الأخرى كالأسمـاء ، والألوان ، والأشياء فليتعلموها فيما بعد ، اذا كان الأمر يهمهم ، عندما يكونون قد بلغوا سناً معينة . ولكني أفضل أن يبدأوا النظر للاشياء كما يجب أن يُنظَر

اليها حقاً ، لا كما يراها أكلة التفاح الآخرون .

هذا ما أريد قوله .

واقترب من نيكلسون ومد له يده :

– يجب أن أذهب الآن . لقد سررت فعلا من ...

قال نيكلسون :

– لحظة من فضلك ... اجلس لحظة ألم تفكر يوماً بأنك قـد تقوم ببعض الأبحاث العلمية عندما تكبر ؟ أبحاث طبية مثلا ? او شيء من هذا القبيل . يبدو لي أنك بهذا الذهن الذي تملكه قد . .

اجاب تيدي دون أن يجلس قائلا :

– لقد خطرت لي هذه الفكرة منذ عامين ، وتحدثت عنها الى عدد كبير من الاطباء .

ثم هز رأسه وأضاف :

– لن يثير ذلك فيّ اهتماماً كبيراً ، لان الاطبـــاء لا يرون من الاشياء الا ظواهرها فقط . انهم يبقون أبداً على السطح . انهم يتحدثون ابداً عن الخلايا و . .

– اوه ? ألا تعطي أهمية لتكوين الخلايا ؟

– نعم ، بالطبع . ولكن الاطباء يتكلمون عن الخلايا كما لو انها لا تخص حقاً الشخص الذي يحملها .

ورد تيدي شعره بيديه الى الوراء ، وقال :

– لقد كبرت . لم يقم أحد بذلك بدلا مني ، فاذا ما كنت قد كبرت فمعنى ذلك أني عرفت كيف اصل وحدي الى هذا بصورة لا شعورية على الاقل . ربما كنت قد فقدت المعرفة الشعورية باسلوب النمو في فترة ما ؛ او في اخرى ، خلال مئات ملايين السنين الاخيرة التي مررت بها ، ولكن ذلك لا يقلل من صحة ان

الأمور تسير سيرها الطبيعي . وسيعرف بأن ذلك لم يكن الا حلماً .

واومأ نيكلسون موافقاً .

ـ اذاً ، الى أين تريد أن تصل بالضبط ؟

ـ اريد أن أصل الى ذلك : اذا كان كلبه قد مات بالفعل فلن يكون هناك فرق ، لانه لن يعرفه . أعني انه لن يستيقظ قبل ان يكون قد مات هو نفسه .

وراح نيكلسون يدلك رقبته بحركة لا مبالية مستخدماً يـده اليمنى ببطء وتلذذ . أما يده اليسرى فقد كانت مستندة بلا حراك الى ذراع المقعد ، ولفافته غير مشعلة بين أصابعه . كان يبدو شاحباً بصورة مخيفة ، جامداً ، تحت الشمس اللاهبة .

ونهض تيدي فجأة وهو يقول :

ــ يجب أن أذهب الآن ، أخشى أنني ...

ثم جلس بحذر على مؤخرة الكرسي ، وجهاً لوجه أمام نيكلسون ، وأدخل قميصه في حزام بنطاله ، واردف :

ــ لم يعد أمامي سوى دقيقة ونصف على ما اعتقد للوصول في الوقت المناسب الى درس السباحة . انه في نهاية السطح د .

وقاطعه نيكلسون بصوت أقرب الى الخشونة :

ــ هل استطيع ان أسألك لماذا ذكرت للاستاذ بيت أن عليه أن يتوقف عن التدريس بعد اول شهر كانون الثاني ؟ إني اعرف بوب بيت ، ولذلك اوجه لك هذا السؤال .

وشد تيدي حزامه من جلد التمساح .

ـ لقد قلت ذلك ، لأنه قد بلغ مرحلة متقدمة على المستوى الروحي . وانه الآن ليعلم اشياء ليس فيها أية فائدة له اذا ما اراد المضي في التقدم الروحي . ان

ذلك يشغله كثيرا . لقد آن لمثله ان ينزع كل ذلك من رأسه . بدلا من أن يحشوه من جديد . انه يستطيـع الآن ان يتخلص من قسم كبير من التفاحة في هـــذه الحياة ، اذا اراد . انه ليمتلك قدرة هائلة على التأمل .

ونهض تيدي :

ـ علي أن أذهب . لا أريد ان اصل متأخراً .

ورفع نيكلسون عينيه نحوه ، وثبت بصره عليه ، وسأله :

ـ ماذا تعمل فيما لو وُكل اليك امر تغيير اسلوب التدريس . هل سبق لك ان فكرت في ذلك ؟

قال تيدي :

ـ يجب ان اذهب على الفور .

قال نيكلسون :

ـ اجب فقط على هذا السؤال ، إن التربية هي كل ما اهتم به ، وهي ماأعلمه. لذلك اوجه اليك هذا السؤال .

قال تيدي :

ـ حسناً ... لست واثقاً مما افعله . ولكني واثق تقريباً من انني لن ابـــدأ بالاشياء التي تعلم عادة في المدارس .

وصالب ذراعيه ثم اطرق برهة يفكر :

ـ اظن اني قد اجمع اولا كل الاطفال ، واعلمهم كيف يمارسون التأمل ؟ اجرب ان اعلمهم كيف يكشفون عن ذواتهم ، بدلا من ان يتعلموا اسماءهم ومـــا اشبه ذلك ...

اظن اني ساحملهم قبل ذلك على نسيان كل ما علمهم اياه آباؤهم ومن يحيطبهم ،

هذه المعرفة تبقى فطرية ، لانني استخدمتها بشكل واضح .

اننا نحتاج الى كثير من التأمل ومن التفريغ لنعرف من جديد سبب هـــذه الكيفية التي يتم بها نمونا ، اعني لتصبح هذه المعرفة شعورية .ولكن المرء يستطيع ذلك اذا ما رغب فيه ، اذا ما فتح الانسان ذاته على مصراعيها .

وأمسك فجأة بيد نيكلسون اليمنى المتكئة على ذراع الكرسي ؛ وهزهـــا مرة واحدة بجفاوة وقال :

« الى اللقاء ، يجب أن اذهب . »

ولم يستطع نيكلسون هذه المرة ان يوقفه للسرعة التي شق بهـــا طريقه بين الكراسي .

مكث نيكلسون جالساً عدة دقائق بعد ذهاب تيدي ، ويداه مرتكزتان على ذراعي الكرسي ، وكانت لفافته التي لم يشعلها بعد ما تزال بـــين أصابع يده اليسرى .

واخيراً ، رفع يده اليمنى ، وتأكد من أن ياقته ما تزال مفتوحة ، ثم اشعل لفافته ، واستوى في مكانه بين الوسائد .

ودخن لفافته حتى نهايتها . ثم رفع قدمه بعنف عن الكرسي ، وسحق عقبها ، وانتصب واقفاً ، وترك السطح الاعلى مسرعاً .

هبط السلم الذي يقود نحو المقدمة بسرعة شديدة نحو سطح النزهة . ودون ان يتوقف هناك تابع الهبوط بنفس السرعة نحو السطح الرئيسي ، ثم نحو السطح آ . ثم نحو السطح ب . ثم السطح حـ . ثم السطح د :

وعند السطح د . كانت نهاية الممرات نحو المقدمة .

وبقي نيكلسون هناك لحظة ، كما لو انه أضاع الطريق ، ثم لاحظ شخصاً بدا له أنه يستطيع أن يدله عليه .

كانت في الممر ، عند مدخل المطابخ ، مضيفة تقرأ مجلة وهي تدخن لفافة .

اقترب منها نيكلسون ، واستفسر عن الطريق بايجاز ، ثم شكرها . ثم خطا عدة خطوات الى الامام ، وفتح باباً معدنياً ثقيلا كتب عليه « حوض الاستحمام » كان وراءه سلم ضيق لم يفرش بالسجاد . كان نيكلسون قد هبط اكثر من نصف السلم عندما سمع صراخاً حاداً ، طويلا مبعثه فتـــاة صغيرة من دون شك . كان يرن في الاذنين . رنيناً حاداً ، كما لو ان اربعة جدران من الآجر تردده كصوت رصاصة .

تمت

فهرس

١ ـ يوم مثالي لسمكة الموز .
٢ ـ العم المرضوض في كونكتيكوت .
٣ ـ عشية الحرب مع الاسكيمو .
٤ ـ الرجل الضاحك .
٥ ـ تحت .. في المركب .
٦ ـ من اجل ايسمه .. مع الحب والدناءة
٧ ـ جميل فمي ، وخضراوان عيناي .
٨ ـ دوميه سميث يدخل معترك الحياة .
٩ ـ تيدي .

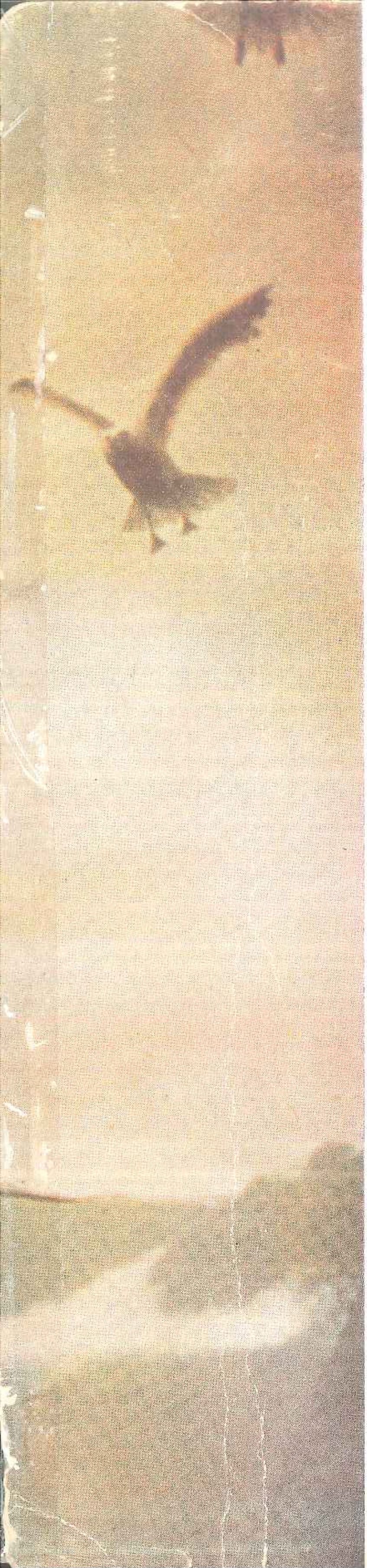

بعض ما قيل في مؤلف هذا الكتاب

★

● « اذا لم يكن ج . د . سالنجر اكبر كتاب العالم الجديد، فهو بلا ريب اكثرهم تفرداً وغنى واكثرهم اثارة وجدة ، انه المع واروع هؤلاء الكتاب على الاطلاق . »

جريدة « كومبا » الفرنسية

● « يملك سالنجر موهبة خارقة ... انه ابرز الكتاب المعاصرين في العالم ... »

صحيفة « سان فرانسيسكو كرونيكل »

● « اقرأوا سالنجر واعيدوا قراءته ، مترجماً او في لغته الاصلية ، فهو معين لا ينضب ... »

مجلة « فرانس اوبسرفاتور » الفرنسية

★

منشورات
دار الاتحاد

الثمن ٥٠٠ ق . ل . ٥٧٥ ق . س . او ما يعادلها .